

الامام
علي بن أبي طالب

الجزء الرابع

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

كان سلماً إلى حين ، حتى تنجاب عنهم غاشية الدلة ويهدأ الروح . . آفة الشر في نفوسهم مقيمة ، لها ديب ووجيب . والقلوب التي استشعرت الأمن من بعد خوف تحركت بها مواجدها . فلا الحرب صهرتها فطهرتها ولا المفرة أسرتها فغيرتها . إنما عاد لها شنائها القديم سيرته الأولى ، يغلى ويفور ويشور . كان خفقها الضغينة ، وهل لقلب بغير نبض حياة ؟

ذات مرة أحكم وصف عواطف الناس نحوه فقال :

« لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني ، ولو صببت الدنيا بحسباتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني . ذلك أنه قضى فانتضى على لسان النبي الأمي أنه قال : يا علي لا يبغضك مؤمن ، ولا يحبك منافق . . . »

فصدقت قوله بصدق ما سبقها من نبوءة الرسول .

وها هو اليوم : يطعم من أحقادهم صابها وعلقمها وما انفك عن رقابهم كرمه . . . لعلمهم في ذات اللحظة التي أباحهم فيها الأمن والحياة والحرية كانوا في دخيلة نفوسهم يدبرون ما يفسد عليه أمره ، ويزلزل سلطانه ، ويهد كيانه . . . لعلمهم يصطنعون مكرآ جديداً يشبهه على إحسانه إليهم إساءة . . . لعلمهم يحتلون ويحتلون عنه قوما لم تستر بصائرهم ليهضموه ثمرة حقه بعد أن وجئت دونها بالأمس رقاب وفريت أسباب . أفيعجب ؟ . . أم هي هكذا طبيعة الأهواء ؟ . .

كم منهم عطفهم إليه عطفه ؟ . . كم منهم استأسرهم عفوه — هذه الطغمة الباقية من وليمة الموت ؟ . . عندما كان قد رم على طرف لسانه ورهين بنائه . اشتروا منه آجالهم بذلتهم . فيهم فئة خشيت الحنف فلاذت بفرار وبقية أعمار . . . وفيهم أخرى قهرها الخوف قبل السيف فأحنت الهام وخفضت الجباه ليلى لها في الحياة . . . أولئك شهدوا بيعته على أرض الواقعة حين انجلى عن أديمها غبار الصراع وراحوا يرددون مع الناس : « علينا عهد الله وميثاقه بالوفاء ، لنكون لسلك سلماً ، ولحربك حرباً ، ولنكفن عنك السنن وأيدينا . . . » — بل

قد فعلوا ، ومدوا إليه الأ كف بالتسليم وإن عف هو عن تقبل هذه الأبدى التى انبسطت نحوه تظهر الخضوع وتسكنم الخداع . ومع ذلك فقد كبح عنهم بطشه ، ورد تقمته ، وكان صفحه صدى طبيعة كريمة ليس وسيلة إلى استخلاص طاعة أو كسب ولاء .

لكنهم لم يعرفوا له جميله الذى طرق أجيادهم وقلدتهم . لم تمنعطف قلوبهم إليه من بعد شرود . لا ، ولم يمنحوا — فى القليل — إلى مهادته أو الصبر عليه ، كأنما العار فى الطاعة أو القرار ليس فى خلافهم هذا كل العار . . . فاعجب إذن منهم ، كيف اشتبهت عليهم القيم ، والتوت بهم مسالك النظر حتى أصبح جزاء العمل عندهم كفاء عكسه لا كفاء جنسه . . .

أنتمثل هذا الجحود يلقون مثيله ؟ . وبالإحـن المشاقة يستقبلون منه هذه الطبيعة السمحاء ؟ . . غيره جدير منهم بسوآت الأنفس الناضجة ببغضائه المنكرة لآلائه ، التى لا تزال يقبضها شر لييسطها شر ثم لا يكفها غلوها فى كراهته دون أن تجرع من كؤوس حسدها حتى تخاض إلى عمالة الشرور . . . لكنه كان يسمو بنفسه عن مقابلة الصغار بالصغار ، ويملو بالطبيعة البشرية التى خالطت روحه ترفماً عن الفرائز الدنية ، ويقهر الهوى لينصر الله . أو ليست الأهواء الجامحة محاريب إبليس ؟ . . .

الإمام كان أعرف بالسنة الهادية . كان صاحب رسالة راح ينشرها لتحصين الأخلاق . وكانت وسيلته الأولى لنشرها أن يكون هو أسوة ، وأن يضرب بفعله وقوله الأمثال للناس . وفى الصراع الذى انتشب بينه وبين عدوه وسالت خلاله الدماء كالجداول ، حرص دائماً على أن يكون مرآة مصقولة ، من شهد فيها استبان رشده وظالمته أقوم الحلال — فى الخلاف السلمى وفى الخلاف الحربى سواء بسواء . . . ولم يكن كرمه بهم وسيلة لمطفهم إليه ، بل كان عفوا للعفو وصفحا للصفح ودرسا ترشد به الأنفس التى تميل إلى الاستيعاب ولا تتغافل عن طريق الصواب أجل ، كان أبعد امرئ عن تسقط النصير من سبيل استدلاله بخوف أو استئساره بمكرمة . كذلك شهدناه وكذلك هو على الأيام ، وإنه ليرج المدينة فى أعقاب أم المؤمنين وصاحبها فلا يستبطن إلا من توثقت به النية

على غير خذلاته ، فمن عرفه مدخولا قلبه استغنى عنه . ومن كان نقي له سريره
ثم ثبطه عن مظاهرتة حين الصراع شيء لم ينله بالقهر ليحتلبه المعونة وإنه
ليترك قبلها ، يوم استخلافه بالمدينة ، أناساً وشأنهم رأوا أن يحبسوا عنه بيعتهم
ما كان أيسر أن يركنوا — لو عنف بهم قليلا — إلى الخضوع وإنه ليخلي
إبان مسيره صوب البصرة بين قيس وطائفة أخرى من القبائل وبين اعتزاله
في الفتنة التي شبتها عائشة ، وأذكاها طلحة ، وأقم في سيرها ابن العوام وأمدّها
بالوقود مروان وطعمة أمية الموتورون . ولو قد شاء لأخذ بالشدة أولئك
وهؤلاء . ولكنه كان داعية حق يهدي إلى السبيل السوى ؛ فليس السيف إذن
بأقطع وسائله ، إنما الحجة كانت وحدها سلاحه . ولئن وثب ، يوم الجمل ، بخيله
ورجله على جحافل مناوئيه ، فلقد فعل بعد أن أعيته الحسنى ، ومضى يحارب فيهم
الردة عن الحق ، وخلف الوعد ، ونقض العهد ، وصدع الأمة الإسلامية التي
لم شتاتها — قبل غدرهم — جهاد الرسول . . .

أما الآن — إذ خمدت الفتنة — فالحجة هي الحجة ، والإعذار هو الإعذار
ما من سبيل له إلى قلوب من قعدوا عنه وأفهامهم إلا أن يصرهم على أن يروا
طريقه واضحا سويا لا تضل عنه البصائر ولا تزيع الأبصار . ليس الختل سبيله .
ولا الملق ، ولا شراء النفوس سلعة رخيصة مبخوسة بذهب الإغراء هو
نفسه لم تقو الدنيا بنشبهها وزخرفها وسلطانها العريض الباذخ على ابتياعه ، فكيف
إذن يتخذها أداة فتنة في كفه يلوح بها أمام أعين الآخرين ؟ . . .

بغير هذا يقوم الإمام في الناس . وإنه ليدخل الكوفة غب ظفّره بأعدائه
من جند الجمل فلا يفتنه عن مثله المستقيمة زهو الانتصار . إنما يغدو أشد تأبيا
على سطوة النفس ، أدنى تواضعا إلى الله كحاله منذ عرفته دنياه يقبل عليه
أنصاره ، وقد هيأوا له دار الإمرة بحاضرة ملكه الجديد ، يسألون :

« يا أمير المؤمنين ، أين تنزل — أنزل القصر ؟ » .

فيتواضع تواضعا هو قمة الترفع وأعلاء عندما يجيب :

« قصر الجبال لا تنزلونيه . . . » .

ويأمر فينزل الرحبة لأنه أراد تجنب نفسه منازل الأبهة والاختيال وإن كانت

عصية بطبعها على الغرور منيعة عن بذاته . فحسبه أن يقيم بنجوة عن دار كانت قبله مقام فرقة من الطغاة أصحاب الجور . . .

لقد كانت الدنيا بعزها تافهة ، بغيبضة لديه ، يدفعها دفعك الحية الرقطاء وإن استهوتك من جلدها الرقش زخارفه . ولم يكن مجهولاً عنه أنه طالما قضى الأليالي مسهداً يناجيها وفي نبراته تنطلق سحرته كنطق نسكه وتأنيبه : « هيهات ! غرى غرى . . لا حاجة لى فيك ، فعيشك قصير ، وخطرك يسير ، وأملك حقير . . » — كان أبداً يلقى بسماها بغير احتفال ، وإقبالها عليه بالإدبار والزراية . ولم يكن فحسب يحصن نفسه دون اشتهاها والتزوع إلى مغاتها ، بل ظل دائماً يحصن — كما بدا — جبهة الناس ، ويلقنهم ما وسعه بفعله وقوله كيف يكون كفاح النفس وجهاد شهواتها وإن جاء جهادهم هذا — فيما يحسب الغافلون — على حساب هيئته ، وهو صاحب الأمر فيهم ، ومن حق له عليهم أن يستقبلوه بمظاهر التجلة والهيبة ، وعلائم الإعظام والتوقير . ولكنه وفي مثله ، حريص على غرس أصولها عميقة في القلوب ، ونشر فروعها عليه في الضمائر حتى لشهده يغضب أشد غضب وأبلغه لأن فريقاً من دهاقين الأنبار قد ترجلوا له عن خيولهم ومشوا يشتدون بين يديه من إجلال . . . يقول لهم حينذاك وقد ساء ما رآه :

« ما هذا الذي صنعتموه ؟ . . . »

فيجيبه القوم وهم في عجب من أمره إذ يثيبهم الإنكار على ما حسبوه مجلبة رضائه وما هو دائماً مبتغى سواه :

« خلق منا نعظم به أمراءنا ، يا أمير المؤمنين . . »

عندئذ يأسى لهم من بعد زراية ، فجعلهم بحزنه حقيق ، ويقول باسطلا لهم آفاق الهداية :

« والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم ، وإنكم لتشقون به على أنفسكم في دنياكم ، وتشقون به في آخرتكم . وما أخسر المشقة وراءها العقاب ، وأريح الدعة معها الأمان من النار . . . »

ما هو إذن بصاحب دنيا فيشتري من الناس نفوسهم بعرض الحياة كما يفعل غريمه نزيل دمشق المنحدر من أصلاب التجار . . . ولا طالب جاء من منصب

أو سلطان فيرائهم لينصروه ، إنما جأه خلقه ، وسلطانه حقه . وهو رجل دعوة مثلى ، بالحق تنادى وعلى الحق تقوم ، فليس يكرئه إلا أن تنعرف أساليبه إلى غير ما يؤمن به ويناضل عنه وحاشاه أن يحيد . . . أما الدنيا فليس لها عنده حساب . وليس يحب أن تكون ذات شأن في تفكير رجاله وأخلاقهم فيأدرهم بما يهون أمرها ويقمأ خطرها — يخاطبهم ، ويعظ الناس ، ومن فوق منبر الكوفة يوم دخلوها وفي ركبهم النصر . بعد أن ذهبت ربح جند البهيمة :

« . . . إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسى الآخرة . . . ألا إن الدنيا قد ترحلت مدبرة ، والآخرة ترحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة . اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل . . . »

غير أنه ، وإن كان قليل الاحتفال بهذه الدنيا ، سادرا عن مفاتها ، لا يزدهيه فيها نصر ولا يبطره جأه ، إلا أنه لم يكن الذى ينأى على الهضم فيدع حقه نهياً مضيقاً بين نوازع الهوى الضالة . لقد كان أدنى إلى صفعة وصبره على ضيقهم لو قد جاروا على حقوقه خاصة ، ولكنه فى حق الله ليس بالصافح الصابر . وما نكث الناكثون بيعته فحسب ، حين نكثوا ، وإنما اجتروا على حق الأمة ، وفرقوا الكرامة بعد اجتماع ، وثلموا فى دين الله ثلثة غدت عزيزة على الالتئام . وإذا كان قد ألقمهم بظلمهم السيف ، ومشى على هامهم بالنايا الحاصدة ، فأولئك الذين آمنوا بالقضية التى قام بنصرها ثم تقاعدوا عن تعزيزه لهم جزاء المتخلف الذى أوشك الوفى أن يسلكه مسلك المتعيف . . .

لذلك لا يبرح له المنبر حتى يهتف بأهل حاضرتة الجديدة :

« . . . إنه قد قعد عن نصرتى منكم رجال ، فأنا عليهم عاتب زار ، فاهجروهم

واسمعوهم ما يكرهون حتى يفتبوا ، ليعرف بذلك حزب الله عند الفرقة . . . »

إنما أراد أن ينصف فلا يأخذهم بتقاعسهم عنه قبل أن يعذر إليهم ، حتى يتبين أعن غير عداوة كان ذلك القمود أم رضوا أن يكونوا مع الحوائف لحقت عليهم قوله الله فى المناققين بالمدينة إبان عهد الرسول : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فبطهم ، وقيل أقعدوا مع القاعدين . »

لكن الحية تملك نفس مالك بن حبيب اليربوعي ، فلا يكاد يسمع من الإمام هديه حتى يغضبه هذا الرفق بالحوالف ، فيقول :
« والله إنى لأرى المهجر وإسماع المكروه لهم قليلا . والله أنى أمرتنا لنقتلهم ! . . . »

فلا يرضى الإمام منه بأن يخرج غرضه عن طوره ، وعن السبيل المأمون ، فيرده عن غلوائه :

« سبحان الله يا مال . . . جزت المدى ، وعدوت الحد ، وأغرقت في النزاع ! . . . »

« يا أمير المؤمنين . لبعض الغشم أبلغ في أمور تنوبك من مهادة الأعادي . . . »

« ليس هكذا قضى الله يا مال . قتل النفس بالنفس ، فما بال الغشم ! . . . »
ثم لا تكاد الجموع أن تقبل عليه خافضة جناحها لسلطانه ، خاضعة له ، حتى يلتفت منهم إلى السادة الذين اعتزلوه يحبهم بعذله في صراحة مكشوفة :
« ما بظاً بكم عني وأنتم أشرف قومكم ؟ . والله أنى كان من ضعف النية وتقصير البصيرة إنكم لبور ! . . . والله أنى كان من شك في فضلي ومظاهرة على إنكم لمدو ؟ . . . »
ويردف العتاب بقول الله :

« . . . وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله على إذ لم أكن ممكماً شهيداً . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ، كأن لم تكن بينكم وبينه مودة : يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً . »

بهذا الأسلوب الواضح المستقيم كان يلقاهم ، غير باغ ولا عاد ، وهو مستمسك بحقه عليهم ، ملتزم حدود الشريعة العادلة السمحاء أدق التزام . وكانت صراحته ، على عتفها ، أفعل في النفوس من ختل معاوية غريعه ، أقدر على استعبادها من الدهان والمراعاة . ولعل في نبأ سليمان بن صرد ، وزياد بن أبيه ، وسيرتهما الماثورة في الوفاء له طوال النوازل التي ألت به هذه ، ما قد يؤيد لدينا منهاجه الواضح السليم . . .

يدخل عليه سليمان ، غب رجعتك من البصرة ، مسلما ، فيلومه الإمام :
« ارتبت وتربعت وراوغت . . . وقد كنت من أوثق الناس في نفسي ،
وأسرعهم ، فيما أظن ، إلى نصرتي ، فما قمد بك عن أهل بيت نبيك ؟ وما زهدك
في نصرهم ؟ »

فيعتذر له الصحابي الجليل ، ويحييه في استحياء يخالطه رجاء :
« يا أمير المؤمنين . لا تردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبني بما مضى منها ،
واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي . . . وقد بقيت أمور تعرف فيها وليك من
عدوك . . . »

ثم يؤوده ما بدا من على من الإغضاء ، فيسرع إلى الحسن سبط الرسول
يستجير به على غضبة أبيه :

« ألا أعجبتك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التيكيت والتوبيخ ؟ . . »
فيلقاه الحسن بالأمثور من رفقه وسجاجة طباعه :

« إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته . »
« إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا ، وينتضي فيها السيوف ، ويحتاج فيه
إلى أشباهي ، فلا تستغشوا عتي ، ولا تهموا نصيحتي . . »
عندئذ يربت الحسن كتف الرجل النادم الأسيف ، مهدئا روعه :
« رحمك الله ، ما أنت عندنا بالظنين . »

وكان سليمان حقا أبعد عن متناول الشبهات ، فبقى أبدا مخلصا للإمام طوال
أيام عهده ، وفيما لذكراه من بعده إذ احتوته روضته ، حتى لقي مصرعه في الطلب
بدم الحسين الشهيد .

وكذلك وفي لعل زياد . أو هو في القليل ظل له الولي المؤثر بأمره ، المزدجر
بنواهيه إبان منى خلافته وصدر من تملك معاوية — ولئن التزم في البدء الحيدة ،
واحتجب في البصرة أثناء الصراع الذي لون تراها ، وحق عليه بهذا الاعتزال
لحى الإمام ، فلقد لاذ عقيب الجمل بأبي السبطين حليل الزهراء ، وأخذ ينضح
عنه وعن غايته في ولاء وغيره حتى أراد الله لهذه القصير أن يزول ، بل هو قد

ظفر من ثقة على في ذات اليوم الذي استعق فيه تأنيبه بما أوشك أن يفيله إمرة البصرة ، لولا أن اعتذر وقال :

« . . بل رجل من أهل بيتك ، يا أمير المؤمنين ، يسكن إليه الناس فإنه أجدر أن يطعثنوا ، وسأ كفيكه ، وأشير عليه . . . »

وقد فعل . فكان المشير المخلص الناصح لوالدها دونه عبد الله ابن عباس . وكانت له في سياسة الأمر فيها حكمة أدلى بها للأمير حقيقة بأن يصلح بها شأنها في مثل ذلك الوقت الذي أطلع الفتنة :

« اضرب بمن أطاعك من عساك ومن ترك أمرك ، فإن كان أعز للإسلام وأصلح له أن يضرب عنقه فاضرب عنقه . . . »

ثم كان من بعد يدا على قوية القبضة ، أمسكت نواحي من دولته أن تنهار . لم يغره عن الوفاء له نسب يلحقه بأبي سفيان ويلصقه أخا بصاحب الشام غريم الإمام ، ولعل أبلغ ما قد يشير إلى المحاولات التي ظل معاوية يبذلها لقتل ابن أبيه ، والليل به عن الولاء الذي استنه لنفسه وارتضاء ، ذلك الكتاب الذي بعث به أمير المؤمنين ، بعد حين ، إلى زياد ، يبصره بخديعة أخيه :

« . . وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل بك ، ويستغل غريك ، فاحذره ، فإنما هو شيطان يأتي للمؤمن من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليقتحم غفلته ، ويستلب غرته . . . وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر فلتة من حديث النفس . ونزغة من نزغات الشيطان . لا يثبت بها نسب . ولا يستعق بها إرث . والمتعلق بها كالواغل المدفع . والنوط المذبذب . »

لكن معاوية لم تقعد به وسائله عن الكيد للرجل الواضح الحجة . السوى السبيل . فإن له إلى النفوس مسارب ملتوية كأنها مسارب الأرقام والتعالب الرواغة . . . ولئن أعجزه أن يلقي غريمه بالحجة فليس يعجزه أن يلقاه بالخداع . ولئن بات كالحفاش يعشيه النور فبحاله إذن ظلمة الدميصة . ولئن عز عليه أن يستلحق زيادا وإن لوح له بالنسب الأصيل بعد الصلب المجهول . فهين أن

يستلحق غيره ويلقهم حول عروض دنياه كالتفاف الضباع بالجيفة . . . يسير هذا عليه ما بقيت النفوس كلفة بالآراب والمطامع ، وما أكثر من استجابوا سراحا لنزغة واستعبدتهم شهوة الحقد ، أو سطوة للنصب ، أو فتنة الثراء .

حتى أولئك الذين اصطلوا بمحنة الجمل وودوا لوجنبوا نفوسهم محنة غيرها تالية ، لم يعدموه محركا لنفوسهم على الإمام . . . نجح ابن عامر من البصرة بشوبه وما يكاد فطوى في حشاه همه وقبع بيقعة بعيدة عن النضال يجتر فيها طموحه الذي التمع آونة من عمر الغابر في أفقه التماع السراب ، فلما قنع من كفاحه الفاشل بالأوبة ، وغتم البقيا ، وحسب الهدوء والأمن في حيثما أقام ، جاءه من معاوية كتاب يشيره ، ويوقظ في فؤاده أطماعه الجريحة ، ويحرك في نفسه جذوة الحقد التي أوشك أن يدفنها رماد الاندحار .

إذ ذاك كتب الرجل — الذي ما زالت في دخيلته بقية تحضه على أن يلوذ بالسلامة — يرد على كتاب الشيطان :

« . . إني أقعمت طلعة والزير إلى البصرة وأنا أقول : إذا رأى الناس أم المؤمنين مالوا إليها ، وإن فر الناس لم يفر الزير ، وإن غدر الناس لم يغير مروان . فغلبت عائشة ، ورجع الزير ، وقال مروان طلعة ، وذهب مالي بما فيه . . . وإن اليوم كأس ، والناس أشباه . . . »

فلم يوثس الجواب ذلك المفتون بالسلطان . الساعى إليه من كل سبيل وإن كان تمزيق الأمة وتفريق وحدتها ، بل عاود نزغته هذه المرة أبلغ وأشد فكتب يقول :

« . . أما بعد ، فإنك قلت أمر دينك قتلة عثمان ، وأنفقت مالك لابن الزير ، وآثرت المراق على الشام فأخرجك الله صفر اليدين ، ليس لك حظ الحق ولا ثأر القتل . . »

ويعض يدور بابن عامر ، يعالج جماعه ، ويهيج فيه ما خمد من نحوه الثأر ويوقع في فؤاده الحسرة على ما أتفق في فتنة الجمل من أموال ، حتى يلين لو سوسته . . . فإذا رآه ترك نجوته ، وشد نحوه الرجال ، وابتسم لنفسه راضيا عن أحاييله . . . أليس به قد استزاد أصبما جديدة في مجموعة الأكف التي أعدها كي تجتذب له الشواء الشهى من بين النار ؟ . . .

غدت للمدينة بلدة الذكرى ! . . لم تعد موطن الحكم ، ولا مستقر الحياة السياسية التي أخذت تصبغ الدولة من طرفيها بأصباغ فيها اختلطت حمرة الدماء ! . . إنما باتت وأصبحت فإذا خطر لها قد ذهب ، وضحه الماضي ، وبقيت لها منه الصورة الباهتة التي تتحدث سماتها البوادي بدورها القديم في تاريخ الإسلام .

سبعة أشهر من التنافر والاضطراب قضت تماما على مكانة البلدة الطيبة ، وخرجت بها عن معترك الأحداث التي مضت تتعرف بمصير الأمة إلى خلاف ما رسمت لها رسالة الرسول . وإلى غير ما أملت نفوس قوم رفعوا في السنين الحواري ألوية الكفاح والجهاد . وكان الدين الناشئ القويم يأسى ، والقلوب الخالصة لله تقطر بالحزن خشية من مستقبل غامض يهم أن يقودهم إلى التناحر . غير أنه قدر جرى على بلاد السلام لم يكن له من مغير ، ومصير مقضى به قبل أن تتجمع في الأفق مقدماته وأسبابه ، الله بالغ به أمره . ومنذ اللحظة التي أمسك فيها عبد الله بن سلام بعنان دابة الإمام يود أن يرده عن الخروج من حاضرة محمد ، كان ذلك المصير قد استوى قائما على قدميه ، وراح يدب على صفحات التاريخ ديب الدابة على صفحة الرمال . فما انثنى على ، بعد مسيره في أعقاب جند عائشة ، إلى مدينة الرسول . ولا عادت البلدة ثانية إلى ما كان لها من المجد ومن القوامة السياسية على أمصار الإسلام . ولكنها تخلفت عن مكان الصدارة ، ونزلت مقهورة عن دورها السالف إلى سواها ثم قبعت كسيرة في قتامة الظلام ! . .

وكانت الكوفة هي الوارثة . برزت إلى ضياء الحوادث ذات يوم من الشتاء ندى الريح . وتسلمت صوايح الحكم من الحاضرة الأولى ، التي احتضنت النبوة ، وآوت شرودها ، وأمنتها من خوف ، ثم شهدت من بعد انبعاث المستضعفين من كتائب الله ، وانتشارهم في الآفاق على الحواضر والبيد ، ذوى أيدٍ شديدة وفي أكفهم مشاعل النور . . . الكوفة أخذت عن أمها الهادية الراية . وقامت على الأثر

بجهد لتترسم خطاها في سبيل نصرته الدين . ولقد أبى عليها الطالع أن ينفسح أمامها الزمان ويعتد به سلطانها جيلا تستطيع خلاله أن تمكن في القلوب لبذرة الهداية . . . لكنها ، على أى حال ، قد وسعها في فترة سيادتها القصيرة ، كليلة العصف ، أن تفرق الهدى من الضلال . وما أجله من سفر سطرته في الحق أصابع الإمام حينما أقام فيها سلطانه . وما كان أنضر عهده من أيام لو أدخلنا في حساب حكمنا المبادئ القويمة التي اختطها بتلك المدينة لتكون شريعة ، بها تستطب القلوب وتستنير الأفهام .

غير أن الهوى خوان ، فشقت بدائها الضمائر . . . أم تستقيم الحياة على محجة سوية وإن للبشر لأنفساً تحيد وتميل ، وأعيناً تمشو عن السبيل ؟ ... بل الناس استندوا طريق الدنيا فأقبلوا عليها ، واستطالوا طريق الآخرة فأدبروا عنها ، وبشس لهم ما فضلوا من مقام ... كانت للشيطان في قلوبهم حصون وقلاع ، وبينهم موال وأتباع ... وكانت تلك الزمر من حشوده وجنوده لا تربض لحسب بالكمال ، إنما في حيثما اختلبت اللب غاية ذاتية فطغت بصاحبها على قانون الأخلاق . لكن الشام — فيما أحسب — كانت حينذاك أرضاً وبيئة يموت فيها الإيثار ... أما الأثرة فلها هناك طلع منضود وظل ممدود . فلقد دعا معاوية فيها بدعوته التي حركت في النفوس شرها بإثارة شراحتها ، وفتحت أمام العيون آفاقاً وسيعة من الدنيا كلها متاع .

في هذه الفترة العصيبة من حياة الأمة العربية وقفت الكوفة تنضج جهد الطاقة عن تراث النبي ، الذي انتهى إلى ابن عمه ، فلا تدافع — إذ تنضج — عن سلطة الإمام قدر دفاعها عن مبادئ الإسلام . كفاحها في حقيقته لم يكن يستهدف بسط سطوة زمنية بذاتها ، ولا فرض حاكم بعينه على البلاد والعباد ، بل قد كان كفاحاً خالصاً لتقويم الطباع وكبح جماح الأطماع . وفي خلال الأعوام القليلة التي تسنمت فيها منصة الحكم سارت دائماً على سننها لا تحيد ...

كانت نصيرة الفطرة السليمة والخلائق المستقيمة ، فمضت قدما تحمل البشر على حق الله . وكان الصراع العنيف الناشب بين دمشق وبينها ، حقيق بأن جلى تيه المعارفين المدول ، صراعاً بين عماية الظلمة وصفاء النور ... كانت

قصبة الشام ، ومن ورائها أميرها العاقى ، تحالف المادة وكانت الكوفة تناصر الروح . ولن شاء أن يستقضى ما شاء فيستوثق كيف كانت سياسة الإمام البادية للعيون ، تلتزم الصراط ، وتستهدى في الكفاح المرير بالمثالية ، بينما غريعه كان يغوى ويدس ويبيت ، حتى أقام له سطوة على أكتاف مرده الظلام ...

بنفس الأسلوب الذى بنى به محمد دولته الناشئة بالمدينة مضى ابن عمه يبنى فى الكوفة . فلا مخاتلة ولا إغراء . ولا هوادة فى حق أو مساومة فى باطل ... لا انحراف قط عن الحطة المثلى التى اختطها الله فى كتابه سبيلا للناس يسمو بالبشرية عن وهدة الضلالة والجهالة العمياء . فمن اليوم الذى انتهى فيه إليه أمر أمته كان الإمام فى قرارته يشعر بأن عليه عبء تقويم الجماعة الإسلامية على النسق الذى أرادها عليه الرسول . ولو قد خلى له ليختار لآثر النأى عن تقلد الخلافة زهادة ، لكنه رأى قومه يباب فتنة ، وقد ثابوا إليه ، وأجمعوا إجماعهم فالك على تنصيبه فكان أليق به أن يبادر بغوثه عسى أن يردمهم عن اقتحام المزالق . ولو تركت له الخيرة بعد استخلافه لظل جارا لمثوى محمد وليه وهاديه . غير أنها أحداث جرت بغير ما يهوى قلبه فأخرجته عن مقامه الحبيب ، ومضت به ، تخط وإياه تاريخاً جديداً لقصة جديدة هو فى حياة البلاد أقباس نور ...

أما وقد تبعنا الإمام عبر الصحراء ، من الحاضرة الإسلامية الأولى صعدا إلى مستقره بالرحبة ، بعد انقضاء فتنة الجمل وتوقف النزاع للسلاح إلى حين ، فحذر بنا تبين الدوافع التى جعلت الكوفة أثيرة لديه حتى اجتباها مركزاً لدولته دون غيرها من الدائن ... ألأنها موئل عزيز لأوليائه ؟ ... أم لتوسط موقعها فى رقعة بقاع الإسلام ؟ أم هى أدنى بلدة فى الأمصار من دمشق فلا نخفى ليه فيها خافية مما يبىيت له معاوية بالشام ؟ ...

حين نكر بالزمن خطوة إلى الوراء ، بضعة أعوام ، نرى ثمة عاملاً يتبدى فى ضياء الحوادث المضطربة حينذاك ثم يسبح مناضلاً حتى يبلغ بنفسه أكداس السخط المتجمعة كالمهشم فيشمل فيها النار ... إن عزة الكوفة بأنصار على ، وتوسط منزلها ، ودنوها من موطن دسيمة الأموى الأول ، كانت لا ريب دوافع ليست منكورة الخطر ، ذات أثر فى اجتباؤها حاضرة ، ولكنها لا تحيط بكل

الأسباب . إنما نجد ذلك العامل الذي أوجع الفتنة على عثمان في ذيل عهده كان هو صاحب اليد الطولى في الخيرة ، وبريسته وحدها تلون مصير المدينة ، وتلون مصير البلدة التي قامت اليوم تتزعّم بلاد الإسلام ، وتلون من بعد كذلك مصير هذه الأمة الناشئة مدى أجيال وحقب طويلة .

في الكوفة حينذاك بزغ فجر القوميات . . . بأرضها انفرست بذرتها ، ثم نمت ، ثم اشتد عودها واستطال حق استقضت الخليفة الشيخ أجله . ولم تكن في حقيقتها فتنة أريد من ورائها تبديل حاكم بحاكم ، إنما قد كانت ثورة على وضع من الأوضاع أمن في تأييده أمير المؤمنين عثمان وغدا جماع سياسته في الأمصار فأبت البلدة أن تخفض له الجناح . . . ومن الإنصاف الذي تجار حوادث تلك الفترة بمقوماته ، أن نقرر خطل تلك السياسة إذ هي لا تنهض على عمد وطيدة من الدين . كلا ! بل كانت كذلك لا تتفق ولب الرسالة المحمدية التي نادى نداءها لنسلك البشرية كلها في وحدة عامة ، المنطوقون فيها سواء .

هذه المساواة التي انبنى عليها صرح الإسلام واجتذبت إليه الشعوب على اختلاف العناصر واللغات والألوان ، لم تجد في عثمان من يعلى لها ، ويمكن لسطوتها على النفوس . إنما شهدته ينحرف إلى مثل المصيبة الجاهلية الأولى فيؤثر من الأمة فريقاً دون البقية ، هاديه في إثارة : قوميته الخاصة ، ثم قبلها أو بعدها قرابة الأقربين . ولقد تلمس له العذر حين نحسبه أرادها دولة عربية خالصة أقدر على نشر الإسلام ، في دور تأسيسه ، أشد غيرة عليه من بقية الشعوب . ولكننا إذ نتبع سياسته لا نلبث أن نراها سياسة قبلية تجتبي قريشاً ثم تختص منها الفرع الأموي الذي ينتهي إليه نسبه فتؤثر رجاله ، دون غيرهم من العرب ، بالنفوذ والسيادة . ولو قد أحسن الشيخ انتقاء عماله من بين ذويه ، لكان هذا أدنى إلى تجنبه مصيره . لكنهم كانوا فتية غير ذوي عرس وخبرة فأساءوا السيرة في الأطراف التي تولوها وهم يرون في إمارتهم ميراثاً خاصاً يديرونه كيف يشاءون . ولسنا هنا بسبيل حصر ما أتوه من أخطاء فنعدد لهم ما ارتكبوه ، لا ولا يعنيانا أن نعرض لهم عرضاً يظهر شخصياتهم المتهافة المريضة ، ولكننا نجزيء من أمراضهم النفسية بذلك الصلف الذي حركته فيهم

دماؤهم الحريقة وأحسابهم الرفيعة فمضوا به يستعملون على رعاياهم ، ويرمقونهم بعين السيد رmq عبده الرقيق .

غير أن الذين أشربت قلوبهم مبادئ الإسلام وعرفوا أن نواتها المساواة بين أبناء بلاده كافة ، أبوا أن يطأطأوا الجباه لصلف الولاة . فلئن كانت قريش في القديم أعرق العرب وأعلاها شرفاً فلقد غدت وإياهم بمنزلة سواء أمام الشريعة . ولئن حسبت العرب لأنفسها قدمة على غيرها في الدين فهي بانتشاره باتت شعباً من بين شعوبه ، نأت أو دنت منازل هذه الشعوب من تخوم الجزيرة . أولئك وهؤلاء أضحوا طائفة من الشعب الإسلامي الكبير الذي لم تعد تفصل بين عناصره العديدة فوارق جنسية أو حدود إقليمية — عضواً في كيانه ، ولبنة في بنيانه ، لا يتفردون ولا تتفرد زعيمة حسبهم قريش بفريضة في الدين أو مزية مما كتب ربهم على المجموع

الإسلام بث إذن روح المساواة في نفوس أبنائه مؤلفاً بها بين العرب والأعاجم وإن اختلف اللون من اللون وتباين العنصر عن العنصر . غير أن السياسة العثمانية — فيما يبدو — لم ترقها المساواة فسأرت هواها ، ومضت شوطها وهي تحمل فريقاً من أبناء الأمة على فريق وتختصم جهاراً وخفية بأكرم الأنصبة والمقادير . وكانت قريش عامة ذات الخطوة الأولى عند التقديم ، وآثرها به وأسبقها إليه أهل بيت الخليفة حين توزع المناصب أو تقطع الإقطاعيات وتوهب الهبات ، يجتزئون بالنفوذ والمال . . . فلم يكن عجباً — وهذه هي الحال — أن تنشأ في البلاد طبقة جديدة تحصن أفرادها بالثروة والحسب والسطوة فغدوا ذوى قوة عاتية في تسيير أقدار الدولة وصيغ مصيرها بالصيغة التي يشتهون .

فلعل امرأ يذكر ها هنا طبقة نظيرة لهذه سبقتها إلى الحياة ، وبرزت بالمجتمع الإسلامي في عنقوان دولة ابن الخطاب . تلك كانت لا ريب أصلها بلاقتها سمة واحدة من التشابه ثم تفصلها عنها سمات من الخلاف . ففي عهد عمر سار الرجل على سنة في الأقياء خالف بها المأثور عن رسول الله وعن خليفته إذ أجراها على غير سوية وقسمها بين الناس أنصبة مختلفة المقادير . وكان من أثر هذه التفرقة أن ظهرت على الزمن — طبقة باذخة الثراء في المسلمين تسكنز المال ،

أدى وجودها إلى تدمير البقية الفقيرة . لكن الحزم العمرى عرف كيف يكبح أولئك السراة — وكلهم من الصفوة والسباقين إلى الإسلام — عن استرقاق الأنفس بجاه المال ، فحبسهم بالمدينة إلى جواره ، لا ينتشرون في الأمصار ، ولا يحركون شيئاً في سياسة الدولة التي امتلاك أعتها في قبضة كفه القوية . . . أما عثمان فلم يكن له حزم سلفه ، ولم يرع في منح المال ما كان ذلك يرعاه . ثم راح أيضاً يوزع إمارة الولايات على ذويه ، ومقياس بذله المال واستعماله العمال هو القربى ، دون الحاجة ودون القدرة على الاضطلاع بالأمور . . .

هكذا نشأت في الدولة طبقة نزية حسية في أيديها السلطان . فلم يكن مما يخالف الطبيعة البشرية أن ينظر أفرادها إلى عامة الأمة من علياء برجمهم الاجتماعي نظرة الصلف والتكبر ، فهم أصحاب الثروات ، ذوو الأحساب ، مالكو الرقاب . . . ولم يكن أيضاً مما يخالف الطبيعة البشرية أن يتبرم الناس باستعلائهم ، سواء في التبرم من غضب لله إذ أهدروا المساواة ، ومن غضب لنفسه عن حسد لهم وغيره مما انفردوا به من ألوان الجاه . وكانت الشعوب المغلوبة أسبق غيرها إلى استشعار الضيق بصلف هذه الطبقة ، المتمثلة حيالها في أمراء عثمان ، لأنها أبت لماضيها التالذي الأجداد ، أن يطأه كبر عصبية من الحكام تنتهى — في حساب الحضارة — لشعب كان حق أمسه القريب بغير تاريخ . . .

« الأرستقراطية القرشية » هي التي كانت وحدها المقصودة بالتدمير حين الثورة على عثمان . في الأمصار اضطرم عليها السخط والتذمر بنفوس الموالي والأعراب سواء بسواء . ومن الكوفة طارت شرارة اللهب . وبالمدينة تهاوى الحطام . . . ولعلنا هنا في غير حاجة إلى معارضة تبيان غضبة الأشر وصعصعة ابن صوحان وأصحابهما على سعيد بن العاص ، ليلة ملكه غروره ، وأخذته العزة بحسبه ، فادعى سواد العراق قنية خالصة لقريش من دون سكانه الأصليين ، وفانحميه ، والنازحين إليه من قبائل العرب غب دخوله في الإسلام . كذلك لا نرانا بحاجة إلى تكرار عرض الحوادث التي أدت لاستشراء الثورة في بقية أرجاء الدولة وانتهت بهدم سلطان عثمان . إنما يكفي الإقرار لهذه الحركة بالنجاح وبلوغها مارنت إليه . فلقد وسعها اقتلاع الطبقة الحسية الحاكمة ، وقشرها

من نفوذها ، وابتزازها ما كان أضيق عليها جورا من الهبات والإقطاعات
ثم رده إلى بيت المال حقاً لعامة المسلمين . . .

بالانتصار لحق العامة بدأ عهد الإمام . . . كان على وليهم ، تتجاوب في فؤاده
أصداء مشاعرهم . وكان هو الرجل الذي اختاروه — حثف رغبته — ليصلح
في الأمة ما أفسد سلفه ، ويميد الأمور فيها على النسق الذي رسم الله ووضع
أساسه الرسول . فليس إذن يستغرب أن ترى الطبقة المستعملة صوالحها في غير
سبيله ، فتتحد على حربها عساها تستعيد نفوذها الذي غلبتها عليه عامة الأمة .
أو تتجيش حشوداً وجنوداً تظاهر أيعا رجل وقف منه بموقف مناجزة . وليس
أيضاً بمعجب أن تصطف خلفها قريش تنضح معها عن عزتها القبلية ومزاياها
الاجتماعية التي أهدرتها سياسة الإمام الهادفة إلى تحقيق المساواة التامة بين المدلين
بالأحساب وبين سواهم من بقية العناصر في شعوب الإسلام .

وكانت المدينة — وهي حينذاك موطن السادة — حرة بأن تخلص ثانية
لأهلها حرة ، حين تنحسر عنها أمواج الوفود القادمة عليها من الأمصار إبان فتنة
عثمان ، وأفواج العبيد والأعراب الذين ظاهروهم على تدمير سلطانه . فلم تكن
إذن ، وهذه حالها ، بالقي تصلح عنواناً معبراً عن المادة التي يحتويها سفر العهد
الجديد بين غلافه . . . ولئن كنا شهدنا أشرافها يبادرون إلى الإدلاء بالبيعة
إلى الإمام ، فلقد شهدنا منهم ، حين قرت الأمور وارتحل عنها الثوار ، فريقاً
سارع إلى نقض البيعة ونكث الأيمان ثم لم يكفه إلا أن يجلب على أمير المؤمنين
بالخيل والرجال . . . وشهدنا كذلك فرقة تذاوت فترة بين الإباء وبين الإقرار
عسى أن تسفر لها غيوم الأحداث عن الجانب الذي تستطيع أن تنعاز إليه
وهي في أمان من الوبال . . . أولئك وهؤلاء قد شهدنا ، ثم من بعدهم غيرهم :
بقايا الأرستقراطية القرشية ، يتسربون تباعاً من مكائهم ، تسترا وخفية ،
فيرحون دورهم بالمدينة وسواها من بلدان الجزيرة ، يلحقوا بمعاوية غريم على
وحليفهم الطبيعي . لعلهم بمظاهرتهم يستعيدون مكانهم التي لا رجعة لها إلا في
التفاوت بين الطبقات . . .

الكوفة إذن هي العنوان . . . في اتخاذها حاضرة جديدة للعهد القائم

الجديد بشير لأهلها خاصة ، ثم بعدهم للساخطين من أعاجم وأعراب ، الذين انبسطت لهم رقاع البلاد المتقطعة من ملك فارس والروم . . . أم لا والإمام لم تقم له دولة إلا على كواهلهم ، ولم يعز عندهم مكانه إلا لأنه أقدر الناس على الرجوع بسياسة الحكم إلى ذات الأسس السليمة التي وضعها الدين وبني عليها الرسول ؟ . . . الآن ، وهو قائم على أمته ، كفيل بإنفاذ شريعة العدالة التي أمامها يستوى الكافة ، فلا تميز بين فرد وفرد ، أو عنصر وعنصر . لا حياة في المجتمع الإسلامي لهذا التفاوت بين الطبقات الذي ابتدعته الأحساب والثروات والنازل وأضرابها من مزايا مادية . إنما ينبغي أن يقاس التفاوت بينها بمقياس روحي : هو حرصها على التشبث بالدين ، وسبقها إلى التزام تعاليمه . . . أجل . في سيادة الكوفة بشير . وفيه أيضاً نذير رافع الصوت ، حرى به أن يقرع أسماع الأشراف والسادة ويدوى في آذانهم دويه ، معلنا لهم في كل لحظة وحين أن الله قدير أن يذهب ريمهم ، ويورث غيرهم عزتهم ما بقوا هكذا سادرين في انحرافهم مع الأهواء عن سبيل هديه القويم . . .

هذه بعض مشاعر الكثرة من المسلمين حين تسنم على الحكم في دولتهم ، وحين طفت الكوفة على صفحتها ورسبت بلمة الرسول في القاع . . . وهي تحت التأمل حرية بأن تصبح قوة معنوية لدولة الإمام ، إلى جوار القوة المادية ، التي آزرته وسندت سلطانه الشعبي ، المتمثلة في أهل الكوفة الغير على حقوقهم ، وفي أبناء الشعوب الأخرى المستلحقة بالدولة حينذاك من أعاجم وأعراب . فلقد كان على يكون وحده الرجل الذي فهم هذه المشاعر . وهي بعد تصطبخت في نفوس أصحابها قبل الاتجار ، فكان يرى دائماً أن تتخذ سبيلها إلى الحياة لأنها جديرة ، في نطاق ما رسم الله ، بأن تتنفس وتعيش . لكن غيره أغمضوا العيون . . . وها هو السخط انبعث كطوفان . . . وها هو الدوى أقض مضاجع السادة النيام . . . وها هي سنة الله تحقق عليهم كما حقت قبلهم على من سلف من بني العصور القوا بر الدين جانبوا العدل وآثروا الجور . . . أفقد حسبت قريش أن ربها مستعذب لها وحدها سنة تغاير ناموسه الأزلي الذي لا يقبل التحول ؟ . . . إنما غرها الكبر وخدعتها الخيلاء فتعلقت من دنياها بمثل السراب .

أما أمير المؤمنين فأعرف بما تبطن وبما تظهر الحياة ، لا يستهويه منها طلاء ولا يفتنه زخرف إن عبرة الماضي تعيش دأماً في ذهنه ، وحكمة الأعصر تتدفق عن لسانه تدفقها في منطق الحوادث المتواترة على البشرية طوال الأزمان يجيئه بالكوفة أهالي السواد فيخلو منهم إلى « نرسا » يستفسره بعض أنباء قومه : « أخبرني عن ملوك فارس ، كم كانوا ؟ . . . »

فيجيبه الفارسي :

« كانت ملوكهم في هذه المملكة الآخرة اثنين وثلاثين ملكاً .
« فكيف كانت سيرتهم ؟ . . . »

« ما زالت سيرتهم في عظم أمرهم واحدة ، حتى ملكنا كسرى بن هرمز فاستأثر بالمال والأعمال ، وخالف أولينا ، وأخرب الذي للناس ، وعمر الذي له ، واستخف بالناس ، فأوغر نفوس فارس حتى ثاروا عليه فقتلوه . . . »
وعند ذلك يقول الإمام :

« يا نرسا . إن الله عز وجل خلق الخلق بالحق ، ولا يرضى من أحد إلا بالحق . وفي سلطان الله تذكرة مما خول الله . . . »

وكذلك هذه تذكرة لمن يعي ، تتحدث بها الشواهد التاريخية ، وينطق التنزيل . ثم لا يزال العالم يسير على السنن الواضح ما لزم حكمه الخطوة المثلى التي رسم الله بعداد العدل لسياسة الرعية .

لكن النفوس قلب ، والقلوب غير . ما يدعها الهوى في مستقرها إلا كطرفة العين ثم يميل بها مرة إلى يمين وأخرى إلى شمال . ولا تكاد الضمائر تثبت أمام إغرائه حتى تأخذها أمواجه وتتقاذفها أواذيه . وهانحن أولاء قد شهدنا الإمام ، من أول يوم سلطانه ، تضطرب حوله الأهواء كأنواء ، فتدفع بسفينه بعيداً عن البلية التي رحبت بهجرة الرسول ، في البدء ليقهر شراذم الجمل الخارجة عليه ، الناكثة لمهد الله ويردها إلى الطاعة ، ومن بعد ليقمع شهوات صاحب الشام ويلزمه النبي . إلى كلمة الجماعة . . . هانحن تتبعه على أودية الرمل ، وفي مغاور البادية الفسيحة كالتبه ، وهو يسل سيفه آونة بالنقمة ، ويحرك لسانه مراراً بالحكمة ، ليأخذ النفوس الشاردة بتلك السنة الإلهية التي تنظم العلاقة بين الحاكم

وبين المحكوم ، وتضمن للبشرية — شعوباً وأفراداً — عدالة مثلى لا ينتهب فيها الحق ولا تستباح الكرامة . . إنه ليضى . . قدما يسير غير آبه — ففى الله مسيرة ، وإليه مصيره — يدوس الصعاب ويطأ الأوصاب . . إنه ليدع وراءه أسوار بلدة طيبة ، عزيزة الذكريات ، خلع فيها إهاب الشباب ، وروى تراب التخوم حولها من جراحه ، واستودع ثراها الرطيب أحب صفوة إلى قلبه : الرسول والزهراء . . إنه لينطلق عنها فى هجرة ، كما أتاها فى هجرة ، ليبدأ نضاله عن حق الله ، وتحرير الناس من ربة الناس — ينطلق شوطه العسير القصير ، فى فؤاده يقين ، وبروحه هدوء الإيمان ، فلا يزال بقية عمره بين مد الحوادث وجزرها حتى يعانق السلام بدنه وهو نازح ، نأى الوطن ، غريب الديار . .

٣

أنى له أن ينسى عهده . عهده الذى قطعه أمام الله وإنه يومها لطفل أبى جبينه أن يعنو للباطل المتمثل فى أوثنان تخلفت من حجارة منحوتة ؟ . . الحق أبداً ، والحق وحده غايته ، وإن مشى إليه فوق الأشواك ، ومد نحوه حبلا من روحه ، وسبح على نهر من عرقه الناضح ودمه للسفوك . . .

ولقد وخزه الشوك ، وأذاب من روحه ليهدى المصاة . وبلل بالدماء والعرق الجبل والقاع . . . غيره كان حرياً بأن يتلقى الأمور بالدعة والسكينة ، وبالرضا والطمأنينة ، فقد انبسطت تحته الدنيا ، كما عرفها عالم تلك الأيام ، إلا بقاها قليلة كانت وشيكة أن تطويها أعلامه . . . إن ملكه قد ضرب بين قرنى الشمس . انتغرق فارس ، ولامس الهند والصين . . . هز تاج الروم ، مطوحاً بأهله عبر الصحارى الإفريقية الوسيبة ، يقتلهم من شواطئ الأبيض فيها إلى مياه الأزرق فى غربها البعيد . . تاخم شمالاً بلاد الجليد وتاخم جنوباً مواطن السود . . ذهبت الأكاسرة ، وذلت القياصرة ، وغدت الدنيا على اتساعها تضيق عن همه قومه الفاتحين . . . لكنه هو لا يقنع ، ولا يرضى بهذا التراث الذى انتهى إليه عن أسلافه يقتعد عرشه وهو مستعز قرير . ليست العزة فى حساب رأيه بالرقعة

المحدودة ، المحدودة بالجهات ، المحدودة بالأقاليم . . . ليست بكثرة الشعوب والأجناس التي تخضع لهيبة الحاكم ، المنعكسة على أشعار السيوف وأمنة الصوارم . ليست بتلك الخيرات الدافقة على حاضرة الدولة . المبتزة أو المجلوبة من البلاد المغلوبة . . . هذه كلها مظاهر يراها غثة ، تبدى القوة لعين الخدوع ، وما هي بقوة ، وتبدى العزة وقد يكون حشوها هباء . . . إنما المدة أن تمتنع النفوس على الهوى ، وتمز عن مناله . العزة أن تتحصن دون نزغه وزيعه . أن تتحرر الأفكار من إसार الوسوس . أن تتطهر الأرواح من أدران المادة . أن تلفظ القلوب مضغة الشهوة . وحينما يجد الحق طريقه للأفهام والأحلام ، وتسبح له نواة في عروق البشر من رعيته تلون دماءهم ، وتنمو وتثمر — عندئذ يكون الإسلام قد حقق مبادئه ، وامتلك أعنة القوة ، فعدا حريا بأن تنتشر ألويته على الآفاق ، ويسير شوطه إلى الأمام .

هو عليم بأن دينه لا يقوم على غزو البقاع وامتلاك الرقاب ، وإنما على غزو الأنفس وامتلاك الألباب . والرقعة التي تخضع له لا تقاس بالأرض التي تطوؤها جيوشه ، بل بمقدار من أشربت أرواحهم تعاليمه . وما كانت قط غاية هدف إليها الإسلام أن ينشر على العالم بأقطاره نفوذاً سياسياً من لون خاص . ولا أن يلتئم طائفة من الدويلات في دولة ذات حدود تستمد هيبتها مما تذخر من عتاد وتحشد من كتائب وأجناد . . . « الإيمان الأول » هو وحده السلاح القاطع الذي يستطيع المسلمون به بسط سلطانهم على الدنيا الضالة ، لأنه سلاح من عند الله يضل ما عداه . الإيمان الذي غرس محمد — عهد تبشيره بالرسالة السماوية — نواته في قلوب حفنة من المستضعفين والعبدان فأعادها نشأة جديدة ، ذات بأس شديد على ذوى الأيد والجبروت من أصحاب المروش والصوائج . تمشى على ملكهم مشى الإعصار المدمر والطوفان الجائح . . . كانت هذه قوة روح تنحصر أمام مداه قوى المادة الصماء ، وتذل ، وتلاشى حتى كأن لم يكن لها قبل التلاقى كيان . لكنها اليوم ليست كالأمس . قُتِرَت خبا ضرامها : بردت جذوتها أو تسكاد فلم تنقد في الجوانح اتقادها القديم . ولئن ظل علم الإسلام يرتفع على ساريتيه ، وبقي حكمه يمتد فيشمل بقاعاً من بعد بقاع ، فتلك بقية من القوة الدافقة التي

ابتعثها ذلك الإيمان ما زالت تحرك دولابه ، وتسدد ركابه حتى يشين لها أن تفنى — بعد جيل ، أو حقبة ، أو قرون — لولا أن تبادر النفوس الغافلة فتشوب

على مثل هذا النحو كان على يفهم واجبه الذي لزم عنقه منذ ولى الأمور . وفي ضوئه كان يلوح المصير الذي ينتظر أمته وينتظر معها البشرية . ومن عظات الغابر السحيق والماضى الدانى راح يقبس الأمثال فتلهمه ليكافح حتى لا تغدو عقبي الإسلام عبرة منذرة لمن أراد تلسم العبرة وإلقاء سمعه للنذير فلم يكن للمبث ما سلف من جهاد الرسول . وأغير هذه الغاية الخوفة كان تبشيره . وإن الفرد ليذهب ، وإن العروش لتهاوى ، وإن الدول لتضمحل أو تتقلص عنها ظلال الوجود ثم لا يبقى بعد هذا كله وغيره من العروض والأباطيل إلى شيء ينقرد وحده بالبقاء في الحياة كالدهر هو الحق الذي لا يفنى له جوهر ولا يزول

فلتمتد إذن إلى سلطانه يد الأهواء تهم أن تنوشه من كل ناحية . . . ليتربص به المتربصون . . . ليقعدوا له كل حرص ومدخل . لكنه لن يستسلم . لن تهين روحه قوى . لن يشتري منهم أمنه وراحته بمطية يلقيها إلى شهواتهم كالعظمة إلى الكلاب الجياع ! . . لقد كان أدنى إلى هدوء باله واستقرار السلام في أطراف دولته لو رضى لهم بإمرة هذا المصر أو ذلك القطر يسودونه وتبقى لهم به بعض مظاهر الكبرياء والعزة وبعض علائم النفوذ التي تسيل لها نفوسهم تحرقاً ولهفة . غير أنه يأبى الهدوء الذي يأتيه على أنقاض مبادئه وأشلاء المثل العظيمة التي يؤمن بها حق الإيمان . ليس في خلقه أن تثبت تحت قدميه رقعة أرض يظلها حكمه بينما تتعطم قواعد الحق وتهاوى في روحه . وإذا كان معاوية يكاد يشنها عليه حرباً شعواء وهو يظهر للناس بداره إلى النار لدم عثمان ، فإنه ليسر الحرص على استبقاء ما في يديه من نفوذ ، وليوشك أن ينسى ولاية الدم لو لوح الإمام له بولاية الشام

لكنه تلويح محال . ومنطق للناس من ناقدى السياسة العلوية يعوزه الاستناد إلى القواعد الخلقية وإن وجدت له من قواعد الرياء بضعة أسناد . . . فما يحق أن يلام من يدرأ عن اللب والجوهر قبل العرض والمظهر . وكان الحق هو الأصل . المبادئ المثلث التي سنّها الإسلام للبشر شرعة لعالم مثالي هي الجذر

والبلاد التي تنضوي تحت حكمه هي الفروع . ولن يضير الدوحة أن ينقص منها غصن أو يتكسر فئ ، وإنما يضير ويأتى عليها من القواعد أن يدب الفساد إلى جذورها الفائرة في الأعماق

وكان الإمام على بيته من الأمر الذي أخذ نفسه بإقراره ، فصلب فيه واشتد حتى العناد . وقد كان كفيلاً بمعاوية ، قديراً على أن يخضعه وأضرابه ، ويسوقهم إلى الانصياع لهديه المنبثق من روح الإسلام ، وإلى الامتثال للقيم الإنسانية العليا التي دعت إليها تعاليمه . ولكنه كان كذلك أبعد الناس عن الغرور والاعتزاز بما في يديه من قوة ، فللزم من أحياناً جموح ، وللظروف الدنيوية بدوات قد تخفض العزيم كما قد ترفع الدليل . وهو أمام عواملها المجهولة ، المتسربلة بالغيب . التي لا يكاد يدرها حسابان الحاسب ، يرى « ربما » حرية أن تتخيل أمام عيذه . . . فمن يدرى ؟ . . . ربما فشيت في القوم فاشية من حب الدنيا فقدموا الدعة وأخروا الجهاد ؟ . . . لعل أن يحوزهم باطل . . . قد يستأسرهم من معاوية سرفه وترفه فتمتنع الشام على جنود الإمام . . . عندئذ لا يعدم على عاذلاً يعذله لأنه لم يهيء لنفسه أسباب السلامة ولم يرض بمهادنة تبقى الدولة بها سليمة ، وتظل دمشق ، وعاملها المشاق ، تحت ظله . . . أما هو فقد وطن على العذل نفسه ، ووطنها على أسوأ ما قد تنجاب عنه الأحداث من فروض وأحداش . وإذا كتب لابن أبي سفيان وأشباهه أن تكون لهم في دولة الإمام إمرة فلتسكن إذن حين ينبو سيف على وتقطع أسبابه ، ولا يقولن بعدها امرؤ عنه إنه خشى على سلطانه فداهن وهادن ، وأقام ركناً لدنياء على أنقاض مبادئه ، وساوهم في حق الله وحقوق الناس

نظائر هذه الخواطر وأمثالها كانت دائماً تعتل بخلد على ، لا تريم لحظة عن باله ، ولا يكف ذهنه عن لوكمها كلما تبدي لناصح أن « ينصح » أو لماقل أن « يشير » . فإمّا غدا النصع والمشورة مضغة في أفواه الذين تخدعهم الظواهر ولا تهديهم البصيرة . وطالما انبرى للإمام منهم من أهاب به أن يبقى ولاية عثمان على ما في أيديهم فيبقى بهذا على كيان سلطانه ، ويعنع عنه الانتقاض في الأقاليم النائية بعض النأي عن كفه وسيفه . بهذا نصعته طائفة غيب البيعة وهو بالمدينة ،

وبمثلله أشار عليه المغيرة بن شعبة : أن يشبتهم على أعمالهم ، أو يشبت — في القليل — منهم معاوية ، حتى تأتيه بيعتهم فيمزل بعد هذا من شاء ... حتى ابن عباس أيضا كان ذات يوم من هذه الطائفة الناصحة ، التي ترى الدهاء في المداجاة إلى أن يفسح الوقت للحسم ولقاء الأمور بغير الهوادة كأما الوقت ما آن . وكم من قبله رأوا رأيهم ، وكم بعده من خلصاء الإمام . . . لكنه رد هذا « النصيح » وارتفع بذهنه عن استيعابه . . . فما هو إلا سياسة المتردد المستريب في أساليبه ، الأخذ بها رياء ، والنكول عنها — بعد إقرارها — غدر ، وكلا الأمرين ليس في شيعة الذي يقول قوله في أهل الغدر ومن يروونه دهاء وكياسة :

« . . . لقد أصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كياساً ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة . ما لهم ، قاتلهم الله ! . . . قد يرى الحول القاب وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين . . . »

فليس هو إذن بالذي يتحرر من نطاق المعايير الخلقية ، أو يخضعها لأهواء الأنفس أو دواعي الظروف . ليس أيضا بالذي يلف بها ويدور ثم لا يزال يشذب من أطرافها وينتقص من نواحيها لتطابق فكرة مصنوعة وبدعة موضوعة . إنما طريقه سوى ، ونظراته إلى الأمور مستقيمة تخترق منها القشور واللباب . وإن شأنه ومعاوية كشأنه بالأمس ، وكشأنه في الغد القريب والغد البعيد . لا مدهانة ولا مهادنة . لكنه يظل يعذر إليه ، المرة بعد المرة ، حتى ينفد الصبر . . . وكان يعلم أن إعداده إلى الرجل الذي ادعى لنفسه ولاية الدم كالصرخة في الربع الخالي ، لا تردد سوى صداها . فما نفسه عنه بخافية ، ولا نداؤه بعسم صممه ما دامت على قلوب أكنة وعلى عيون غشاوة . . . ومع ذلك فإنه على كتابا ، يود لو وسعه به أن يستفيء غريعه ويهديه عن غيه حرصا على السلام والإسلام . وهو هذه المرة لا يوفد إلا رسولا يكاد معاوية يرضاه ، فإنه عنده ناصح ثقة . وما فعل إلا وقد رجا أن تبث هذه الوفاة في نفس العاصي طمأنينة تسوقه لخير . . .

وكان رسوله جرير بن عبد الله ، صاحب همدان في عهد سلفه . جاءه الكوفة فبايعه ، بعد أن نزعه من إمارته ، وعرض نفسه للوفادة . . . فقال إذ ذاك :

« . . . ابعثني إلى معاوية ، فإنه لم يزل بي مستنصعاً ودوداً ، آتية فأدعوه أن يسلم لك هذا الأمر . . على أن يكون أميراً من أمرائك ، فأعمل بطاعة الله . . وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك — وجلهم قومي وأهل بلادى — وقد رجوت ألا يعصوني . . »

والناظر في شأن هذا الرسول قد يوشك أن يتبين ميله لابن أبي سفيان بعض ميل وإن هو حرص من بعد على أداء ما بعث فيه على نسق قد لا تناله المعابة . فهو يشير بأن يظل معاوية على إمارته ، عاملاً من عمال على ، يخضع ولا ينزع ، كأنما فاته ما سلف على أمثال هذه المشورة من إباء الإمام . .

وعيل الأشر إلى أمير المؤمنين عند سماعه قول جرير :
« لا تبعه . ودعه ، ولا تصدقه . فوالله إني أظن هواء هواهم ، ونيته نيتهم » .
لكن علياً لا يحكم بالظن فيدع اليقين . وقد نزع جريراً من ولايته التي ولاء عثمان فلم يمنح الرجل لحلاف ، بل سارع فنزل عند أمره ، وقال فيما قاله لأهل همدان وفي يمينه كتاب خلع ، حينذاك :

« . . . هذا كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا . . . وقد بايعه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان . . . ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقهم بها . . . ألا إن البقاء في الجماعة ، والقضاء في الفرقة وعلى حاملكم على الحق ما استقمتم ، فإن ملتم أقام ميلكم . . »

فإن يكن قد خطر له اليوم أن يشير بإبقاء معاوية على عمله بالشام فلهه ترديد رأى قديم كانت بضعة قبله تراه . .

أما الإمام فلم يأخذه بالظنة ، ولم يستمع فيه للوم اللوام . من العدى أن على له ويسبر دخيلته حتى ينضح إناءه بما فيه . . . ولذلك تراه يقول للأشتر :

« دعه حتى ننظر ما يرجع به . . »

ثم يختم رسالته ويدفع بها إلى جرير :

« . . . انت معاوية بكتابي . فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فابذ إليه .

وأعلمه أني لا أرضى به أميراً ، وأن العامة لا ترضى به خليفة . . . »

جذب بقوله هذا مشورة الرسول وأشباهها من أنصاف الحلول . . .
وكانت رسالة داعية واعية . دعت إلى الحق من أقصر سبله . وبأوضح
أساليبه . . . ووعت قصة الاستخلاف ، التي أثارت كل هذا الخلاف . بما سبقها
وما لحقها من المقدمات والخواتيم . . . وكانت فوق هذا وذاك عظة جارية ،
وحكمة هادية لمن أراد الهداية وشرح الله صدره فجرف في فؤاده ينبوع النور .
فلم يعمل الإمام فيها أمراً جرت ألسن الناس بذكره إلا بينه . ولم يدع ثغرة ينفذ
منها خصمه إلا سدّها دونه . . . ما من شيء كان معاوية يستطيع أن يحتال به ،
أو يدعيه حجة تؤيد خلافه وتسند انحرافه إلا مدّ له الإمام معولاً من سطورها
— حديداً شديداً — يدمر باطله ، ويقوض معاقله . . .

وشهدت دمشق ذات يوم عاقلها . مبهور النفس ، عليه قفرة من اضطرابه ،
وهو يلقي ساكناً بسمعه إلى حديث الرسول القادم صوبه من الجنوب :

« . . . يا معاوية . إنه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين . وأهل المصيرين ،
وأهل الحجاز ، وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل العروش وعمان ، وأهل
البحرين واليمامة . فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها ، لو سال عليها
سيل من أوديته غرقها . . . »

وكان القول ما قال جرير . فتلك الرقعة المبسوطة من بلاد الإسلام بين قرني
الشمس كانت تظلمها راية ابن أبي طالب إلا ثغورا في أقاصي الشمال تتأخم الروم
قد غدت في يد الأمويين منذ وليها — خلال عهد أبي بكر الصديق — يزيد بن
أبي سفيان . وهي اليوم بعده في حوزة أخيه . فلعل بقاءها في يد الأسرة هذه
الحقبة من الزمن التي تزيد عن ربع قرن من السنين قد أطعمت فيها معاوية ، فمضى
يراها كالتراث الموروث . ولعل نفسه أبت إلا انتهاها طعمة له ولذويه ، يصطنع
لامتلاكها الحيل ويحشد الذرائع ، ثم يحسب في خلعه عنها إهداراً لحقه
وابتزازاً لسلطانه .

لكن جرير لم يدع خيالات العاهل تسبح به إلى بعيد :

« . . . ألا وإن هذا الدين لا يحتمل الفتن . ألا وإن العرب لا تحتمل

السيف . وقد كانت بالبصرة أمس ملحمة إن يشفع البلاء بعثها فلا بقاء للناس . .

فادخل يا معاوية فيما دخل فيه الناس . فإن قلت : استعملني عثمان ثم لم يعزاني
فإن هذا أمر لو جاز لم يتم لله دين وكان لكل امرئ ما في يديه . ولكن الله
لم يجعل للآخر من الولاة حق الأول ، وجعل تلك أموراً موطأة ، وحقوقاً
ينسخ بعضها بعضها . . . »

فسرح الوالي بعينه برهة ، يذرع بهما ملامح الرسول . وتفكر ملياً . حق
إذا أعياء الجواب الصواب ، همس يقول :

« انظر ونظر . وأستطلع رأى أهل الشام . . . »
فإلى غد . فإن غدا فرجة الحيران . . .

٤

تلك الليلة لم يغمض جفنه . . . جاشت بنفسه همومه . تحركت وساوسه .
تذاءبت رؤى الأمل نصب عينيه — أمله القديم الذي ابتنى له هيكلاً فارح الذرا
والعماد فيه عرش وصولجان . . . يا ترى يرخى قبضته ؟ . . . أيدع القنية الثمينة يفلتها
كفنه بعد حرصه على إمساكها كل هذه الأعوام ؟ . . . هل يخضع للزرع فينزع ،
وللخلع فيخلع ، ويرتد ، كغيره من الولاة القدامى مسلوبى الحول ، امرأ في العمار
من عرض الناس ؟ . . .

لم يكن بالفر . . . الأحلام التي تضطرب في جوارحه لا يحركها الوهم وحده .
وأطماع نفسه التي تبجح به إلى تسنم غارب السيادة لا تستند فحسب على قاعدة
هشة من خيالات مخدوع . . . هو لا يلوى طرفه بعيداً عن السعائب التي تجمعت
في أفقه . لا يففل عن الحقائق الجلية البادية وإن فدحته وأثارت باله . وهذه
الرقعة المبسوطة تحته ، الخاضعة لسلطانه ، هي لا ريب أهون شيء على غريمه حين
يستعر القتال ويغدو السيف وحده هو الفيصل . وهي كذلك محط شراة
الروم ، لا تنى سرايا جندهم تنوشها وتغير على تغورها الدانية منهم لتردها كرة
أخرى إلى أحضان أمها القسطنطينية . ولكنها جنة له على أي حال . وملاذ أمين
يحميه من على إلى حين حتى تتكشف وجوه الأحداث . فلأن يعدم وسيلة تكف

عنه غائلة القيصر الروماني المستأسد ، إن بالصلح والمهادنة ، وإن بالمال والهدية ليفرغ من بعد للصراع الكبير . ولن يكمل عند ذاك للقد وما يجن من عوامل خفية أن يحسم ما بينه وبين الخليفة الإسلامي الذي بات لا يرضيه غير استئصاله وقشره عن الشام . . . إنما سيعمل . . . لسوف يجيش كل في طاقة البشر من جهود وحيلة . . . ليجدن إلى أطراف دولة خصمه ألسنة النار . . . لتكون كل بلدة من بلدانها مشغولة بنفسها ، لا تعرف الدعة ، ولا تستطيع في محنها التي ترى أن تعد الخليفة بمال ورجال . . . ليجعلها مراداً لحفنة من العصابات المنهومة إلى العبث وانتهاك الأسلاب ، فتنام على غارة لتصبح على غارة . . .

حق الظروف نفسها بدت كأعما تؤازره . . . هذه سجستان وطشت أرضها جموع من هراب البصرة غب الجمل فغلبت عليها وقتلت عامل على هناك . وهذه خراسان انسلخ أهلها من الطاعة ، وانسلخوا كذلك من الدين صابئين ، ثم أمدهم رجال كسرى من كابل بما أجج ثورتهم حتى أوشكت أن تذهب فيها ريح الإسلام . . . إنها لنذر . الأنسام الوانية التي تسبق المواصف ! . . . وإذا كان ابن عباس قد بادر فاسترد سجستان وأعاد فيها راية ابن عمه خفاقة ، وإذا كان خلد قد مشى على خراسان فأوقع بالمرندة في نيسابور وغنم وسبي وساق بنات كسرى إلى الكوفة أسيرات ، فذلك نصر قد لا يحف له قلب غريم يقيس النتائج البعيدة بقياس المقدمات الماثلة للعيون . أو ليست هذه الفترة فاتحة تسكاد تنبيء عن سلسلة أخرى من الثورات قد تسير غدا أو بعده في ركاب الإمام ؟ . . .

ليوشك معاوية أن تبدى له الدولة كلها تزلزلت نواحيها ، لا يهدأ فيها بركان إلا ويشور بركان . . . وقد كانت المني أحياناً هي التي توجه نظرتة ، وتنفذ بها في المستقبل إلى خواتيم مأمولة . وكانت الحقائق دليله في بضعة من الأحيين . حتى مصر التي أثقلت فؤاده وعادته من أحوالها المموم ، لم يعدم بها فرجة تنفس عنه بعض برحائه . فما زالت نمة فتة على ضفة النيل يتوقع عندها الخير . إنها هناك رابضة — وقد فتنها مقتل عثمان عن التزام جماعة المسلمين — تبرص بقريتها ، وتناظر سانحة من الزمن تسنح لتعلن التمرد باسم الثأر للقتيل . هي تحتجر بخربنا احتجار الثعالب . تتلمس الأمن في الاعتزال . تفر هادئة عن تنازل

وخشية . ولكنها ن تلبث أن تضعى بمصر بؤرة تشل سلطة طى ، وتفسد عليه
أموره أينا إفساد لو عرف الغاوى كيف يحرك منها على الخليفة النفوس ويوغر
الصدور ...

غير أن هذا كله لم يعد معاوية بالطمانينة ، فالزمن الذى يحالفه اليوم قد
يحالف فى غد غريعه . والريح الرخاء التى يسبح فى مهبا شراعه قد تزجر
كإعصار . بل هو لحظته هذه راحت تضطرب فى أعماقه عوامل خوفه وتدور
أعني من اضطرابها أمسه . فإنما مصر بلواه . . . بها المال والرجال . وبها من
الزاد وفرة تكفى أمة ضخمة من الجيوش تشرق وتغرب فى فجاج هذه الدنيا
الفسيحة ثم لا تكفها عن الزحف حاجة وبها اكتملت لابن أبى طالب
مادة الحرب كلها — بعد إذ غدا العراق ملك يمينه — من ذخيرة الجند والمؤن
والعتاد حتى أوشك ألا تكون قط مادة لأحد سواه . ومنذ غلب عليها ابن أبى حذيفة
وطرد منها عامل عثمان وهى شجا فى حلق صاحب الشام . قذى فى عينيه . حربة
مسمومة تشق جنبه وتدميه . وليس يأمن الآن أن يأتیه جند منها وجند من
الكوكة فيصبح بالجندين بين شقى الرحى ويشخب جنباه

وأحس كأنما قدمه طى مزاق تحتها هاوية سحيقة الغور إلى أبعاد تضل فيها
النظر ضلالها فى السواد الكثيف الذى نشرته حوله هذه الليلة الباردة من ليالى
الشتاء . وكانت العيون فى القصر وسنى . والصمت يشمل كل جزء من أبعائه
ونواحيه . وكانت الريح ذات دوى وزئير وهى تجوس معولة بين غابات أشجار
الخور التى أشرعت جذوعها كالمآذن وشبكت غصونها كالقباب ولم يكن ثمة
فى الليل أنيس إلا الوحشة ، ولا سمر إلا العزيف والعواء لا هيئة إنسان
ولا همسة لسان . الهدوء فى الدار والثورة فى الغاب ! ولو قد أتيح له أن يتكلم
بمنطق الشجر والريح ، لبادلها وجيفا بوجيف وعزيفاً بعزيف ! فما أثقل الصمت
على نفس الحائر ! وما أشقها من وحدة حينما تتسكأف حوله ظلال الهموم . . .
إنه ليتلفت فيما اكتنفه بحجبرته ، وفيما امتد إلى ما خلفها خارج أسجاف الشرفة
المنفجرة بكاء كهم المتوه ، فلا تقع عينه إلا على صحراء من الخرس والظلمة . . .
إنه ليضطرب أمام خلجات خاطره . . . إنه ليحس بدنه يهتز على ضربات قلبه

الواجف . . . أفيدعو إليه عتبة أخاه يديه بعض شجوه ؟ . . . أيصفق فيأتيه من فتياه غلام يعلأ عليه بعض هذا الفراغ ؟ . . . أيتربص بالحارس الذي أخذ وقع خطواته الوانية يتردد خافتاً في الردهة ، ثم يبرز إليه يحادثه أيعا حديث تجربيه اللحظة على لسانه ؟ . . . لقد تاق سممه لكلمة ، وتاق ثغره لكلمة ، فمن له بسمع وسمع ؟ . . .

ولم يشعر أن قدميه قد انسابتا ، كما في حلم ، تحملانه إلى الباب حتى هم أن يجوزه . لكن نسمة باردة ردت له لوعيه قبل انقلاته إلى البهو ، وعادت به ثانية إلى الغرفة الكشبية . . . تأبى عليه نفسه أن يكشفها لمن يرويه صاحب قدره وسيد مصيره . تأنف عزته . دون هذا وتحزن خيلاؤه . . . كلا ، لن يدع الناس يقولون إن شيئا حزبه وأمرأأهمه وهم يرجونه كلما اشتبهت الأمور والأشياء على الدهاة والأذكاء ! . . . إيعا سيحفظ في قرارته همه حتى ينبليج الصبح وتنقشع غمة هذا الليل الطويل الثقيل . وعندما يتبدى الفجر متبدأ له شواغل تأبى به عن تيه أفكاره . وحتى يسفر النهار فإنه سيزجى الفراغ والوحشة بالحديث والسماع . سيتكلم لسانه وتنصت آذانه . . .

وكرة أخرى يمد أصابعه إلى الكتاب الذي أقبل به عليه وافد الإمام . الآن لا يقرؤه قراءة عين . لا يتجول ناظراه في سطوره وهو صامت يفكر . إيعا يلوك في حلقه حروفه فتذبذب لهاته بألفاظه ، ويفر الصمت على جرس صوته الخافت الوئيد :

« . . . أما بعد فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام ، لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للعائب أن يرد . وإيعا الشورى للمهاجرين والأنصار ، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضا . فإن خرج من أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه ، فإن أبي قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ويصلبه جهنم وساءت مصيرا . . .

إن طلحة والزبير بايعاني ، ثم نقضا بيعتي ، وكان نقضهما كردهما ، فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . فادخل فيما

دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إلى فيك العافية إلا أن تتعرض للبلاء .
فإن تعرضت له قاتلتك ، واستعنت الله عليك . . .

وقد أكرث الكلام في قتلة عثمان ، فادخل في الطاعة ثم حاكم القوم إلى
أحلك وإياهم على كتاب الله . فأما تلك التي تريد نخدعة الصبي عن اللبن في
أول الفصال . . :

لعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرا الناس من دم
عثمان ، ولتعلمن أني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجني فتجن ما بدالك . . . واعلم
أنك من الطلقاء الذين لا تحمل لهم الخلافة ، ولا تعقد معهم الإمامة ، ولا تعرض
فيهم الشورى . وقد بعث إليك جرير بن عبد الله وهو من أهل الإيخان والمهجرة
السابقة ، فبايع . ولا قوة إلا بالله . . »

ثم صمت الحديث . . . عاد السكون يعلأ أطباق الحجر ، والوحشة ترود
فراغها الثقيل . ورجع البكم مرة أخرى يحاور أذنيه . . . ولكنه مع هذا
لم يدع ذلك الكتاب من يمينه . ظل برهة من زمن ، طويلة على وهمه ، يقبله
في كفه ، لغير مرمى أو غاية . لبث يتبعه نظره يدعينا لكلمة منه هنا وعينا
لكلمة هناك . فقيم سبحانه الآن على خضم أفكاره ؟ . . أقد استخذى إذ يعبر
بماضيه وتخلقه الغابر عن المالحق بأهل القدمة والسابقة في الإسلام ؟ . . أود
لو يستشف حقيقة الوعيد الذي أزجاء على إليه في ثوب رقيق من الرقيق
والسباحة ؟ . . أمست قلبه واعتصرته العبرة التي نضعت بها في البصرة عقي
أصحاب طلحة الناكثين ؟ . .

هو لا يدري ، وأنى له ، أى هذا كله جرى في باله — تلك الساعة للتأخرة
في السحر ، الدانية من الفجر — وإن ذهنه لتختلط فيه ولائده من خواطر
وأوهام ، وخطط وأحلام . غير أنه استطاع أن يرى من خلال تلك السطور
صورة لذلك القصير ، الذي دجج الكتاب ببيانه وأملأه بلسانه ، أطلعت في غير
الهيئة التي يرسمها الحق . . . كلاليس بالعر ! ليس ابن أبي طالب بالذي تقتله
خدعة مخادع أو حيلة محتمل . . . وحتى قصة الثأر التي أهاجت عليه فرقة من
أهل الشام ، وكانت حقيقة بأن تحد من غلواء أى خليفة سواء وتقال من صلابته ،

لم تكن ذات أثر مذكور فيما وطد عليه عزمه منذ بدء اضطلاعه بأمر الدولة ، بل لعلها زادت استمساكا برأيه ، وإصراراً على خلع مدعى ولاية القتل . فما دام الشيخ بنهية للناس من شاء منهم تولى ثأره . وإنما الأمير الشرعى وحده وليه ، يأخذ مهريقه ، وينفذ فيه كلمة العدالة . أما عشيرة القتل وذووه فأفراد فى الدولة يلتصمهم كغيرهم قانونها العام ، لهم حق الاحتكام فى ثأرهم إلى الحاكم دون حق الحكم فى المذهب ، فإذا سولت لهم نخوتهم ابتزاز سلطة القصاص ، فهم خارجون على النظام . . .

كل هذا قد انبسط فى الكتاب وتبينت حجته ببقاء لا يقدر أن يخفيها ادعاء مغرض ذى هوى وإن لف ودار وسم الأفكار وسحر الأنظار . . . لكن معاوية اليوم فى حرب فناء ، يتوسل إلى كسبها بما يستطيع . فما يفيد أن عين إذا المين نصره ، ولا أن يغش إذا الغش عزره ، وعندما يصبح سلطانه الدنيوى فى كفة ، والقيم الخلقية العليا فى كفة ، فلن يتردد لحظة فى أى الكفتين يختار . ولقد أعرى حقا غرسه فتملقت به نفوس أهل حاضرتة ، وراحوا يعاقدونه على الثأر الذى أبداه فى عيونهم بطلا يستعيب لدواعى الروعة والنجدة كما تتحدث بها أساطير الأبطال . . . ولم يكن تعاقدهم ذاك وعدا موقوتا بأجل النخوة التى ابتعثها فى قلوبهم غضبهم الطارىء للدم المسفوك ، ولكنه كان عهداً صادقاً قطعوه عن سلامة طوية ونذرا خالصاً نذروه عن عزيمة وإصرار . فما زالوا إلى يومهم لا يعس جلودهم غسل ، ويعيشون فى بيوتهم كرهبان الدير لا يقربون النساء . . . وإنهم فى غدد حريون أن يظلموا على موثقهم حتى يتألوا ثأر الخليفة المقتول أو ينصرف بهم كبيرهم عن التماس القصاص .

وابتسم معاوية . عرف البشر الآن طريقه لوجه المكروب . ومضى الأمل فى أعماقه التى ملأها قتامة الهموم . خف قلبه الثقيل . . . وعندما كان يلقى بنظره الساهر إلى الظلام الذى أخذت ظلاله ترق خارج الشرفة فى لفائف الغاب ، كان خاطره يسبح به عائداً إلى ذات أمسية حارة من الصيف الذهاب ، وانية الهواء ومنانة النسيم . . . لقد أصاب الحجاج بن خزاعة إذ ذاك ، وصدقت نظرتة فى طبائع النفوس حين جاءه تلك الليلة يضرب عليه بابيه لينبئه خبر ماجرت به الأقدار فى مدينة الرسول . . . يقول له معاوية :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . . »

فيحييه الرجل وهو ساهم حزين :

« إني لك النذير العريان ، فقد قتل أمير المؤمنين . . . »

وتظلل سحابة من الفكر وجه السامع وأخرى من الأسى وجه صاحب الحديث ويسيطر الوجوم برهة على المكان . ويتفرد كل منهما قليلا بهمه حتى يعودا إلى ما كانا فيه من الإنصات والرواية . فإذا بانح الحجاج من خبره غايته مضى يقول :

« . . . وإني يا معاوية غبرك أنك تقوى على بدون ما يقوى به عليك ، لأن من معك لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت ؛ ومن مع على يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر . فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه . . . »

وابتسم الماهل مرة أخرى وهو يشوب لنفسه من خواطره . وطاب فؤاده وصفا عياه . . . كانت الذكرى بشرى له بالأمان . . .

ثم أقبل الفجر عليه من المشرق . أطلعت الظلمة له غرة لماحة بلون آماله تطل من خلال الظلال التي مدتها حول قصره مرده الشجر في الغاب . وكانت عقود الضياء تنبثق من بعيد كقطر الماء من فم ينبوع . وكانت حباتها الدقاق البيضاء تنظم وتنظم ، رويدا رويدا ، في رحاب الفضاء الفسيح حتى غدت فيضا راح يغمر الدنيا بلائله . . . وتبدت السعائب المنبثة في جوانب الأفق ذات ألوان في مسيل الشماع ، بها من دكنة الليل ، ورقة اللازورد ، ووهج الفضة ، وحمرة الياقوت . وأخذت مسعة من الضوء في نصاعة الثلج تجلج رءوس الروابي وقمم الأشجار التي أتلعت أجيادها ترنو مشوقة إلى جبين النهار الوليد . . . وعندما زحف إلى شرفته أول شماع ، وطرفت أهدابه على وميض نوره ، وانطوى الليل المساهر في غلالة الصباح ، كان الماهل المسكدود الذي استخفه بشره يجترأ الذكرى ، وتترامى أمام عينه الوصفانة صورة صاحبه ، فيهتف لها — وهو باسم — بين خفق الناس :

« . . . ما وراءك يا حجاج ؟ . . . »

كأنه قوقعة طوتها صدفة ! . . . كان واحدا ، غامض النظرة ، قد غلب على
 محياه السهوم وأخذت قسمانه مسحة فيها عبوس وفيها جفوة . . . وكانت عينه جوفاء ،
 جللت لمحا سحابة من الشرود كالضباب الذي يغشى أحيانا بركة من الماء
 الآسن ! . . . ففي قرارها تنام حيرته ثم يخفيها وقاره المصنوع كما تخفي غيمة الضباب
 الحمأ والطين في قاع البركة . وتحت أهدابها انتشرت دكنة خلفها سهرة كتلك الظلال
 التي تمدّها على حوافي المياه الكدرة أعواد الشوك . ولم تكن نفسه هادئة وإن
 أوحى مظهره الساكن بالهدوء والطمأنينة . ولم يستقر له خاطر خلال النهر
 والليالي التي ملأها بتفكيره . فما يزال يتنسم القلق منذ جاءه جرير . وما تنقّ ألوان
 شتي من التوجس والحشية تتوالت على ذهنه كالأشباح . ولقد كان في البدء يوشك
 ألا يحفل بوافد الكوفة إذ حسبّه رسولا كالرسل ، يبلغ رسالة ثم يعود ، فإذا
 هو عنده ما كثر مقيم ، وإذا هو كالصدي في القصر الخالي يتردد دويه في هذه
 وتلك من حجراته وأبوابه حسبما يفسح له فراغها في الرجوع والتردد . . . فكذا
 غدا جرير . وكذلك لبث عنده لا يبرح إلا أن يردّه عنه بجواب ما جاء فيه . . .
 بضعة أيام فضاها معاوية هدفا سهلا لإلحاف جرير لا يعرف نفسه مهربا منه
 إلا التسويف . فلقد حصرتّه دعوة الإمام للطاعة في أضيق الأركان ، ومدت
 دونه كل سلاك إلا الجاهرة بالسلم أو المبادرة بالعداء وكلا الأمرين عليه
 شديد . . . ولكنه اختار أن يتربص بزمنه ، ويستأنى به لعله يجيئه بالخلاص .
 ففي الزمن لكل حائر ملاذ . . . وحسبه الآن أن يراوغ ، ويحتجر من الرسول
 كالضباب أو الثعلب ، ويعسك قلبه خشية ثم يعسك لسانه تحريزا فلا يعطى البيعة
 ولا يشهر العصيان . . .

ويلتفت ذات ليلة وقد أطبق عليه إلحاح الرجل :

« . . . يا جرير ! . . . إنها ليست بخلسة . وإنه أمر له ما يهدده ، فأبلىنى

ربقي ! . . . »

غير أنه لم يكن يرمى بمطله الجديد إلى الإفراح لنفسه في التدبر ووزن الأمور . فالنهج أمامه واضح والطريق مستقيم . إنما لغايه ييطنها شاء أن يستمهل ، وأن يرجى . وسعه البت في دعوة غريعه برد صريح . ومن يدري ؟ . فلعن البريد أن يأتيه الآن بالجواب الذي بات طويلا يترقب أن تذيق عنه صحارى فلسطين . .

وفرغ والظلمة إلى خلوته . . . وكانت نفسه حزينه كالليل . وكان قلبه ثقيلا كالرمل . وكانت عينه ندية كالطل . بينا عوامل القلق تتناوب ذهنه السكليل كأنها ذئاب جياح تناوبت فريسة . . . لكن هذا كله لم يمنع سماعه أن يعتد إلى الحلاء والرياض حول قصره العالي ينصت فيها لوقع الخوافر على الحصا والحشائش . غير أنه لم يتلقف في الوحدة الهامدة إلا همسات الوحشة فثائمة جياذ . ولائمة يريد يجيئه بما يريد . وإن الليل ليضى به والهدوء شامل . وإن الصمت يتراكم حوله كما تسكثفت في السماء غيوم أمسيته المطيرة . وأن الأنجم لتبرز مطلقة عليه من بين السحب كالعيون السواهر ، ثم تزهو ، ثم تهبت فتغيب وما زال سماعه المترقب معلقا بالمجهول . . . أيا ترى طاشت هذه المرة مشورة عتبة أخيه ؟ . . . أم النهار سيسفر عن أمه ؟ . . أم ذلك القابع بناحية البيع من فلسطين قد آثر أن يشخص بنفسه إليه فلا مدعاة إذن لتحرير رقعة لوفادة رسول ؟ . .

أينما جرت به أحلامه أو همومه فمشورة أخيه لاتنى تردد في فراغ ذهنه الأجوف ، حتى في هذه اللحظة التي اختلى فيها بمحيرته كان صوت عتبة يعاوده ، ويملاً خلوته ، ويدوى في أذنيه دوى الطبول . . ولم يكن قد أغفل تلك المشورة التي لقنه سليل آخر من سلالة أبي سفيان ، ولا أمهلها حيناً حتى يتبين ما لعلمها تحتوى من رشد أو تسفر عنه من عار ، وإنما تلقفها ملهوا من قم المشير وقد لاحت له كأنها القشة التي تنقذ الفريق ؟ . . ومع ذلك فما كفت — منذ احتضنها وأثقلها — تلح بلفظها عليه ، وتضطرب في خاطره ، ويعلمو جرسها رويداً رويداً من طوايا ماضيه الداني حتى غدا يسمعها — ليلته هذه — كأنها تنادى لتوها من شفتي عتبة ، صاخبة هادرة كزبد الشلال : « اجتمعن بعمرؤا » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرؤا » . . « اجتمعن على هذا الأمر بعمرؤا » . .

ابن العاص ، وأتمن له بدينه ! » . . . فما لعمر و ينام عنه كل هذه الليالي الطويلة فلا يقبل ولا يبادر بجواب ؟ . . .

كانت دعوته — وليدة المشورة — التي وجهها إلى نزيل فلسطين ، بسيطة ، ساذجة المظهر لا تنطوي على التواء : « . : قدم علينا جرير في بيعة طي ، وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني : أقدام إذا كرك أمرا » . . . كانت تتحدث في يسر ، بلسان راغب في النصيح باحث عن الصواب . كانت رحية اللفظ ، ناعمة ، تنم عن خطاب ندي لد أثر لديه حتى ليدع ثقافته وخلصاءه أجمعين ممن في متناول عينه بالشام ثم يستمد هذا القاصي رأيه ويستهديه عبر الصحراء . كانت غفلا من التلويح بالغنم واستثارة شره الأنفس المفتونة بالمناصب وأسباب الجاه . فلولا أن ابن العاص عليم بخافية داعيه لأخذه الزهو حينذاك ، ولناه عزة وكبرا وهو يرى داهية الشام يحبس نفسه على مشورته لكنه خير به ، يعرفه أخا حذر . ويعرفه أيضا طويل المعطس يد أنفه إلى مهاب نغمه كما يمتد خرطوم القيل ! . . . فإذا دعاه معاوية ، فلغير الحق أو صلة الصعبة دعاه . وإذا هو لي ، فلغير ذلك أو هذه تكون شورا . . . كلا الرجلين يجيد قواعد الحساب . . .

وإذن فهذه رحلة إلى دمشق تنتظره ، وعناء ووعناء ، ويد سخية عند نهاية الشقة تسمح عنه عرق المشقة ! . . . إن ابن العاص كذلك أريب ، داهية كداعيه لا يتذكر طائما للطبيعة الجائعة في نفسه التي يمزج فيها القليل من النور بالكثير من الطين ! . . . إنه لا ينسى الجيلة البشرية ، النابتة من الأرض ، الرانية إلى الأرض ، المشغوفة من الدنيا بما لا يوشك أن يجاوز مجال الحواس . أما الروح فأمرها عليه هين ، والضياء الذي ينبثق من صفائها فقد غشاء درن المادة ، والقيم الإنسانية المثلثي فقد غمرتها عبادة اللذات ! . . . كان الرجل واقعي النظرة ، يؤثر أن يغوص بقدميه في الطين على أن يسمو فوقه بجناحي ملك ترفعانه بعيداً عن نطاق عيشه . . . كان وفياً لذاته غاية الوفاء ، مشغوفاً بها غاية الشغف ، حتى لتوشك أن تكون كل همه وكل شاغله . . . وعندما اكتوت الأمة بالفتنة التي كان عثمان قربانها ، مضى يراقب الأفق في صبر ، ويتبين طلعه ، ثم همس لنفسه وهو متذائب بين اليأس وبين الرجاء :

« . . . إن يله طلحة فهو فق العرب سييا ، وإن يله ابن أبي طالب فلا أراه
إلا سيستنظف الحق . وهو أكره من يليه إلى . . . »

وها هو اليوم ، بعد طول تلبث وأناة ، يعلم بفاجعة البصرة . ويرى الناس
يلتفون بهلى ، ويتبعون هديه الذى يقدم البدأ على النشب . . . وها هو يشيم بشائر
دولة توشك أن تقوض الأثرة وترسى عمدها على القداء والإيثار . . . وها هو
مبشر جديد يدعو قومه إلى مكارم الأخلاق دون كرائم الهبات والأرزاق ،
يحذرهم البهرج والزخرف ، ويحملهم على الشظف والزهادة فى مفاين الدنيا
ليرتدوا ككرة أخرى إلى دعوة الله . فهل فى ساحة مثله لابن النابغة مكان ؟ . . .
ويومى عمرو إلى ولديه وفى يده كتاب ابن أبي سفيان :

« ما تريان ؟ . . . »

يقول له عبد الله :

« . . . إن نبى الله قبض وهو عنك راض ، والخليفتان . . . فقر فى منزلك ،
فلمست مجعولا خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا أوشك أن
تهلك فتشقى فيها . . . »

ويقول محمد :

« . . . إنك شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وإن تصرم هذا الأمر وأنت
فيه خامل تصاغر أمرك . فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدا من أيديها ،
واطلب بدم عثمان . . .
الثأر لعثمان ؟ . . . »

هذه هى القضية ! . . . وإنها لدعوة رنانة الجرس كقصر النحاس ! . . . وإنها
لراية حمراء فى لون الدم تنساق وراءها حمية الجماهير السكافة بتأثر مواقع
البطولة ! . . . وهى التكاة التى يمكن أن يرتكز عليها تمرد معاوية . وهى النبع
الذى ترتوى منه أطماعه . وهى مجازة الوحيد للمجد حين أعوزه طويلا الفوز
بغيرها من وسائل الأجداد ! . . . ليوشك عمرو أن يلبث ساعة يقلب فيها الأمور
فى باله ، وهو يتدبر أساليب صاحب الشام لتستشف الحية خلف ندائه المدوى
للمدم . . . أفهر صادق لحق القصاص إذن على ابن العاص حين يذكر الوافون

في دماء عثمان ؟ . . أم هو كاذب فدعوته لأطعمه ستار تلتقى وراءه يد الباغي
الواتر بيد الدعوى الموتور ؟ . .

إن معاوية ليدو كأن قد آثر طائعا أن يستمد ابن النابغة دهاءه من أجل
مطامع وآراب ، ترق لها الدماء كالماء ، وينسى الثأر فلا يصبح له حساب ،
ويتحالف الحسام الغاضب بالحسام المحضوب لأمر ما يسالم الرجل وانزه ،
ويؤازر مهريق الدم الحرام المسفوك على الثأر من برىء . فما دور عمرو في الفتنة
بعجول ، وما تأليه على القتل بغائب عن مدعى ولاية دماؤه ، وما شماتته يوم
أنته أخبار المصرع إلا لها بقية لا تزال تلفظها حتى اللحظة شفاء الرواة . . . ومع
ذلك فابن العاص لا يستغنى داعيه ، ولا يتهم التماسه المشورة لديه . إن شمورا
غامض الكنه يفيء الثقة على نفسه وهو يقلب بين أصابعه كتاب عاهل الشام .
إنه لا يقرأ العذر بين السمكات . لا يشك قط في حاجة معاوية إليه ، ولا يظنه
يريد استلحاقه وهو يخفى له غيلة — كلا ، فهذا بعيد . ولقد يوشك الحلف
ألا يقوم بين مؤمنين بهدف ، مخلص كل منهما لصاحبه ، يتبادلان ثقة بثقة
وولاء بولاء ، ولكنه يقوم أيضا بين مريبين ، يلتقى نفعهما ، كالحال في البيع
والشراء . .

ويحدث عمرو ولديه وقد تعبد له مسرى تفكيره :

« . . أما أنت يا عبد الله فأمرتنى بما هو خير لي في ديني ، وأما أنت يا محمد
فأمرتنى بما هو خير لي في دنياي . . »

ثم لا يكون له في أي الرأيين حسم إلا أن يجنه الليل . فالليل مسرح الفكر
كما هو مسرح الهوى والتأمر . . . لكن الجشع لا يدع له مهلة ليفقد أمره حق
قدره ، ويبتغى فيه وجه الله . إن الطين في طبيعته طفى على النور . قوة
مطامحه غلبت إيمانه . استذله زخرف الجاه . هو نفسه لم يستطع من بعد أن ينكر
ما كان من جنوحه — هذه اللحظة — إلى متاع الحياة . كان عصيا عليه أن
ينكر ، عسيرا أن يهدأ ندمه ولما تبق بينه وبين عدالة الله إلا نفس واهن يلفظه
صدره ولا يستعيده ، وخيط واه من أجله تعلق به وجوده ، وحفرة في الأرض
هي دار قراره ، وحفنة من ترابها هي كل دنياه . . . فعندما لم يعد له أمل

إلا في الرحمة ، وذبل بدنه كعود الهشيم ، وفقر القبر فمه بمد بضع سنين قليلة ليلقاه ، بكى واستعبر ، وناجى الله :

« اللهم إنك أمرتني فلم أأمر ، وزجرتني فلم أزدجر . . »

فكم كان أولى له لو استشعر وخزات ضميره وكيانه ركين ، وبنأؤه متين ، والعمر أمامه مديد فسيح للتوبة . . . لكن المني خدعته حينذاك عن آخرته ، ولعت في أفق حياته التماع السراب ، فانطلق مع الهوى إلى حيث لا جنى ولا ماء . . . وإنه عندئذ ليتشبث بدنياء بمثل حرص البخيل وشره المنهوم فلا يدع من كفه كتاب صاحب دمشق ، ولا يدع من باله عروضه التي اختفت وراء ألفاظه . . فإذا هو يعضى يتهياً لرحلته وإذا هو قد ألقى بنظرة الوداع على معتزله ، وإذا القافلة به تسير ، خلفها البيع وأمامها الشام . .

وتخب المطايا . . ويترنم الحداة . . وينساب الخف على الرمل الناعم انسياب الشراع . . ويتأرجح الركب على الظهر فيتأرجح الفكر . . دون الهدف الذي سمى الرجل إليه مراحل تضطرب فيها الخطا كما تتضارب الشواغل . . فالعاجلة شاغله ، والآجلة شاغله . المغنم والمنصب والنقود تصارع الحق والهدى والسلامة . وفي غمرة هذا المعترك كانت نفسه مضیعة ، لا تعرف مكانها اللازم بين القوى المصطرعة ، إلى هذه أم هاتيك . . وإن الركب ليضی فيهدف به أن يفيء للقرار . وإنه ليقر فينادي بالسير وإنه ليطي . فيعجله أو يسرع فيمهله ، والرفاق حوله في حيرة مما بيديه . .

ويهمس له غلامه وردان :

« خلطت أبا عبد الله . . »

فيلحاه :

« ويحك . . »

ولا يأبه العبد شيئا بالحق ، بل يعاود الحديث :

« أما إنك إن شئت أنبأتك بما في نفسك . . »

« هات . . »

« اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت : على معهما الآخرة في غير دنيا ، وفي الآخرة عوض عن الدنيا ، ومعاوية معهما الدنيا بغير آخرة ، وليس في الدنيا عوض من الآخرة . فأنت واقف بينهما . . . »

عندئذ يطوف بشفتي عمرو خيال بسمة وهو يقول :

« فإنك والله ما أخطأت . فما ترى يا وردان ؟ »

« أرى أن تقيم في بيتك ، فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم ، وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك . . . »

فيغضى الداهية مليا يفكر . ثمة في نصيح عبده دهاء . هو أناة قد تشر له راحة البال أو رفاة الحال . فيه أمن من مغريات الحياة للضلة ، إلى حين ، حتى يتبين لمن الغلبة في نهاية الصراع . . لكن سمعه وحده تقف النصح ولفظته بعده كل جارحة فيه ، فإعما الدنيا أدنى ثمرة ، وأشهى لمن تسجل الحفظ . . . وهو الآن قد جاءت نفسه بعد كل هذا الانتظار ، وشفها الظمأ إلى المجد ! . . . وهو قد هيا لمصيره المرموق ركابه وجند أسبابه ! . . . وهو إعما يخرج مخرجه هذا ، كما يحسب أهالي فلسطين وكلهم لمعاوية رعية وظهير ، عن مروءة ونجدة ، تلبية منه لصيحة الدم ودعوة الثأر للخليفة القليل . . . فهل إلى إحجامه سبيل ؟ ويهز رأسه في تعهل ونفسه تحدته :

« الآن لما شهدت العرب مسيرى إلى معاوية ؟ »

وتهتف كل جارحة فيه :

« كلا ! »

ثم يلتزم العزم في ناظره وهو يلقي بأمره ، صريحا صارما ، إلى غلامه :

« ارحل يا وردان . . . »

٦

عندما التقى الثعلبان تراوفا فترة . . . كان لقاء على دخل ، لم يأمن فيه أحدهما لصاحبه ، ولم يركن له . فما يستطيع حلف تقيمه الأنانية وحدها أن يربط بالثقة بين شخصين . . .

لكن مر الأيام قرب ما باعدته الريية وراح يردم الهوة المحفورة بين وصولي وفي سهم ووصولي الأمويين . وهل للمراوغة دون غيرها كانت رحلة ابن العاص ؟ وهل للتعالي والكبر كانت دعوة معاوية ؟ . أن ضغط الحوادث لينادي صاحب الشام أن يبادر الأمور بالحسم والمعالجة . فالزمن يتسرب من بين يديه ويفر كالنائم الرقاق في إبان عاصفة . . . والتمز والسوانح قد تقبل ثم تدبر ثم لا تعود كرة أخرى إلى الظهور . . . وها هو عمرو عنده ، قد جاءه دون ريب لنفع ، وبذل من دينه وآخرته ، وأراق من ضميره بقدر الخطأ التي قطعها قائلته طوال طريقها من فلسطين إلى الشام . . . كلا ، لم يكن ابن العاص بالخدوع فتغشه كلمات صاحبه التي غلقها له بطلب المشورة وبطنها بالنخوة للدم المراق ، كلا لم تغب عنه جبلته فيظاهره نصرة لحق أو يشايعه حقيقة على وافر ، بل النفع هو الذي يرسم الصلة بينهما ، ويختم بخاتمه صك الاتفاق . . .

ويخرج ابن العاص من التلييح بطلبته إلى التصريح بالسافر عندما تؤوده مداورة حليفة وتعييه :

« . . . والله يا معاوية ما أنت وعلى بمكنى بعير ! . . . »

فلا تغضب العاهل هذه المجابهة ، ولا ترده عن الإنصات . ويعاود عمرو الحديث :
« . . . مالك هجرته ، ولا سابقته ، ولا صحبته وجهاده ، ولا فقهه وعلمه .
والله إن له مع ذلك حدا وجدا ، وحظا وحظوة ، وبلاء من الله حسنا . فأتجعل لي إن شأيتك على حربيه وأنت تعلم ما فيه من الفرر والخطر ؟ . . . »
قال معاوية :

« حكك . »

« مصر طعمة . »

فتلكأ حينذاك صاحب الشام . أهالنه فداحة المطلب وسرفه أم غلبته الخشية
على نفسه وعلى أهدافه من حيث حليفه ؟ . . لكنه أغضى هنيئة عن شكوكه ،
وراح يرد طمع مساومه باللين والدهاء :

« إني أكره يا أبا عبد الله أن يتحدث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا
الأمر لغرض الدنيا . . »

فتجههم عمرو . وأجابته في اقتضاب :

« دعني عنك ! »

ثم أولاه ظهره ، ومشى لينغادر المكان .

لكن معاوية لم يتركه . إن الأطماع دربها طويل . فيه حزون ومقاوز .
فيه أودية كثيرة من التيه توحش السارى وتزرع الخوف في خياله . وفيه أيضا
عوسج وشوك . . . وعندما قر في عزم ابن أبي سفيان أن يرود هذا الطريق
ويقطع مراحل لم يغب عنه أن يهيئ لنفسه المطية ، فليس من الحكمة الآن أن
يدفعها إلى الشرود . . .

وآنثذ ابتسم لصاحبه بسمة خابية ، رقيقة الشعاع كأنها من شفق أب رحيم
عليم لطفله الأحق الحرون ! . . ثم قال في هدوء :

« . . إني لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت . »

فتار ابن العاص :

« لا امر الله ! . . ما مثلى يخدع . لأنا أكيس من ذلك . . »

قال الأخير بغير مبالاة ، بعد أن ضرب الصمت بينهما برهة :

« ادن مني أسارك . . . »

وفي اهتمام ولهفة دنا عمرو . . . أقبل على صاحبه ، واصلت أذنه بشفتيه
ليسمع السر وهو يعنى نفسه بتحقيق آماله . . فإن هي إلا لحظة لما تعض حق ندت
من فمه صرخة مكتومة كأنها الفحيح تنبئ عن حنقه قبل أن تنبئ عن ألمه حين
غافله صاحب الشام وعض إحدى أذنيه !

ولم يزد معاوية بعد هذا على أن قال :

« هذه خدعة ! »

وابتسم راضيا عن نجاح مكره .

لكن المعاشة لم تمنعه أن يعاود وقاره ثانية فيقول لحليفه المخدوع :

« أبا عبد الله . ألم تعلم أن مصر مثل العراق ؟ . . »

« بلى . ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك . وإنما تكون لك إذا غلبت

عليا فى العراق . »

إن نعمة حقيقة ظاهرة ، عمادها المنطق ، يقوم عليها رأى ابن العاص . ونة

أيضا لفظة على طلبته ، ورغبة تتوثب فى حروف كلماته أن يظفر بما يريد . . .

أفيكفى حنينه إلى اقتصاد أريكة النيل أن ينم عن عزمه على الانتصار لمعاوية ،

ثم الإخلاص لدولته المرتجاة إذا قدر امرشها أن يقوم ؟ . .

معاوية ما زالت بنفسه بقية من خشية ، وبقية من شك فى الثقة بهذا الحليف

الذى يقاس ولاؤه بانتفاعه ، ويتنسم الهواء دائما فيدور بوجهه يشم ريح

الشواء ؟ . ومع ذلك فهو أريب . أجل ، إن ابن العاص كذلك . . له رأى

فى الأمور ثاقب ، وله دهاء يحاور به ويطاول الأحداث إذا واجهته وضيق عليه

الحصار . ولقد أسفرت الأيام القلائل التى مكثها يحاوره عن بعض مكر يحنه

حرى أن تصلح به الأمور المضطربة ويستقيم شأنها حين يحقق العنف فى مقام

الحيلة . . وهو قبل هذا أخو حرب تمرس زمنا بشدتها وافتحة وقدة القتال .

وعندما يذكر ماضيه لا تنسى مصر ثم لا يغيب عن بال الذاكر أنه عالج فيها سياسة

النيل سلحة من عمره الطويل عرفت خسلاتها البلاد من حزمه ولينه واقتداره

ما لا يعد معه أن تكون له فى نواحيها شيمة باقية حتى اليوم .

على أن هذا جميعه لم يبدد غيمة الشك التى أوشكت أن تستر مزايا ابن النابغة

عن ثقة داعيه . فما زالت ظلال من الريبة قاعة بنفس معاوية ، تشعره الرهبة ،

ويسير منها فى ظلام من الخدس والوساوس لا يدرى إلى أين مداه . . . وكرة

أخرى تؤرق العاهل هواجسه ، وتعضى به ساعات ليده بطيئة ثقيلة فى مثل ونى

تأملاته الثقال . . وإنه ليرضى ساعة ، ثم يأبى ساعة . . وإنه ليوشك أن يبتسم ،

ثم يعبس ، ويزور وما كاد يأنس . . فإذا أشفى به الضيق على حدوده ، والتف

به الهم ، وسامته الحبرة أطلع السمر عليه عتبة أخاه . . .

ويقول له عتبة في رفق مشير وعتب نذير :
أما ترضى أن تشتري عمرا بمصر إن هي صفت لك ؟

« إنما مصر كالشام . »

« فليتك لا تغلب على الشام . . . »

وكذلك أذابت النصيحة تردده وهتك نذيرها الستر الذي حال قليلا بين التقاء
كفه وكف عمرو على عدااء الإمام . . فلم ينشب الصبح أن شهد اجتماع الرجلين
يرمان صك الانفاق ، ويوثق كل منهما به الموائيق حتى لا يخونه خدينه .

كانت مصر هي الدارة التي هفت إليها نفس عمرو والظمآنه . وها هي اليوم
في حوزته — في حوزته على القرطاس . . إنها لتلمع الآن له من بعيد ،
وتنعكس على صقال مياهاها صور نفوذه وسلطانه ، وتتبدى في ذهنه ألوان الخير
التي تطلعهما حدائقها الزهر وحقولها الخضرة حتى لتوشك أن تكون ذهباً في لون
الرمل الذي يمتد وطاء لأقدام النيل . . . كانت معقد آماله ، ونبع أحلامه التي
ما وئت منذ برحها تنهادى بخياله . . . أموى رده عنها وأموى يردّها عليه . فما
أعجب أن تكون ثمنا يتناوله في نظير طلبه بدم ذلك الغريم . . ومع ذلك فليس
يفيده اليوم أن ينتصر لعمان وقد كان في أمسّه يسخطه ويود لو أنه اقتص منه . .
لا يضيره أن يفعل ما دامت مصر سترجع إليه . كانت شاغل خاطره ، ومهوى
ناظره . هي أوطاره وآرايه . . هي واحته ، أم هي يا ترى سرايه ؟ ولكنه
يسعد بالعهد على أي حال ، وتطيب نفسه وترضى ، وبعضى يشعذ من همته ما لعله
كفيل بأن يردّها عليه . . .

ولقيه بعد الموثق ولداه :

« ما صنعت ؟ »

« أعطانا مصر . »

قالا له :

« وما مصر من ملك العرب . . »

ولقيه ابن أخ له ، ذو أناة وبصيرة :

« ألا تخبرني بأي رأى تعيش في قریش . . أعطيت دينك ومنيت دنيا غيرك . . »

وغضب مروان بن الحكم حين علم بما انتهت إليه المساومة فحدث نفسه وهو
واجد مغيط :

« وما بالي لا أشتري كما اشتري عمرو . . . »

إن القوم ليلعن الرجل على ما نال . تصغر في عيونهم الطعمة — مرة من
طمع في مزيد ومرة إذ هي ثمن بخس لدينه وآخرته . أو يصغر شأنه أخرى من
حسد له فتكبر وتمول . . . أما محمد المعنى بدنياء فقد ود لو شارك أبو صاحبه
في ملكه القابل ما داما قد تحالفا على المشاركة في الصراع . . . وأما الثاني التقى
عبد الله وابن الأخ الذي يرقب الله ويخاف سطواته فإنهما أنكرا عليه جشما
أنساء الحق وإنه لأحق بالاتباع . . . وأما ابن الحكم فقد أناره أن يراه أثيرا
لدى معاوية يفرض له دولته ولما تقم لها دعامة . . . ولكن ابن العاص لا يكاد
يحركه شعرة عتب عاتب أو غضبة غاضب . فهذا وغيره لا يردده عن القصد
وما وطن النفس عليه . وإعما يسير شوطه . السطوة منه قيد خطوة . الدنيا تلقى
بفتاحها إليه . . . الزمن أيضا حليفه على نيران العدل وشعلة الضغينة . وها هو
مروان ما يكاد تشور ثأثرته حتى ينبرى له معاوية بما يترضاه :

« يا ابن العم ، إنا نشتري لك الرجال . . . »

ومن تلك الليلة بات عمرو في عين صاحب الشام . أصبح حارسه . أضفى
درعه في الصراع القريب . غدا ظله الذي يقتنى خطاه . . . إنه لا يكتمه المشورة ،
ولا يبيخه النصيح حين تتأزم عليه الأحداث . إنه ينطلق أمامه حين البأس بعيد
له الطريق الذي يقوده إلى المجد والسيادة . وها هو الآن ، والمداد لين على الميثاق
يبادر بمونه ويشر أمام حليفه ذخره من الدهاء . . . كانت الأنباء حينذاك تقض على
الأمير الطامح مضاجعه ، وتفسد رقاذه وصحوه بالأخطار المتوئبة من بينها كأبالسة
النار . فلا يكاد معاوية يأمن ابن النابغة ويأانس إليه حتى يستهديه :

« يا أبا عبد الله ، طرقتنا في ليلتنا هذه ثلاثة أخبار ليس منها ورد ولا صدر . . »

« وما هي ؟ . . »

« . . أن محمد بن أبي حذيفة قد كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه . وهو

من آفات هذا الدين . . . »

فيجيبه في هدوء وقلة اكتراث :

« ما يتعاطمك من رجل خرج في أشباهه أنت تبث إليه خيلا تقتله
أو تأتيك به . . . »

فبث بخيل إلى مصر ، عليها مالك بن هبيرة الكندي يحاول أن يقتحم
بها الحدود إلى الغريم الخوف . لكنها استمعت دونه واستغلت كالسر . فلما
أن أعياء أن ينفذ ظافر إلى الغرين ظل يكابد ويطاول حتى خرج إليه محمد في
قلة من رجاله ووفرة من غروره وإدلاله . فإذا الإعداد يغلب الاعتداد . وإذا
الكثرة تغطي على الجسارة . وإذا الحيل تكرر وتغير حتى تحصر محمدا بالعريش
وتقضى عليه وهو على قدميه قائم ، في بركة من دمائه ، يذود العداة . . .

« . . . وأن قيصر زحف بجماعة الروم إلى ليغلب على الشام . . »

فينصحه عمرو :

« فأهدله من وصفاء الروم ووصائفها ، وآنية الذهب والفضة ، وسله
الموادعة فإنه إليها سريع . . . »

فيفعل ابن أبي سفيان . ويهدي إلى عاهل الدولة العجوز المتأخة كنوزا
من الذهب والنفائس ، ودرا من الجوارى والعلمان تلهيه عن حربه ، وتميل به
إلى المهادنة ووضع السلاح في أعماقه إشارا للسلم والسلامة . . .
« . . . وأن عليا نزل الكوفة متهيئا للمسير إلينا . . »

على . . .

هذه عقدة العقد يعي حلها الدهاة ممن تجرى لهم سيرة في المكر كالأساطير . .
أم ترى تجدى الفارة ، أو تثمر وسائل الملق والموادعة مع الإمام ؟ . .
بل هي بيعة أو قتال ، بلا تذبذب بين طرفي القرار . . . ولقد يوشك ابن العاص
أن يكنى حليفه — بتدبيره — أمر ابن أبي حذيفة بمصر ويرد عنه عاديته .
ولكنه لو فعل فقد أمن الخطر فيها إلى حين ثم لم يضمن من بعد أن تلين تحت
قدميه جنة النيل . . . ويوشك أيضا أن يكبح عنه شره القيصر وبني الأصغر من
ذئاب البيرنطية . ولكنه لو وسعه فقد أمن منهم حدوده الشمالية — وهم حينذاك عدو
مريض مهيب ، منتفخ الإهاب مثلوم الناب ! — ثم ترك بقية الحدود والنخوم نهبا
سهلا لغريم غيرهم ذي قوة وأيد . . . فما هي إذن جدوى تدبيره والحال هي الحال :

أمير أمر وعامل عصاء ، والدولة هي الدولة : وحدة سياسية — إلا ولاية —
في كف على ، وشعب مخلص — إلا فرقة — على الولاء لسلطانته الشرعى بين
أهل الإسلام ؟ . . .

ويتفكر الداهية . ويعبس . ويتعقد جبينه الذى غضنته أعوام عمره الطويل . . .
للحظة بدا كأن قد غابت عينه وفارقها النور حتى حسب معاوية أن غفوة أطبقت
على جفونه للحظة تراقصت على صفحة وجهه الأسمر ظلال وأطياف حتى ظنها
من دكنة لونها هوة عميقة من الظلام غرقت فيها لمة الرجاء للحظة تقلصت
منه شفتاه على ولائد وأجنة من الألفاظ عسكها الحذر ثم توشك أن تفلتها الحيرة . . .
ولكنها لم تكن غفوة ، ولا ظلة ، ولا حيرة تلك التى اعتورت قسبات ذلك العريق
في الخديعة . إنما انساح فكره بين صفحات التاريخ القريب والبعيدهم أن يستلهم
الرأى والمشورة . وعندما آب ذهنه من الرحلة ، أضاءت التماهة عينه الخابية ،
وانبسطت الراحة على غضون محياه ، وتوثبت بسمة عريضة تتراقص على شفقيه
نشوانة قبل أن تند الحروف من بينهما ترسم الخدعة الجديدة .

V

في وهمه تراءت دولة عريضة ، ممتدة مع الأشعة التى ترسلها الشمس كل ضحوة ،
ومع الظل الذى ينتشر عندما تجتمع عائدة إلى عوالم المساء واسعة المدى
مبسوطة الأطراف حتى لتلتهم كل أهل الإسلام ، وتنظم في عقدتها الطويل أقطاره .
وفي صحوة تراءت دويلة ، قال الناس إنها ولاية ، وقال الواقع إنها دولة
في الدولة ، نسج وحدها بين غيرها من الولايات ، قد بكرت في النمو وبكرت
في الانقطاع عن الوحدة السياسية التى ضمت كافة الأقاليم الإسلامية كأنما رشدت
وجاوزت حد اليفاع

ولكنه يدع عن نفسه وهمه ، فصاحبه أمامه جائم ينتظر منه رأيا يصلح له من
شدة الحقيقة ، ويهيئ السبيل إلى السيطرة على الأحداث التى مضت تنزاحم حواليه . .
معاوية ما زال في لفحة من أمره ، يكاد يتلف ذات الأنفاس التى تند عن شفق

عمرو لعل كلمة تبدر معها فترسم الخلاص . وإن نفسه لخيرى ، وإن عينه لقلقة غاية القلق وأعتاه وهو يعد يبصره إلى مشيره الذى بدا صمته قطعة من الجلود
غير أن ابن العاص ، وقد آب لتوه من رحلة ذهنه فى فيا فى التاريخ ووديانه ، كان مشغولاً عن صاحبه ، وعن دولة الوهم التى أقعده عرشها الباذج ، بتأمل دولة الحقيقة التى ما فتئت تفسد عليه خيالاته . . . فما معاوية فيها ؟ . . ما سلطانه المستفاد من هذه الولاية التى تناخم الروم ؟ . . ما غاية شأوه وقصاراه لو نجح كفاحه فبقيت له إذا حالفته دنياه ؟ . . إنه لا ريب غير ذى خطر . ليس شيئاً فى عين الدولة القاعه اليوم : بيدها وحضرها ، أبيضها وأسودها مما وسعت رقعتها الممدودة بين الشروق والغروب ، ومن ضمت شعوبها الشقى من الروم إلى النوبة ومن البربر إلى الصين . . . ليس شيئاً إلا أن يقاس قدره بنظرات أهل إقليمه فإنه حينئذ شئ على أى حال . إنه فى عين شامه رب سطوة لا تستطيع النظرة الزارية تخطيه أو اقتحام مقداره . هو حقاً فى اعتبار السلطة الزمنية ، وفى اعتبار الرأى العام الإسلامى فى مجموعته ، وال من الولاية ، ولكنه فى اعتبار الحقائق الناطقة ليس كالولاية . فما ينكر أحد أن الرجل قد وسعه مع الزمن أن ينفذ إلى نفوس أهل إقليمه باللين والبذل وحسن الحيلة وغير هذه وتلك من وسائل تربط برابطها الوثيق بين الحاكم وبين المحكوم . . . وولايته — على هذا الأساس — يمكن أن تغدو له رداء يحميه وجنة يتحصن بها إذا ما تأزمت عليه الأحداث . . . وأنصاره فيها — أو قل رعاياه — قد يشفى بهم حماسهم له على أن يشرعوا الأسنة حيناً من الزمن ، ذوداً عن سلطانه عليهم أو — فى الحق — عن إحسانه إليهم عرفاناً منهم بحميله وأياديه . . .

ومع ذلك فإلى أى مدى تستطيع أن تثبت الشام ؟ أقد أحلست له صفوف أهلها بغير فرقة بينهم ولا خلاف فيطمئن عمرو عندما يحكم تديره إلى أنه لا يبنى على أرض رخوة ؟ . . أكلها أموية ؟ . . أتستجيب حين الجد لدعوة الصراع فتكون صدى صادقاً لصيحة معاوية ، تردد عنه وتؤازره ، وتعمل وسمها حتى تقيم له الإمرة المنشودة على أنقاض إمرة الإمام ؟ . . .

لا يدع عمرو هنة فى الغابر ولا فى الحاضر إلا أحصاها ثم طاردها بالتحميم والاستقصاء . وها هو لا يأبه شيئاً بلهفة حليفه الذى جلس أمامه ساعة كالدهر

ينتظر رأيه في ثالث الأنباء التي هزت خاسره وزلزلت هدوءه . إنما يعصى شوطه في الاستقراء وهو يمرض أمام باصرتة مشاهد من تاريخ هذه الدولة القريب والبعيد . إنه منه على بينة : أولئك الذين يميلون فيها إلى ابن هند هم السكثرة الغالبة إذا استمسك بحذيره في التقدير ولم يرههم السكافه . . . فيها جاوروه السنين الطوال بعد أن جاوروا قبله أخاء يزيد بن أبي سفيان أميراً لهم في عهد الصديق . . . وبها انتأوا معه — عن مقر الخلافة الإسلامية — في رياضها وغياضها المنقطعة عن مدينة الرسول بمئات من الأميال والفراسخ وعديد من الفلوات وأودية التيه . فمضى هذا النأى قد وهب معاوية نوعاً من التفرد في ربوع الشام بالحكم والسيادة دون عين ترى فتتقد فعالة أو رقيب ينقض ويحد استقلاله . . . عسى طول عهده بحكمها قد زوده بنوع من الاستقرار على سلطاتها أدناه هونا من أصحاب الملك الراسخ ذوى العروش والصوالج . . . عسى الجوار أيضاً أورث أهلها الألفة به ، والخنوع له ، والتسليم بأن يكون عليها ماشاء وشاءت له سعوته أو ظروف أحواله . هذه مزايا حرية بأن ترفع معاوية في الشام إلى ذروة التفوق حين ينحصر الخلاف بينه وبين غريعه ابن أبي طالب على الشام . ولكنه تفوق لا ينعض عين عمرو عن سواء من الاعتبارات الأخرى . فما الشام إلا ولاية كالولايات . وما أهائها إلا ناس كالناس . . . وفي خلال الأعوام الطويلة السالفة ، منذ أصبح فيها للعرب سلطان ، لم يكن لفرد من رجالها رأى في اختيار الخليفة إلا بقدر ما يأتى الخبر في اختياره فيبايعه الوالى وتبايعه على البيعة أتباعه . ما من امرئ منهم نقض أو ثار ، بل كانوا جميعاً لعاملهم الصدى والظل كحال غيرهم من الأهلين في غيرها من الأقاليم الدانية والنائية ، التي لم يكن لها في الشورى كلمة حتى اليوم . فلم نشهد قط ، بعد حركات الردة وعصيان مانع الزكاة خلال عهد أبي بكر ، عاملاً أو مواطناً حاول أن يتمرد على البيعة التي تعقدها المدينة . أيعا رجل في القوم لم يعص ، ولم يخالف ، ولم يحل له بخاطر أن ينحرف مرة عن الطريق التي كان رسمها دائماً ذلك « المجلس النبأى » بالعاصمة ، المتمش في جماعة المهاجرين والأنصار . إنما كان حقاً خالصاً لتلك البقية من صحابة ارسول أن تختار حلفه على أمته ، وأن تقتضى المسلمين كافة في أنحاء الدولة الوفاء لعهدا الذى أبرمته والطاعة لختارها الذى ارتضته . . .

كان هذا حقاً للمدينة غير مردود دون غيرها من المدائن . ثبت في الضمير الجماعي للذين الفهم دينها وأظلمهم عليها الموحد وإن فرقهم الأمصار مشرقين ومغربين وتقسمتهم الأرض بين الجبل والوادي والقاع . ولقد ألف الناس الأمر حتى غدا مع الزمن عرفاً ثابتاً مقررأ له في نفوسهم رسوخ التقاليد للسيطرة وقوة القانون النافذ ، وأوفوا به وامثلوه أصدق امثال حتى أصبحت له عندهم قداسة .

البيعة إذن أمر والرضا بها التزام . هذه حقيقة نطقت بها دائماً وقائع الحال منذ كانت هناك بيعة عقدتها « ندوة للمدينة » أو « مجلس الأمة » أو أيما اسم يمكن أن ندعى به تلك النخبة من حواربي محمد وصحبه الذين التأمهم مجتمع حضرته وغدوا على ترائه خلائف وأمناء ... ابن العاص قد علم هذا وأقره ، ونزل دائماً على ما تعارف عليه المهاجرون والأنصار وقضوا به لأبي بكر ، ثم لعمر ، ثم لعثمان . لكنه اليوم غيره في أمسه ، وهو في غده أسيل إلى الزيغ والانحراف ... كلما تبدت رويدا رويدا خيوط نفعه في آفاق الزيغ والانحراف ... وإنه ليتنكر للبيعة اربعة كما لم يتنكر لما سبقها من بيعات . ويجهز بخلافه وانتقاضه على الإمام خلافا لا تغذيه إلا عاطفته وانتقاضا توجهه صوالحه الخاصة . ولئن قيل غضب الرجل لدم عثمان بعد ندمه لما سلف منه في حقه فمن حق أي أمرىء أن يغضب كما يشاء دون أن يساير انفعاله إلى المدى الذي يتجاوز به حدود العرف والقانون والمقدسات . وإن اعتذر له بأنه يفسق إمرة على فيراها موضوعة فبأي عذر يساغ سعيه لتأثير معاوية خليفة للإسلام ... فلقد سعى لهذا سعيه وإن توارى خلف الثأر وأبس هدفه الشخصي بخلاف زائف من المروءة . أو لا فكيف يساوم حليفه على مصر إلا أن يكون قد وضعه في خياله ، وفي تقديره ، موضعاً تكون له به السيطرة عليها وعلى غيرها من الأمصار ؟ ...

من اليوم الذي أنته فيه كلمة ابن هند وهو ينتجعه ذاك في فلسطين حزم عمرو على الخلاف أمره ، ورسمها في باله إمرة للمؤمنين يقوم عليها أهل الشام وينسلخ منها الإمام . وما أحسبه إلا سبق بهذا التفكير معاوية نفسه الذي كان قصاره لو أقره على إقليحه وأبقى له به السيادة القديمة ... وإنه في سبيل ما أضمر ليتخذ لكفاحه عدة من الدس والسكر والتآمر ويحرك في القلوب الساذجة شغفها

بالمرودة والنخوة وولعها بالقصاص وفق شريعة الغاب ! . . . إنه ليفتح أمامها باب الثارات وسيعا على مصراعيه بعد أن كان الدين قد أوصده وحرم على أهله اقتحامه منذ حين . . . إنه فوق هذا يبتكر فرقة جديدة يضرب بها حق بين أهل نفس إقليم صاحبه ، فالنار — في رأيه — تأكل النار والانقسام يقضى على الانقسام . . .

نظر عمرو فرأى لزما عليه ليلخ أربه أن يحى من العصبية القبلية ، ومن التحزب الأعمى للأصل ، ما كاد يموت . . . كان عليا بأن الشام يمنية ، فيها طائفة كبيرة من بقايا غسان منذ استظهر الروم بهذه الفئة العربية قبل الإسلام ووطدوا لها على حدودهم ملكا يدرأ عنهم شررة الأكاسرة وغارات بدو الصحراء . وكان عليا بأن الهجرة الإسلامية بعد الفتح قد مكنت لليمنية أيضا في التفوق العددي بالإقليم وأفادت عليهم نوعا من الشعور بأنهم غدوا أولى القوة فيه أو أنهم أوشكوا أن يعيدوا دولتهم الغابرة للحياة . . . فمنذ بعيد ، عندما كانت العرب مزقا محولة وكان أبناء شمال الجزيرة ووسطها يعيشون معيشة قبلية خالصة ، تقدمهم إلى التكتل ، ثم الوحدة السياسية ، طوائف من قبائل الجنوب فينت لنفسها سلطانا في دويلة هنا ودويلة هناك كما نعلم عن ممالك الغساسنة والمناذرة وكندة اليمينية . تقدمت اليمن إذن إلى التملك ، وسبقت غيرها من العرب في مضمار الحضارة ، فلما أن أتى الدين الجديد في قريش ، وعلمت به مصر . وربطت يد الحجاز بين قبائل العرب أجمعين في الجزيرة : من ولد عدنان وولد قحطان ، هفت العزة بنفس الغالب ولعبت الغيرة بنفس المغلوب . ولولا أن دعا الإسلام بين أهله بدعوة السوية لما انظمرت في قلوب أولئك وهؤلاء — حتى حين — عوامل المنافسة والتفاخر وما قد تجر إليه من تناحر وشنآن . . .

لكن عمرو بن العاص لم يرد لتلك الحزازات الانطمار ! . . . إن التلويح بقاعدة إسلامية في الشام تساس منها الدولة الناشئة قد يكون لمعة السراب . ولكنه على أية حال محاولة تستحق منه أن يجربها إذ هي حرية بأن تبتعث الرجاء في نفوس اليمنية وتدفعهم إلى الطموح عسى أن يستردوا خرم المسلوب ويعودوا إلى تسنم ذروة مقامهم السالف على هام العرب أجمعين . . . ولئن كان معاوية من قريش فإن الإمرة المرقوبة له لن تقيمها إلا سيوف « جنوبية » يعرف فضلها عليه حين

يأتي حين المفاضلة بين قبيل وقبيل . وما أحرام عندئذ بأن يقدم اليمن على غيرها فتطفو بهم « غسان » القديعة من القاع . . . وما أولاهما إذن بمكان الصدارة في ملكه دون مضر التي لن تؤدب إلا بالتخلف إلى الذيل . . .

كان منطق الأشياء ، وأصداء التاريخ ، ودقة الاستقراء كلها تمهد الطريق لتدبير عمرو وتقديره فلا يكاد يلح عقبة واحدة تسد السبيل دون « المغامرة الكبرى » التي حزم عليها أمره تلك الليلة وهو يتكأ بشوراه عن صاحبه المهموم . . . غير أنه أثر التريث قبل أن يدلي برأيه ، فما تؤمن اليمن باليمن يتنازعان . . . وما يستطيع هو أن يحملها على الثقة به وعندها من هو بهذه الثقة أولى منه . أتري انكشفت خبايا تفكيره للإمام فتعزز له وأعد العدة التي تفسده عليه ؟ . إنه حين يجده قد بعث جريرا رسولا من لدنه إلى معاوية يكاد يؤمن بأنه فتق حجاب الغيب ولما تنفسح الأيام لتفكير مفكر ولا لتدبير متآمر . فجير من بحيلة وبحيلة من اليمن واليمن هي التي بهم عمرو أن يتخذها عدة في الصراع الرقوب ، الذي راح ما كرا يرسم خطوطه ، لكثرة من انتشروا من بطونها وأحمازها في إقليم الشام . . فهل يستقيم له دسه على بين أولئك الخنية وهم حريون بأن يكونوا أسمع لجرير وأدنى إلى الوقوف بجواره منهم إلى الانحياز لصف عمرو بن العاص ؟ . .

فليضرب إذن الرسول القادم من الكوفة ببعض أهله ! لتكن من اليمن نفسها أدانه القاضية على نفوذ ابنها جرير . . . فليطلق النار تأكل النار . . . وابتم راضيا عن نفسه وقد شارف به تفكيره نهاية المطاف ، ولعت عينه الحائية كأنها شهاب . وامتلأ بالزهو والاعتداد عطفاه وهو يلقى بسمه في تراخ إلى تساؤل خديته الملهوف :

« وما ترى في على ؟ . . »

« أرى فيه خيرا . . »

فلو أن امراء سوى معاوية كان سامعه لمبطت هذه الكلمات القلائل بقلبه إلى مواطنه ! فما أرقها ملقا يسبح على ظهر غريمه وينشر حوله حالة مضيئة من الإجلال . . لكن سليل أمية كان أقدر على كبش شموه أن يشى باضطرابه حتى مضى صاحبه يكمل حديثه :

« يا أبا يزيد . أتاك في هذه البيعة خير أهل العراق ، ومن عند خير الناس في أنفس الناس .. ودعواك أهل الشام إلى رد هذه البيعة فيه خطر شديد .. »
قال معاوية وهو يمالج قلقة باصطناع الهدوء :
« فما ترى يا أبا عبد الله ؟ .. »

« أرى أن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي ، وهو عدو لجريز . فأرسل إليه ، ورطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن عليا قتل عثمان . وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب ، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبدا .. »
عندئذ استضاءت عين العاهل ، وهدا زفيره ، وتباج وجهه الكمود وهو يهتف كالحالم :

« شرحبيل ! .. »

« عدو جريز ! .. »

ومضت الليلة وثيدة الخطا ، على جناحها كتاب وعى أقل لفظ وأدله ، اندفع به البريد من دمشق إلى الشمال حتى بانح حمص فأودعه يد شرحبيل .
« ... إن جريز بن عبد الله قدم علينا من عند علي بن أبي طالب بأمر فطيج . فأقدم ... »

وأصبح الصبح وقد اتسمت رقعة التدبير فضمت من بني عمومة المراد بالدعوة طائفة من أسد ، وزيد ، وطىء ، هم قادة قومهم من اليمن وقحطان ، دسوا على صاحبهم يرورون له القول ويعوهونه على ما اشتهى معاوية ، ووفق خطة ابن النابغة وتدييره ...

واختلف الناس في بدء الحنة على شرحبيل ، اختلفوا عليه بخلاف رأى ومشورة لا خلاف عداوة وعدوان ، فهو منهم الرأس وهم منه الفروع والأطراف ... يقول له ابن غنم الأزدي :

« .. إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان ، وأن عليا قتله .. فإن يك قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار وهم الحكام على الناس . وإن لم يكن قتله فعلام تصدق معاوية عليه ؟ .. »

ويقول له عياض التمالى :

« . . . دع قول المضلل ! . . . فإن ابن حرب ناصب لك خدعة . . . »
لكنه في تردده ، واستجابة منه لغل توارى بقلبه ، يأبى السمع ، ويصر
على المسير إلى دمشق ليلقى معاوية فيها ، ويتلقى عنه فصل الخطاب . . . فإذا
رأى ابن غنم منه تصميمه ، هتف به ناصحا يحذره مره :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . . لا تهلك نفسك وقومك . . . »

ومغزيا يحضه أخرى :

« يا شرحبيل بن السمط ! . . . إن كرهت أن يذهب يحظها جرير فسر
إلى على فبايعه على شامك وقومك » .

ولقد كره وإن حسب أنه تلمس وجه الحقيقة دون وحى من عدائه القديم . . .
وإنه لم يرض شأنه ، لا النذير يردعه ولا الإغراء يلويه . يعصى قدما إلى معاوية . . .
إلى دمشق حاضرتة التي موهبتها الفتنة . . . إلى طغمة بها رتبت في طريقه كنسق
بيادق الشطرنج وفرسانه ومحاربيه ، هيئت لها خطواتها سلفا إلى غاية مرسومة ،
ووضعت في أفواهها الألفاظ لتجها عند اللحظة الحاسمة ترديد يغاء ! . . . ومن
وراء هذا كله ، من خلف ستار ، يد معروقة تحرك الجيوط في الظلام ، وتدفع
الدمى ، إلى مصير محتوم ! . . .

١

كان الغروب منسكفي الظلمة ، شاعت في جنبات أفقه الدامى خطوط المساء
سوداء عريضة كأنها تؤاف الإطار الحزين الذى هم أن يطوق المدينة . وكان
الهدوء يملق في الجو كالضباب ، وينساب خلاله انسياب الظلال التي راح ينشرها
الليل ، لا يكاد يشي لكشافته بما يبنيء عن العاصفة الوشيكة الوقوع التي أخذت
تعمل في الأنفس وما بدت مقدماتها في الطبيعة . . . السمعة وانية . الشجر تفر
وتهدات غصونه . الماء ركذ في جداوله كقطع المرايا المصقولة يستقبل الشعاع
ثم يوشك لحدره وتراخيه ألا يعكس الشعاع .

الطمأنينة التي اكتست بها السماء ، وأغنى الجدول ، ونعس الغاب لم تلق
ظلام من ظلالها على الناس . لم تعد في دنائهم رواقها الآمن . لم تلف نزع نفوسهم
بأبراد الهدوء والسكينة — على الأرض مكوف ، وعلى الأوجه خداع . . .

ها هي دمشق في أمسياتها صامته ، ومنانة المظهر وإن كان قلبها يضج نكالية
النحل . . . فشت فيها دعوة الإفك التي لفقها عمرو وملائها الطنين كغاية ما تمغو
إليه مطاعم حليفه معاوية . . . تواتر فيها الحمس . توالى الفرية تتبع الفرية .
تزاحمت السن أهلها على البهتان . . .

أينما خطوت في القصة المفتونة التي تهيأت بحديثها الملفف لاستقبال شرحبيل ،
صك سمك اللعب بسيرة الإمام ، وقصة محنة شارك فيها — كاختلاقهم —
بسيوف محضوب . . . ومنظر دم حرام موهوا فيه بالزيف ولعبت ريشة أخيلتهم
في جنباته بالنقصان والزيادة . . .

لكن الطنين ، والرسم ، واصطخاب القلوب بالنقمة لم تعد كلها نفس معاوية
بالطمأنينة ، لم يحس في قرارته الراحة التي حسبها الصدى اللازم لمحمسات قومه ،
ولعظمهم بالفتنة ، وتناديهم فيما بينهم بالقصاص . فما زال قلقه يأكل يقينه ويفرى
أمانه . وما ولى أملة يضطرب به على مثل اللجة الحائرة ينشرها المد آونة ويجذبها
الجزر آونة . . . هدوء مفقود ، وقلبه مفشود . وحين تلوح له فرجة للرجاء
بين تدبير مشيره لا يلبث اضطرابه أن يسدها ويبنى عليها بالطين . . . فلعله
الآن قد خشى أن يفسد دس ابن العاص فلا ينطوى له شرحبيل . . . من له

بإتلاف الجنة معه على غريمه وإنهم لشيع بعدد البطون والقبائل ويقدر المشارب والأهواء ؟ . . . يستطيع أن يأمن منهم بدواتهم وهم لجرير ذيول ؟ .

كلما أوغل المساء حمل من قنانه إلى دخيلة نفس ابن أبي سفيان ، وعفى على أحلامه الموثقة بظلاله . . . الآن حقاً في حوزته الشام ، ملك يمينه وإحسانه ، ولكن أمرها في غد في يد الغيب . . . هي أموية ، والله عشرين حجة طويلة ، وحرية بأن تواليه بعدها عشرين لوبقيت حالها كأمس وأمهل له الأجل في الحياة . غير أنها — بعد أيام ، عندما تتفاعل الدسيسة التي دبرها ابن العاص — سيفقد مصيرها معلقاً بخيط ، بكلمة قد تفلت من هذا الفم أو من تلكم الشفاه ، فإذا أمرها ينتهى إلى غير رجعة ، وأمله يذهب مع الريح ! .

وحد هونا من اضطرابه ، ورد من تأثرة خيالاته . إن القلق يلعب بنفسه ، وما يحسن بالسياسي الأريب أن يعطل العقل ، ويعمل بأعصابه . . . لم يعد يؤمن اليوم بالتأنج التي حدسها عمرو وإن كان ليؤمن بالمقدمات بعض إيمان . وهل ذلك التدبير إلا مغامرة ؟ . . . وهل النجاح إلا صنو الفشل في أمثالها من المغامرات ؟ . . . إن كاد ليقتنع بجلوسه ينتظر ما تنجلي عنه التجربة لو علم أن شامه باقية له خاب تقدير مشيره للخواتيم أو أصاب . ولكنه هو وحده محور التجربة : المادة التي تنصر على نار الانتظار . فما مآله لو لم تخلف التجربة في البوتقة إلا رماداً أو ما هو أتفه من الرماد ؟ . . .

ألقى إذن بطبعه ألا يدع مصيره ومصير إقليمه في يد نتيجة مجهولة تسفر عنها أحاييل عمرو . ليس هو بالذي بكل شأنه للمصادفات ، أو لرجل كشر حيل تلعب بنفسه جمعات عاطفته فلا يؤمن جنوحه إلى عين أم إلى يسار ، أو لحفنة من رؤوس اليمن قد تضطرب ميولهم بينهم فلا تتفق كلمهم على قرار . ليس هو بالذي يبيع ما في يديه ليشتري سلعة خبيثة لما يطمعها الغيب . . . إنما من حق أهدافه عليه أن يستبق الجسر الذي يربطه بماضيه لا يهدمه لعله يكون مخازنه — حين محنة — إلى ضفة الأمان ! . . .

وهذا جأشه لهذه الحيلة الواجبة منه ، فانطلق من لحظته ، الليل وطاؤه والحفة رداؤه . . . فلما أن جنته دار رسول الإمام ، ألقى العبء الذي أثقله خلال انفراده بأفكاره :

« يا جرير ، إني قد رأيت رأيا . . »
فانبسطت أسارير الرجل الذي برح الكوفة ، وقطع من الفلاة شوطاً ومن
الزمن سلخه في سبيل الوفاق :

« هاته يا أبا يزيد »

« اكتب إلى صاحبك يجعل لي الشام ، ومصر جباية — »

« وتبايع ؟ »

« فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي . وأسلم له هذا الأمر .
وأكتب إليه بالخلافة . . . »

فتفكر جرير . . . ما عليه لو فعل ، عسى الله أن يرأب الصدع ويحقق
الجماعة ؟ . .

قال :

« اكتب بما أردت ، وأكتب معك . . »

فلو أن هذا الرسول احتذى حقاً نهج سيده الذي إليه أرشده لما خط كلمة
واحدة في كتاب ابن أبي سفيان ، ولما ارتضى منه هذه المساومة . إنما بعثه على
ليعة غير مشروطة يقتضي معاوية إياها ويقتضيه معها إمرة الشام : التسليم وحده
كان مجاز الأمير المشاق إلى رضا الإمام عنه ، والوسيلة إلى الإبقاء على وحدة
الأمة بلا انقسام . . . لكن جريراً جاوز حدوده . وتحيف على أمانة الأداء
المفروضة في كل رسول ، فنضح بما في نفسه بفعله ، وتبدى لناكرة أخرى — كبده
قبل تركه الكوفة إلى دمشق — فردا من أولئك الذين يلوون الحق ليلاً ثم
الهرى وفرقه كأنما حسبوها يجتمعان . . .

أفتصدق عليه إذن كلمة الأشر : « إني لأظن هواه هواهم » فهو خائن
بهذا التقدير ؟ . . إن المرء ليوشك أن يسائر الشك فيؤثم الرجل ، ثم يوشك أن
يحسن الظن به فإذا به هو مخدوع . ولسكننا على الحالين نرى علماً صاحب المبدأ
الأمثل الذي لا يتعرف قيد شعرة مع الباطل وإن جاء الانحراف بالدنيا جميعها
مسومة تناديه أن تكون مثته . . . ونراه كذلك رجل السياسة الذي يجد
المساومة آفة تأكل من هيئته كما تضعف مثله وتقوض خططه التي جعلها أعمدة

دولته . فما من امرئ يعلمه هاود بعد طول تمسك وإصرار إلا أيقن أنه أضعف الفريقين غلبه الحق على عناده . وإنه إذن لحرى بأن يكون العوبة في أيدي عماله يجلبون طينته على الشاكلة التي توأمت هواهم ، منهافت القدر في عيون شعبه فلا يؤمن فرد واحد بأهدافه . . .

خضع جرير أو خان فالإمام ثابت في مكانه ، رسخت قدمه على عزمه ، وصحت نيته على انتهاج المحجة المستقيمة بغير زيغ ولا انحراف . فليس هو بالذي يساوم الباطل أو يهادنه . وليس هو بمن يقتله زخرف أخدوعة . . . المقددة لا يحلها أن يدعها بل أن يقطعها . . . والحية إن بتر منها ذيلها ثم أطلقها فلن يكف عن اللدغ نابها السام . . .

ولذلك كان جوابه إلى جرير يكشف عن حيلة معاوية ويهتك سترها المموه بزيف الرغبة في الخضوع والطاعة :

« . . . إنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة ، وأن يختار من أمره ما أحب . وأراد أن يرثك حق يذوق أهل الشام . . . »

لقد صدق حقاً حدسه في البدء والنهاية ، فإنما رحلة الكتاب وأوب الجواب مهلة مخطوطة بقرت لمعاوية عن دخيلة عنية إفليمية ورأسهم شرحيل فهذه دمشق تحتوى الرجل بعد أن تخمرت بالديسة . . . وها هو يبيت فيها كمن في خلية ، ملأت أذنيه بالأزيز والطنين . . . وها هي استقبلته كاستقبالها الغزاة المظفرين ، يلعب حديث صنائع أميرها بإعانه ويمسح ثناؤهم على غروره . . . وعندما تفتح له أبواب القصر يثني فيه كأنه متبوع ، يوشك معاوية أن يسير بين يديه من خضوعه . . .

ويفرغ الرجلان من بعد الخلوة ، يقبل معاوية على زائر خلاطها في استحياء المذراء :

« يا شرحيل . إن جرير بن عبد الله يدعونا إلى بيعة على . وعلى خير الناس لولا أنه قتل عثمان . . . »

فيتفكر سيد اليمن هنيهة وهو مشغول . هذه نفس الصورة التي شهدا طوال طريقه بالحاضرة الأموية حتى بلغ دار الأمير . ذات الطنين . ذات الخلية المضطربة

بالوسوسة والأزير . . . يا ترى هذا كله كلمة مصنوعة وزعت على الألسن ووضعت في الأفواه ؟ . . . أتلفيق ؟ . . . أتواطؤ على مكيدة ؟ . . . هو يخشى أن يكون رأيه ملهامة لقوم يزيغون به مع هواهم ويخطون به مجراه . لكنه يكيح نفسه أن تنساق وإن آمن في ضميره باستحالة إجماع كل من قابلهم على ضلالة . وإنه إذن ليتحرز فلا يتعجل بحكمه ، فإنما الخير في الحيلة .

ويبدى الريث في تساؤله :

« رأيك ؟ »

فإذا معاوية لا يجيبه إلا بما يتعلق باعتداده بعقداره بين الناس :

« . . . إني قد حبست نفسي عليك وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضوا وأكره ما كرهوا . . . »

عندئذ يطعنن خاطر شرحبيل وتهدأ وساوسه . فما هذا حديث مولع بفتنة كما حدث ابن عثم ، ولا يخدعة مضلل كما ظن ابن عياض . بل هو قول من يحب أن يتلمس الحق حيثما كان ، فيصدر في رأيه عن شعور أهل إقليمه ، وفي فعله عما يحملونه عليه . . .

ونهض شرحبيل راضيا وهو يقول :

« أخرج فأنظر . . . »

وحسب بهذا أنه بلغ ذروة التحرز وطلب الحق الخالص في مأويه !

٢

كرة أخرى احتوته الحلية . . . الآن أرفع أزيما حق بلغت المهمة مثل عواء العاصفة في الغاب . الرياح نفسها راحت تحمل الثورة على الإمام . . . قطر المطر على دروب عاصمة الشام كان له مثل قرع الطبول الداعية للحرب . . . ليالي الشتاء الحالكة كانت مرآة تمكس العواطف الحزينة التي فاضت بها القلوب أسى لعثمان . . .

أينما مضى الرجل يستطلع نبتت السنة في مسارب قدميه تناديه للقصاص . ضاقت السبل عليه وعن وطأهم له معاوية ومشيره . ملأ النحل عليه هدأة القضاء .

إن جرسهم جميعا واحد ، بغير تفاوت في الرنين كأنما صدر من ذات الناقوس . . .
 سحتم كلها واحدة قلبها الغضب وبدت فيها تكشيرة الذئب . . . تلويحهم أيضا
 واحد ، تقبضت به الأصابع تنوعد كأنها تشد على حسام مسنون . . .
 وفرت الحيلة موليه أمام هذه المظاهر الناقمة ، فهاج شرحبيل :
 « يا معاوية . . . أبى الناس إلا أن عليا قتل عثمان . والله لئن بايعت له
 لنخرجنك من الشام أو — لنقتلنك . . . »

فكنتم الحاكم المجدود غبطته بغفلة حليفه الجديد ، وقال وهو يبدى التسليم :
 « ما كنت لأخالف عليكم وما أنا إلا رجل من أهل الشام . . . »
 « فرد هذا الرجل على صاحبه إذن . . . »

إن بارقة واحدة للحق تبلجت هنية في ذهن شرحبيل وكاد يستضيء بها
 ضميره ذات ليلة أراد أن يدل فيها على جرير بسلطانه بين قومه من رجال الجنوب .
 فما نراه بعد لقائه معاوية ذاك إلا أن ملكت نفسه الثمالة ، واستبدت به رغبته
 في التشفي علاجا لعله ، فمضى يقرع رسول الإمام وهو يحرص على أن يعلأ حديثه له
 بغمزات سخريته وازدراءه :

« . . . أتيتنا بأمر ملفق لتلقينا في لهوات الأسد ؟ . . . وأطرات عليا وهو
 قاتل عثمان . . . »
 فجبهه جرير :

« . . . والله ما في يدك من ذلك إلا القذف بالغيب من مكان بعيد ! . . . »
 واحتدم بين الرجلين حوار أحسب كلا منهما كان يدافع عن قدره قبل
 دفاعه عن أهداف صاحبه . ولكنه حذل بذو الشك في نفس شرحبيل ، وذكره
 ما أضمر بين الحقد على منافسه وما أحيى من كلفه بجاء النفوذ . . . وإنه لتلعب به
 الريية فلا يدرى أين يضع تأييده حتى يسمع من ابن أخته له شعرا لو ترك معه
 وشأنه لكان حربا على معاوية ولكن عاهل الشام كان أنفذ بصيرة ،
 وأسرع إلى معالجته عن التزام جانب النصفة فإذا الصنائع تقتله ثانية ، وتتهم
 عنده عليا بدم عثمان ، وتقيم البيئات والحجج على ما ادعته : كتبها مختلفة وشهادة
 زور . . . وعندئذ يحرق ويهود عناده حتى لود لو اقتضى ابن أخته ما يجمله
 أمثلة :

« هذا بميث الشيطان ! .. والله لأسيرن صاحب هذا الشعر أو ليفوتنى .. »
ورين على بارقة الحق في ذهنه بظلمة الضلال ، وباع نفسه للباطل . . . وكتب
على الأمة الفرقة . . .

وإذ أوشك أن يرح دمشق حج ثانية إلى كعبته : قصر الأمير للغامر ،
يعاقده على ما انتهى إليه تفكيره :

« . . . أنت عامل أمير المؤمنين عثمان ، وابن عمه ، ونحن المؤمنون ،
فإن كنت رجلاً تجاهد علياً وقتلة عثمان حتى ندرك ثأرنا أو تقى أرواحنا
استعملناك علينا ، وإلا عزلناك واستعملنا غيرك بمن نريد ثم جاهدنا معه حتى
ندرك بدم عثمان أو نهلك . . . »

فهل تغير هذا سعى معاوية حتى يتردد لحظة في اعتناق ما عرضه شرحبيل ؟
إنه قد غامر وأفلحت مغامرته بعض فلاح ، ودبر وكاد يجدى عليه تدبيره ، وعندما
يمضى شرحبيل عنه إلى منازلهم ، وإلى مأوى قومه ، وإلى بطون من قبائلهم
وأشخاذ تؤلف الكثرة الغالبة من أهل الشام ، فيفتد سيسى هناك رأيه
كالمدوى ، فتطيب به أعراسهم ، وتصبح طرية دانية تنتظر آن القطاف ! . . .

ومع ذلك فلم يقطع صاحب الشام برأى في وفادة جرير حين كر عليه يستحبه
البيعة ، ويستغيثه الدخول في الجماعة . فلقد أبطأ حتى لم يعد بعد هذا مجال
لإبطاء ، ومضت به الأيام والأشهر وهو يستعمل رسول الإمام عسى أن تتفاعل
دسيسة عمرو فيتعرف خبيثة أهل إقليمه ، ويذوق طعم دختهم المغشوشة ! . . .
وإذا كان شرحبيل قد سره هونا ، وزوده من تأييده بأدسم زاد ، إلا أنه ما زال
يؤثر التريث حتى يجيئه الغد بالينية كلهم ظهيرا وتكأة . . . وإنه ليجلس الآن ،
في قلبه ثقة ، وعلى وجهه مثل صمت الجلود ، يستمع إلى جرير وهو يتلو عليه
آخر ما وصله من الإمام :

« . . . أما بعد . فإذا أذاك كتابي هذا فاحمل معاوية على الفصل ، وخذه
بالأمر الجزم . ثم خيره بين حرب مجلية ، أو سلم محظية ، فإن اختار الحرب
فانبذله ، وإن اختار السلم فخذ بيعته . . . »

فلو أن بينه وبين محدثه حجابا ساترا لحركت حروف الكتاب من قسماته ما ينبىء عن انفعاله وهو آمن أن تراه اللعاط الناقدة والعيون الرقيبة . ولكنه راض عاطفته على البقاء فى قرارة جليدية ، تنطفيء فيها جذوة قلقه واضطرابه . بل قد حبس لسانه فى حلقة لا يحركه ، حتى ليحسب مشاهده أن كل جوارحه همدت فيها حركة الحياة إلا سمعه للرهب لبقية الحديث . . .

وراح فى سكونه يعد أذنه الصاغية لوعيد جرير ، ولكنه كان إنصات المشغول بأمر بعيد . دونه فسخ من الزمن وأشواط من المسافة . . . فإلى الشمال قد مضى خاطره — إلى منازل شرحبيل — إلى حمص التى لا بد قد وصلها رأس اليمينة الآن ومضى فيها يعدى الناس بنفسه المريضة . . . وإن قلبه ليتبع داعيته الجديد هناك . وإن عينه لتتأثر خطاه أينا مضت به القدم فتتعلق منه بكتابه الذى لاريب قد تلقاه . . . لقد كان لا بد لإتمام الحطة ألا يقبع شرحبيل بمستقره ، قانعا بسخط الإمام وغضبه عليه . بل أن يسير بنقمته تلك يذرع الإقليم ، ويغرس نواتها فى أيعا رجل كانت نفسه ربة صالحة لاستنبات الفتنة . . . وما كان أيسر هذا على معاوية وقد صمّن ميل شرحبيل إليه . ثم رسم له الهج الذى أراد بكتاب منه لحق به غب مبارحته دمشق ، يقول فيه :

« . . . إن هذا الأمر الذى قد عرفته لا يتم إلا برضا العامة . فسر فى مدائن الشام ، وناد فيهم بأن عليا قتل عثمان ، وأنه يجب على المسلمين أن يطالبوا بدمه . »
ورد معاوية عن متابعة رحلة الخاطر أن صك سمعه ختام الحديث الذى كان قد ساقه جرير :

« . . . أراك قد وقفت بين الحق والباطل كأنتك تنتظر شيئا فى يدي غيرك . . . »

فرفع برهة عيننا تائمة إلى محيا الرسول ، ثم حمل لسانه على الجواب :
« أفتاك بالفيصل أول مجلس إن شاء الله . »

غير أن ذلك المجلس لم يتج له أن يكون إلا بعد أن مضى داعية الباطل وخطة عاهله ، يغير النفوس ، ويشير الثائرة ، ويؤلب الناس . ولقد يكون من حق الواقع الإقرار هنا بتلك المعارضة التى صادفها شرحبيل ، ولكنها مع ذلك معارضة

سلبية ، لم تجد لها صدى في نفوس العامة الذين تتألف منهم كثرة أهل الشام . كانت حيدة التزمته طائفة من نساك حمص ، ممن صفت قلوبهم لله وأبت الزيف فلم يصغروا للدعوة . ومع ذلك فلم يؤثر تقاعدهم شيئاً في همة الداعية المفتون ، بل راح ينفث سمومه حتى لم تبق في الشام مدينة إلا استجابت له وقد سمعته يقول :

« . . . إن علياً قتل عثمان بن عفان ، وقد غضب له قوم فقتلهم ، وهزم الجميع ، وغلب على الأرض . . . وهو واضح سيفه على عاتقه ثم خاض به غمار الموت حتى يأتىكم . . . ولا نجد أحداً أقوى على قتاله من معاوية . فجدوا ، وانهضوا . . . »

فلعل هذا النجاح قد أغراه باهتبال غيره أبلغ ، تكون له المنفعة على صاحبه والحظوة لديه عندما يستقيم أمره على غاية ما يشتهي . فما إن فرغ من رحلاته في بلدان الإقليم ، ورأى تبشيره قد أتى بشمره ، حتى راح يقلب كتاب معاوية في كفه وهو آخذ عليه ما بدا فيه من قناعة ومطلب يسير ؟ . . . أفيكفى الآن بالإمرة ؟ . . . ألا تتطلع عينه لما هو أعلى من مكانته . . . أضافت دنياه إلا عن الشام ؟ . . . وهتف الداعية لنفسه :

« هذه سقطة ١ . . . »

ثم قام من فوره يكتب إلى أميره
« . . . إنك أخطأت خطأ عظيماً حين كتبت إلى أن أبايع لك بالإمرة . . .
قد بايعت ومن قبلى لك بالخلافة ١ . . . »
وفد فعل .

وسافر البريد إلى دمشق بالكتاب والأخبار .
عندئذ آن لمجلس معاوية أن يكون ، فقد ذاق أهل الشام ، وطعم من حاوهم ما لم تطلعه قط أحلامه ! وإذا به يمد يده إلى رسول الإمام بالرد الذى طال عليه الانتظار ، ثم يقول في خيلاء :
« يا جرير ، الحق بصاحبك ١ . . . »

أين هداة الطمأنينة؟ .. أين سكينه الوفاق والوحدة؟ .. أين منهم ، جميعاً ، السلام؟ .. خياله كان وهم أفئدة خشيت الفرقة أن تمزق الأمة وتميدها ثانية قبائل محلولة كبديها الواهن في صحارى الجزيرة . حديثه كان أمنية وحلم حالم .. أما الآن فما للسيوف تؤثر العرى؟ .. إنها تهيات تنضو القرب وتمخلع الأغماد . الحراب شحذت والسهام ريشت . الرماح أنلمت الجيد في الفضاء وشدت القوام ، يكاد صقالتها يخطف البصر وسنانها يقطف الهام ! .

اليوم لا سلام ! .. حق الكوفة للمصابرة لاكت الحرب . الصمت آدها وأعيها . الركود الذى ارتضته فى الله لم يعد له فى أعضائها مسرى بعد إذ لقيت دعوتها إلى الاتحاد العنت والجحود والترفع .. ليس فيها اليوم من يستطيع رد نفسه عن لقاء عدوها العاصى بما يغرى ادعاءه ، ويقمع طمعه ، ويقمأ خياله . كل أهلها الآن غاضب ثائر ، تمردت كبرياؤه على صبره ..

وكان الإمام لا ريب أولى امرئ فيها بأن يثور كصعبه ويصبح لهم فى غضبهم طليعة . ذاق من الشام مرها . وعلقمها . طعم من تمرد أميرها الصاب . لكن طبعه جنبه الدفعة ، وأبت عليه حكمته أن على لحنقه أو يفسح السبيل لمواطن قومه فتطفى على أناته . وإنه ليكبح منها الجراح ويمسك عنانهم أن يتفلت من كفه فيلقاهم بالملائنة كلما تلاسبت نواظرهم لتلبث جرير وشدوا على سيوفهم وقربوا الحيل وصكوا الأنيا ب :

« .. وقت لرسولى وقتاً لا يقيم بعده إلا مخدوعاً أو عاصياً » . وما كان يريثهم رهبة ، إنما رغبة فى استنفاد كل معذرة قد يسوقها غريمه ، وفى إنفاذ كل حجة إليه ، ثم ينتضى بمد هذا حسامه ! .. أما الآن فقد مضى وقت الإعذار إلى غير رجعة . فشلت المصابرة ، ونبتت الحجة المؤزرة . . عاد أخيراً جرير ، وهامى الأرض توشك أن تميد به ، أمن قلق أم من خيبة ؟ .. وهذا حديثه يترنح به . . . وتلك ملاحه عليها غبرة ، أو صمة عاص أو صمة مخدوع ؟ ..

ويقبل الإمام بسمعه ، ثم يغضى بعقله عن كلمات رسوله التي جابها معه من الشمال كأنها لقنها من لسان عاملها وقومه العصاة . . يغضى عن أسلوب الوعيد ، وقصة مئات المئات من ذوى الخييل والأسنة المتمرسه بالحروب ، ونبا الخطر المنبثق من اجتماعهم على التنادى بالثأر انبثاق سيل الطوفان . . . فأما مكابرة معاوية فلا يغض عنها جناحه — مكابرتة التي حملها جرير من دمشق في كتاب ، أدبه زيف ، ومداده افتراء . . .

يقرا سطور الإفك المنقوشة أمامه وهو آسف حزين لما انحدر إليه ضمير ابن هند ووجدانه :

« . . . لعمري لو بايعك انقوم الدين بايورك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان . . . ولكن أغريت بعثمان المهاجرين وخذات عنه الأنصار فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . . . وقد أبى أهل الشام إلا قتلك حتي تدفع إليهم قتلة عثمان . فإن فذات كانت شورى بين المسلمين . . . »
فما كان أعجبها فرية لا تكاد تلزم عليا تحمل دم القتل ، وإن ألب وخذل وشرك فيه ، تنهافت وتهاوى ، على بها قاتل برىء . . .

وتتهم العقل ، لاريب ، إن أقدمنا على فخصها تحت مجهر المنطق ، أو ردنا أسنادها إلى وقائع التاريخ . . . لسكتنا نؤثر التخلي عن الجدل فيما لا يجدى فيه . ونحاول أن نلم بهذه الآونة التي أشرعت فيها الأسنة تستعد للتشابك فلا تراها إلا فترة من حرب لفظية سبقت حرب الحديد والنار . كل فريق أخذ اليوم في الإعداد ، وجذب الأنصار ، وجمع السكتائب المكتبة تقيم له أهدافه فوق دعامة من الجماجم . وما يريد بهذا أن يرمى الإمام بالظما للدم ، إنما نراه — وقد غلب على صبره — لم يجد معدى عن لقاء خصمه يبعض الأسلحة التي اختارها للصراع ؛ وكان من بينها سلاح الحاجة والمسكايدة والتبشير . . .

غير أننا لا نستطيع هنا أن نغمط معاوية حقه من التفوق في هذا الميدان . لقد كان أملك لأدواته من على ، أقدر على العمل بها قاطعة حديدية لأنه رجل لم يردده وازع عن التماس أى أسلوب في حربه الباردة ، مشروعا كان أو غير مشروع . لم يرحل في الدس ، ولا في الغدر ، ولا في الادعاء بالباطل ما وصلت به طرائقه

الملتوية إلى مطمئن قاتل في غريمه . كان همه أن يفوز وإن وطشت قدمه الملوثة
قدس الحق وقيم الأخلاق . كل حرمة مباحة ، وكل ضلالة حلال . الحق باطل
معارضه ، والزيف حق ما أيده ، فهو بما اجتمع له وزودته به خصاله وشيمه
صاحب اليد العليا في حرب القلم وحرب اللسان . .

وكانت الخطة التي اتبعها على ها هنا دفاعية ، تماماً كأختها التي التزمها من قبل
ومن بعد في القتال . فما عرف عنه قط أنه هاجم ليكون بادئاً بعدوان ، بل
« الرد » كان أسلوبه . الرد ليصير ، أو يدفع تهمة ، أو يجمع فتنة عدت على
حقه الذي هو حق الأمة التي نصبته حارساً عليها يذود عنها الدواهي الداهية
والعوادي المغيرة . . . فلا عجب أن يكون خصمه في ميدان المسكيدة « أخف
حركة » منه ، يبدأ حين يشاء ، ويختار من جنبات الحلبة ما شاء . وأن يكون
« حر الكف » يتناول السلاح الذي يوائم طباعه وليس عليه من ضميره رقيب
يزعجه عن فعال تسيل لأشباهاها بالندم ضمائر الأحرار . . .

لم يكن الرجلان إحدن في مجال هذا الصراع اللفظي على مكانة سواء . رجحت
كفة المعادي وشالت كفة المفترى عليه . تباينت الأسلحة ، فهي في يد على محدودة
وفي يد خصمه وفيرة عديدة جمعت كافة الصنوف والأنواع . تمددت مبادي
الحاجة والتبشير أمام معاوية وضائق حلقتها على الإمام — إلا ما أقره منها الدين
وارتضته المثل الإنسانية الرفيعة . بل القرائن البشرية في صورها الشائنة لمعاوية
ظهير إذ هو امرؤ أجاز لنفسه تسويد المادة على كرائم الأخلاق .

تحت هذه الأضواء التي تشعها أدوات الصراع يمكن في يسر فهم التفوق
الظاهري الذي حازه ابن هند حتى علت به يده فوق كف غريمه . وإنه لتفوق
ترفعت عنه شيم الإمام وسجايه وهو غير عاجز عن حيازة مثيله . إنما قد أباه
وهو عالم أنه بإبانه هذا مغبون . فلقد آثر ألا يعد دينه ومثله السامية سماتاً تطعم
منه أهواء اللثام فتشبع البطون وتجوع الأرواح . واقد رضى بالالحى يمثله به
الجاهل العائب ، والشانيء الثاب وإنه لعارف أن تفوق خصمه تفوق غدرة
لا تفوق قدرة ... وها هو يكشف لنا عن حقيقة الحال في الزال الذي لم تتكافأ
فيه القوى المتنافرة في الجانبين ، عندما يقول :

« والله ما معاوية بأدهى مني ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية القدر
لكنت من أدهى الناس . . . »

فالقياص هنا بين قدرتين : إرجاف بالباطل ، وتحيف على أصول المقارنة ،
ومجانبة الإنصاف . وهو كمثل صررك الماء في ثوب ، وحصررك الشماع في قبضة ا .
فأما العائب الزاري الذي أضله هواء فرفع معاوية درجة في مراتب الدهاء ،
وقرر ذكاه . ووفر له من مقومات الحنكة السياسية ما شاء ، فهم فليقدم
ليكشف لنا متى جرد الداهية من باطله ما عجز حق الإمام عن الثبات له ثم فشل
من بعد دون دهره واستذلاله . . .

جيش عاهل الشام من مكره وأخاديعه الكتاب التي تعمل له ، وفرق منها
في الليادين الإسلامية . . . في مكة والمدينة بث دعائه . وفي أرض النيل . وفي
إقليمه هو الذي كان حرباً به أن يطمئن لولائه ، بل في الكوفة أيضاً نشطت له
فرقة من العيون والجواسيس . . . وكان يعلم أن أفيل أسلحته هو ماهاجم به عليه
في إمامته ، ونال من شرعية البيعة التي غدت له في عنق الناس فلم يأله تنقصا
ونجربحاً ، ولا ونى عن معاجلته باللمزة تتبع اللمزة ، والهمزة تردف الهمزة ،
تسكاد تتفق في معانيها وإن تباينت فيها الحروف والألفاظ . . . كان يفترى ، ثم
يعاود الفرية ، ثم يكرر المعاودة ما وسمة أن يكرر عسى أن يقر افتراؤه في نفوس
صحبه يقينا ، أو يثبت الريبة في نفوس أعدائه فينحدر بهم تيار الشكوك إلى دركة
ومهواه . وإنه بهذا الرابع على أى حال ما دام مستطيما أن يخنى عن الناس
الجوانب التي لا تظاهره ويبدى كل ما عداها : ما يتنقص من سمعة الإمام . . .

ولم يكن كتابه الذي احتمله جرير أول ما نطق بكذب ، ولا آخر ما أتى
بيهتان . . . إنك لتسكاد تعد من أمثاله ما يعي الحصر ثم توشك لو شئت أن
تحتزلها جميعها في واحد يغنيك لبابه عن الكثرة الوفيرة . ولكنك لن تجده
قط انبرى بإفسكه إلا انبرى له على بحقه ، فيه دحض وحجة وإحكام . فهذه الحرب
اللفظية التي شنها لقيت أمامها الكفاء القادر على أن يحيلها سجالاً لا ترجع فيها
كفة العادى إلا بقدر ما يتهماً خصمه لرد العدوان ، ولو أن علياً صمت فلم يجب
على تلك الكتب المبطله لما نال صمته من قدره في نفس أى امرئ يتحرى

النصفة ، ولكنه كان عارفا بطباع الناس ، علما أن السكوت قد يساء فهمه عند العامة الذين تستهويهم مظاهر الأشياء فيرون الحسر في الصمت ، والكف عن الجواب توأم الحرج والاعتراف بالهزيمة . لذلك لم يفض الإمام قط عن قرية ساقها مملوكة ، ولا عن كتاب جاء الرجل أن يزخره بزيه وأباطيله ، ولعل اجتراءنا ببعض رده على ما احتمله جرير فيه غناء عن الإطباب وسوق الأمثال .

كتب عند ذاك إلى العاهل المتمرد يقول :

« . . . أنا في كتاب امرئ ليس له نظر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبه . . . »

زعمت أنه أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ، ولا ليضربهم بالعمى . وما أمرت فيلزمني خطيئة الأمر ، ولا قتلت فيجب علي القصاص . . .

وأما قولك : ادفع إلينا قتلة عثمان ، فما أنت وعثمان . . . إنما أنت رجل من بني أمية ، وبني عثمان أولى بذلك منك . . . فإن زعمت أنك أقوى على دم أبيهم منهم ، فادخل في طاعتي ثم حاكم القوم إلى أحلك وإياهم على الهبة . . .

. . . إنها بيعة عامة ، لا يثنى فيها النظر ، ولا يستأنف الخيار . . . »

وإذا كانت العرب في جملتها أمة « سامعة » قبل أن تكون قارئة ، فقد استغل الفريقان منها هذه الصفة فحرص كل فريق على أن تصل دعوته إلى السمع تصكه وتغزوه . . . لذلك تراميا — فيما ترامياه من أدوات هذه الحرب السلية — بالنظم يزجونه ، كل إلى غريمه ليبرز تحت مواطئه . فللشعر مدخل إلى النفوس قد يستغرق دون غيره من فنون البلاغة ، وله ذبوع يشق على ما سواه من صنوف الكلام . إنه صحف العرب السيارة التي تخلق الرأي العام أو تصوغه وتجبله . له مبرى على أجنحة الريح ، مع الظاعن الراجل والفارس الراحل . . . الرواة يتناقلونه ، والحدادة يترعنون به ، حتى يبلغ الحضر كبلوغه الوبر ، وحتى يقتحم السكوخ كافتحامه القصر ، والندى كالخدر . . .

ترامى الفريقان بالشعر خطير المرمى بعيد الغاية ، يستعدى الناصر ويجذب

المعين ، فإذا هذه الحقبة كالتربة الحصيبة ، أطلعت نقرا وفرا من شعراء السياسة ، يدعون بدعوة الكوفة أو الشام ، ويتألقون في إبراز القضية التي يظاهرونها بمنطق القصيد الذي يستهوى السمع وال عاطفة ، حشوه الحجة والبرهان . . . يحدثنا بمض شعر من تخيرهم معاوية لنصرة أهدافه . في مجال التعريض بعقيدة رجال الإمام :

وقالوا : على إمام لنا فقلنا : رضينا ابن هند ، رضينا
وما في على لمستعجب مقال سوى ضمه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب ، ورفع القصاص عن القاتلينا
فما يكاد شعره يصل الكوفة حتى يكون له صدى : شعر آخر يجاوبه ،
ويتردد في غياض دمشق ورياضها :

« . . أتاكم على بأهل الحجاز وأهل العراق ، فما تصنعونا ؟
يرون الطمان خلال العجاج وضرب الفوارس في النقع دينا
جعلتم عليا وأشياعه نظير ابن هند ، ألا تستحونا ؟ »
ثم لا تقتصر هذه الحرب الشعرية على أن تتناقلها الكتب أو الرواة عبر
الفوات ، بل نرى جموعها زحفت تقتحم على معاوية معقله . . . فإن هي إلا أيام حتى
كان على قد بعث إلى الشام خفاف بن عبد الله ، أحد بني طيء في زيارة لبعض
أهله هناك لعله أن يبلغ بهم أميرها ابن هند فيلقى في روعه من حديثه وشعره
ما يكسره ويكسر معه رجال إقليمه . .

ويستقبل معاوية الرجل وقد قدمه له حابس ، سيد طيء ، فيسأله حين
يعلم أنه حضر فتنة المدينة :

« . . حدثنا عن عثمان »

فيجيبه خفاف :

« حصره المكشوح ، وحكم فيه حكيم ، ووليه محمد وعمار ، وتجرد في أمره
ثلاثة نفر : عدي بن حاتم ، والأشتر النخعي ، وعمرو بن الحق ، وجد في أمره
رجالان : طلحة والزبير ، وأبرأ الناس منه على »

« ثم مه ؟ . . »

« ثم تهاقت الناس على على بالبيعة نهاقت الفراش ، حتى ضلت النمل ، ومقط الرداء ، ووطىء الشيخ . ولم يذكر عثمان ولم يذكر له . . . ثم تهاق للمسير ، وخف معه المهاجرون والأنصار . وكره القتال معه ثلاثة نفر : سعد بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة . فلم يستكره أحدا ، واستغنى بمن خف معه عمن ثقل . . . حتى إذا كان في بعض الطريق أتاه مسير طلعة والزبير وعائشة إلى البصرة ، فسرح رجلا إلى السكوفة فأجابوا دعوته ، فصار إلى البصرة فهي في كفه ثم قدم إلى السكوفة فحمل إليه الصبي ، ودبت إليه العجوز ، وخرجت إليه العروس فرحابه وشرقاً إليه . فتركته وليس همه إلا الشام . . . »

وما يعني أن نتناول هنا القصة التي رواها خفاف بالتحريض والنقائس ، فقد فرغنا قبل من حديث الفتنة وأنضنا فيه . ولكننا على أية حال ، أبرأت عليا من الدم أمام من لفق اتهامه ، وبلسان امرئ كان لا يسخط عثمان . وإن معاوية ليتدبر ما في رواية الزائر فلا يقع منها إلا على ما يرد كيده ، ويهدم دعواه ، ويكاد يكسر عنه أعوانه لو خلى بينهم وبين السماع . . . وإنه ليخشى الخشية كلها على كفاحه ، حتى ليوشك أن يطوى مجلسه عن سيد طي وصاحبه مذعورا مضمض النفس من خشيته ، لولا أن يصطنع قلة اللبالة وهو ينصت لبقية الحديث . . .

ويقول حابس :

« . . . ولقد أسمعني ، أيها الأمير ، شعرا غير به حالي في عثمان ، وعظم به

عليا عندي . . . »

فهبط قلب عاهل الشام . ولكنه يتجعد جهده ، وينظر إلى خفاف :

« أسمعني . . . »

فإذا الرجل قد بهته بقريضه ، وأتاه من ألفاظه البينة بمثل صوت الحمام

الأسنة ، وقعمة السيوف والصوارم ، ما أوشك أن يصم سمعه . . .

ويعض خفاف في قصيده :

« . . . اهرب اليوم إن أذاك على صيحة مثل صيحة الأحقاف !

إنه الليث عاديا ، وشجاع مطرق نافث بسم زعاف

فارس الخيل كل يوم نزال ونزال الفقى من الأنصاف
واضع السيف فوق عاتقه الأيى ن يذرى به شؤون القحاف
سوم الخيال ، ثم قال اقوم تابوه إلى الطعان خفاف :
استعدوا لحرب طاغية الشا م ا .. فلبوه »

فما عاد المنحرد يستطيع أن يستمسك ا لقد عصف به قلقه ، وذعره ،
وانزعاجه . . . إن الجدران حوله لثمة ، تترنح وتميل . والأرض تحته ميادة .
وقلبه يضطرب بين جنبيه كانتفاضة الطائر الذبيح . . . لكأنما القتال استعر .
لكأنما الخيل حصرتة . لكأنما السلاح اعتوره وهو لقي على الثرى ، موظئا
للحوافر ، تنفث جراحه بقية حياته قطرات حمراء . . .

ونفض معاوية الرؤيا المفضمة عن ذهنه المحموم . ورفع وجهها باهتا إلى
سيد طيء ، ثم مال عليه يسر بقدر ما وسع نفسه اللاهث :
« يا حابس . إني لا أظن هذا إلا عينا لعلى . . . أخرجه — أخرجه عنك
لا يفسد أهل الشام . . . »

ع

أحدث خفاف ، أم بعض الخطط المرسومة هو ما أوحى إلى معاوية بتوجيه
دسه إلى الحجاز ؟ . ابن العاص — على أية حال — لم يشر عليه ، ولم يكن
من تدبيرة أن يبعث صاحبه كتبه ورسله لى الجنوب . وإنها لسقطة منه ما كان
يحسن أن تغيب عن دهائه . فبث القتاد فى طريق الإمام أولى بمثله ، وأقن حين
الصراع أن يعلو بصاحبه على غريمه .

لكنه ، لأمر لعله أسره ، ود لو رد معاوية عما عقد رأيه عليه ، وعندما
سمعه يقول :

« إني قد رأيت أن نلقى إلى أهل مكة وأهل المدينة كتابا نذكر لهم فيه أمر
عثمان ، فإما أن ندرك حاجتنا ، وإما أن يكف القوم عنا . . . »
أبى ، وحاجه :

« إنما تكتب إلى ثلاثة نفر : راض بعلى فلا يزيدك ذلك إلا بصيرة، أو رجل يهوى عثمان فلن تزيدك على ما هو عليه ، أو معتزل فلست بأوثق في نفسه من على . . . »

غير أن معاوية لم يمل به هذا الاعتراض شعرة عن عزمه ، بل عساه ارتأى في بعض أهل الحجاز تربة قد تثمر فيها بذوره ، لعل هوى في نفوسهم أن يجنح بهم إليه فيكونوا له النصير . . .

وتخير الرجل من فوره ألمع أسماء هناك يجاور أصحابها مقام محمد وبيت الله ، فما وجد خيرا من أولئك نفر الدين اعتزلوا الأمر ، ونأوا بجانبهم عن مظاهرة على وعن ثلبه على السواء ، ففي نفوسهم بقية من شك قد يزعزعها نفسه .

كتب إلى سعد بن أبي وقاص :

« . . . إن أحق الناس بنصر عثمان أهل الشورى من قريش ، الذين أثبتوا حقه واختاروه على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير — وهما شريكاك في الأمر ، ونظيراك في الإسلام — وخفت لذلك أم المؤمنين . فلا تكرهن ما رضوا . ولا تردن ما قبلوا ؛ فإننا نردها شورى بين المسلمين . . . »

وكتب إلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مسلمة .

فأما أولهما فليمنيه الإمرة ، وليسلس له من إغرائه ما عساه أن يستهوى به لبه ويحرك خياله الذي رانت عليه تقواه :

« . . . لم يكن أحد من قريش أحب إلى أن تجتمع عليه الأمة بعد قتل عثمان منك . . . إني لست أريد الإمارة عليك ، ولكني أريدها لك » .

وأما الثاني فليمنه إذ خذل قومه الأنصار عثمان ، وبات هو مثلهم خاذلا له بعد موته ، يدع واثبه ولا يرفع في وجوههم سيفه ولا ملامته ، وإنما أثر السلامة في الاعتزال .

وتلفت جيرة الحرمين تلك الحقبة الحازبة من عمر الإسلام على هوى تنطق به السطور قد حملته إليهم كتب عاهل الشام . لكن زيف الداهية لم ينلهم ، ولم تقتلهم عن الحجة أباطيله . كلهم أبى أن يكون منته إلى أطماعه التي لم تعد تخفى عن البصائر وإن سربلها دونهم بألف ادعاء . . . حتى العامة في البلدتين الحرام أجمعوا الرأي على رد دعواه ، فنضج كتابهم إليه بفشل حيلته .

بعث إليه ابن عمر :

« . . . ما أنا كملى فى الإيمان ، والهجرة ، ومكانه من رسول الله ، ونسكاته

فى المشركين . . . فأغن عنا نفسك . . . »

ورد ابن مسلة :

« . . . لعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، فإن تنصر عثمان

ميتا فقد خذله حيا . . . »

وأجاب سعد بن أبى وقاص :

« . . . إن عمر لم يدخل فى الشورى إلا من يحل له الخلافة من قریش ،

فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه . . . غير أن عليا قد كان

فيه ما فىنا ولم يك فىنا ما فيه . . . فأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما كان خيرا

لهما . والله يغفر لأم المؤمنين ما أنت . . . »

وكان رد المسور بن مخرمة بلسان أهل المدينة :

« . . . أخطأت مواقع النصرة وتناولتها من مكان بعيد . . . ما أنت

والخلافة يامعاوية ؟ . . . أنت طليق ، وأبوك من الأحزاب ! فكف عنا ،

فليس لك قبلنا ولى ولا نصير . . . »

وعندما حمل إليه البريد رجع الدسيمة التى ودلو أفرخت له فى الحجاز ،

ثمت عمرو وقال :

« كيف رأيت يامعاوية رأى ورأيتك ؟ . . . »

فأجابه وهو مكبود :

« رجوت ما خفت . . . »

لكنه ، مع هذا ، لم ينم للقنوط ، فما زال اليدان وسيما لدسه وادعائه . وإذا

كان تأليه على لم يجد صدق فى نفوس فئة كهؤلاء يتعرجون أن تلعب بهم

أساليبه ، فإن كثرة غيرهم حرية أن تنحرف إليه لأنها طرية فى يدى زينة يستطيع

أن يصبها فى قلبه : أولئك هم طوائف الأعراب من القبائل المنبثة فى صحارى الجزيرة

وفى نجادها ، الذين زودتهم حياة البداوة والفطرة بسذاجة لا يفطنون معها إلى

ما يسوقه من أخاديع . وهل دعوته بينهم إلا صورة من صور النخوة التي تهز فيهم المشاعر ؟ . .

بات البدو إذن في الجزيرة مرتاح تجاريه ، يبتهم باطله في ثوب من النجدة براق ، ويحضهم أن يؤازروه على الانتصار للخليفة القاتل من واريه فلا يحرك في قلوبهم إلا إيمانها بالروءة وولائها القديم بالثأر لمظلوم ، ولم يكن ثمة حقل أخصب لدعوته من الموسم ، عند المسجد الحرام ، حينما يتوافد الحجاج . فهناك البدو الذين يقبلون محرمين من النجاد والقلوات . وهناك التجار تجتمعهم الأسواق . وهناك أيضا وفود الأقاليم والأمصار ينتشر بينهم نعمة ويحملون منه بقية معهم حين العودة . هؤلاء رسله ، وإن جهلوا ، إلى أقوامهم ، ودعائه في بلادهم الدانية والبعيدة الذين يتطايرون من أحاديثهم شرر النار !

ولم تغب عن على هذه الدعوة السرية التي شنها غريمه بين الجميع ، يوقع بها في نفوسهم ما يريد ، ويخذل جموعهم عن صاحب الحق في ولاية الناس ، ويشير فيهم التمرد عليه ، فأرسل إلى ابن عمه : قثم بن عباس ، عامله على مكة ، يبصره : « ... إن عيني بالمغرب كتب إلى يعلني أنه وجه إلى الموسم أناس من أهل الشام الذين يلتبسون الحق بالباطل ، ويطيعون المخلوق في معصية الخالق . . »

لقد كان الصراع السلمي عنيقا بين الرجلين إلى غاية عنفه ، لم تحمد ناره طوال هذه الحقبة التي انطلقت فيها يتصاولان بالقلم واللسان . وإنه ليكشف لنا عن نواحي لم يكن فيها معاوية منفردا وحده في مجال الصيال ، بل لعله كان مسبوقا حين نستشف من خلال كلمة الإمام لابن عمه كيف تأهب على الملاقاة خصمه في ميدانه ، وشعذه له من أساليبه ما يقل من سلاحه ؛ حق لقد بث العيون في قلب إقليمه تأتبه بنواياه من قبل أن تذيع في الناس .

ونباعد الحق لوحسبنا معاوية لم تكن له بالسكوفة رصدة تنقل له ، وتعمل لغاياته : فأدنى الدهاء ، أن يفعل ويستشف ما وسعه خطوات خصمه . وإن عليا ليوشك أن يكتب الناس ويمضي بهم جموعا ليجتاح الشام فتتجلب له السجف عن حقيقة بعض من ظنهم الناس أعوانه . . . ينادى القوم داعيا إلى الفصل :

« . . . سيروا إلى أعداء الله . . . سيروا إلى أعداء السنن والقرآن . . »

سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار . . . »
فصنذذ ، حين لم يمد من الحرب مناص ، نرى امرأ مدموسا عليه قد نهض
بجاده جهرة لعله أن يرمى بالوقعة بينه وبين أنصاره :
« أتريد أن تسيرنا إلى إخواننا من أهل الشام فنقتلهم لك كما سرت بنا
إلى إخواننا من أهل البصرة فقتلناهم ؟ كلا . ها الله إذن لا نفعل . . . »
فلعلها كادت تستشري فتنة لولا أن عاجل الأشر الأمر فصاح :
« من لهذا أيها الناس ؟ . . »

فإذا الصيحة تثير الجموع ، فتلاحق الرجل في فراره أمام غضبتها ، ثم تتعاوره
بالأكف ، ونصال السيوف ، والأرجل ، حق يقضى ويموت دمه في لماته . . .
ويقبل الأشر محاولا أن يطيح بما عساه قد علق من أثر بنفسه على نتيجة
لدعوة الجاسوس :

« . . . يا أمير المؤمنين ، لا يهدنك ما رأيك ، ولا يؤيسنك من نصرنا
ما سمعت من مقالة هذا الشقي الخائن — »
ولكن أمير المؤمنين لا ينسيه التمايف رجاله عليه دم الخائن القليل ،
فيستقصي مصرعه :

« . . من قتله ؟ »

« قتله همدان ، وفيهم شوبة من الناس »

فيأمر في الحال بتوديته :

« قتيل عمية لا يدري من قتله ديته من بيت مال المسلمين »

هذه الصورة من التجسس والدس لها أشباه ، في الكوفة ، وفي طريق
جيش الإمام طوال سيره إلى مرابطه في صفين للاقاة معاوية بعد فشل دعوة
الوفاق في كل خطوة قدم كانت الأرض تطلع عليه عينا يرصد حركته وبسكاد
بعد أنفاسه ، أو مناقبا يبدى له النصرة وهو يكم الخداع والعداوة . . . دخل
عليه ، ساعة تهيئه للرحيل بجنوده رجال من غطفان واعم ما كادوا يلحون
عزمه ، حتى انبرى له منهم حنظلة بن الربيع :

« يا أمير المؤمنين . إنا قد مشينا إليك بنصيعة فاقبلها منا . . . أمم ، وكاتب

هذا الرجل ، ولا تعجل إلى قتال أهل الشام ، فإنى والله ما أدرى ولا تدرى لمن تكون إذا التقيتم الغلبة . وعلى من تكون الدبرة . . . »

وكأنما كانت الفرقة كلها على اتفاق ، ولقنت ما تقول ، وجاءت شوطها لتبته وتدعو إليه . . . فما لبث أن نهض منهم ابن المعتم يردد مثل ما قال صاحبه . ثم قام بعده غيره ، ثم غيره وغيره كثيرون ما مأرب لهم إلا تأخير السير ، كأن قد أرادوا بهذا الإرجاء إيقاع الوهن في صفوف جيش على ، أو أفساح فسحة من الزمن لذلك القابع هناك في الشمال . . .

وأصغى الإمام لحديث التردد الذى أتوه به في أحرف نصيحة ، ثم قام فيهم وفي الناس ، يتحدثهم بمنطق إيمانه :

« . . . إن الله وارث العباد والبلاد . . . يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء . . . أما الدبرة فإنها على الضالين العاصين ، ظفروا أو ظفر بهم . وأيم الله إنى لأسمع كلام قوم ما أراهم يريدون أن يعرفوا معروفا ، ولا ينكروا منكرا . »

فهتف به أحد رجاله : معقل بن قيس :

« إن هؤلاء والله ما أتوك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلا بغش . فاحذرهم فإنهم أدنى العدو . »

وصاح صاحب شرطته ، مالك بن حبيب :

« يا مير المؤمنين إنه بلغنى أن حنظلة هذا يكتب معاوية »

وقال عياش بن ربيعة :

« . . . إن صاحبنا عبد الله بن المعتم قد بلغنا أنه يكتب معاوية ، فاحبسه

أو أمكننا منه نحبسه حتى تنقضى غزاتك . . . »

ولئن كان الإمام قد رأى الترفق بدعاة التردد المدسوسين فما كان هذا عن إحسان ظن بهم أو شك منه في ترددهم عنه . ولكنه رفق القادر الكريم . وهل غيره مثل هذا التقاعد من فرقة لم تكن يوما له ، وهو يعلم أن قومهم لا بد ينكرون تقاعدهم ؟ بل لعله أراد أن يرثيهم عسى أن يأسرهم حمله ، فلا يكونوا عليه إن لم يصبهوا له . . . على أية حال ، لقد غدوا بقومهم سبة قبلهم عنده ، ومرة يتنصل من وصمتها الكبير والصغير من ذويهم حتى ضاقت عليهم الكوفة

فبیتوا أمرهم بليل ، وخرجوا منها هاربين من العذل والمساءة ينتجعون ارض
الدميسة في جوار جند الشيطان . . .

ولئن كانت هذه الفئة المنحرفة قد وجدت أمنا في الخروج ، فإنها لم تجد لها
في زيغ معاوية غاية مرضية يمكن أن تحمل في سبيلها السلاح . إنما قدمت
بمستقرها الجديد عن مؤازرة الأمير المتمرد ، وركنت إلى اعتزاله . ولم يسمع
عنها إلا كلمة الحنظلة ، ما تراها ندت من بين شفثيه إلا حين مقامه بالكوفة
فأخذت عليه فيما أخذت من وسائل اتصاله مع الشام وإن قيل نطقها من بعد قراره
— لم نسمع إلا أبياتا يحرض بها ابن هند على خلاصة الناس هي الفاظ لم تجاوز
القول ، ولم يخرج منها إلى حيز التأيد العملي ولا بتحريك سيفه المغمود . . .
يقول ذلك المحرض القار :

« أبلغ معاوية بن حرب خطة واسكل سائلة تسيل قرار

لا تقبلت دنية تعطونها في الأمر حتى تقتل الأنصار . . . »

فر إذن حنظلة ، وفر ابن المعتم وقلة من رجالهما معها إلى الشام . فلم يخسر
الإمام شيئا بهذا الفرار . ولم يكسب معاوية شيئا بالانضمام ، فلو كانوا خونة فقد
حسبت عليا طهر من الخيانة ضفوفه ، ولو كانوا مرتابين فهم كذلك منذ بدئهم .
قد اعتزلوه من قبل ، ولم يلحقوا به حين دعاهم إليه إبان محبة عائشة وصاحبها
في البصرة ، بل آثروا القعود . وإنهم لأشبه عندي بمنافق المدينة ، أو بضعاف
الإيمان في فجر الإسلام الذين أبرم رسول الله عهد الحديبية فلم يحملهم بنصوصه
على المسك بين أنصاره إذ لم يحمل قريشا على ردهم إليه بعد أن ارتدوا وخلفوه .
أولئك كهؤلاء — سوسة فساد تنخر في كيان جمع وفي سليم فما تنجح قضية
نصيرها مرتاب . وما أجدى فرار فريق حنظلة وابن المعتم على معاوية مثل خردة
— إلا أن تكون الجدوى أن لحقوا به ثم اعتزلوه فكان أولى أن تشيع الريبة
في أهدافه بالاعتزال . . .

غير أن ابن هند كان يكفيه أن يأتيه أمثالهم : مخدعين أو مرتابين . . .
فلن يطلع قومه من صور اللعاق به إلا على ما يرضيهم ويرضيه : إنما أشباه حنظلة
أصحاب هجرة أنكروا منكرًا من الإمام . . . إنما قد عرفوا موطن الحق ففجوا

إليه ليلتزموه . . . إنعاهم ، وغيرهم : نقرأ آخر من أصحاب الأسماء الضخمة
الرنانة ، سيكونون كتابه الذى يتقدم به فى عينه لأهل إقليمه — كتابه الذى
سيضم منهم مادة جوفاء فارغة يسرها لنفسه ! فلن يكشف قط عن صفحاته
للعيون . . . سيكتم عن الناس باطنه ، سيطوى أسطره ويبدى ظاهره . أفما يأمن
إذن غدرة زمانه وهؤلاء أنصاره ومريديه رجال عدموا الرؤية ، وجلاء
البصيرة ، وعمق التفكير ، كل همهم غلاف أنيق . . .

٥

هذا كتابه يتقدم به . . . له هيئة ، وفيه فتنة ظاهرة تدعو إليه العيون
المسحورة . ذو منظر ولون ، قد لى غلافه وتزخرف شغافه ! . . . إنعاه يعنيه أن
يجذب الناس إلى راية ذات زبرق وإن رخص فيها النسيج . فالقوم عنده كمثل
الثور الذى تجذبه الحرة . . .

الرجل حقا قد سبر طبيعة الجماهير ، وخبر مغاور العاطفة التى تنطلق بهم إلى
الأقصى البعيدة دون حاجز يقف بها من التعقل أو التدبر . ومتى كان العقل
يحكم الثورة ؟ . . . ومتى كان الثور يلقي بعينه إلى السيف الحى وراء القماش
الجرأ ؟ . . . لو قد عرف أن قومه مناقشوه حين يتبدى لهم كتابه لفكر عشرا
ولم يتقدم . لو قد عرفهم مستنبئية ما تضمنه الصفائف لبات لياليه وهو مكروب
وقطع حياته وهو مغلوب . ولكنه عرفهم « لا يقولون إذا قال ولا يسألون إذا
أمر » . إنهم رجال تسليم . عطلوا الفكر إلا فكره . ومضوا خلفه إلى حيث
شاء كأنما يقودهم بلجم . . . وهو قد ألهم فيهم الحمية فحق أن يزودها بين اليوم
واليوم بالوقود . وكان الوقود إفسه وأكاذيبه وزخارف الخداع والتبويه . . .

والآن إذ فاته أن يخلب إليه بقية أهل الشورى ، وجيرة الحرم ، ومنتجى
الأمان الروحى عند قبر الرسول ، لفق الصور فتانة ، تسحر الأنفس التى تستلها
المظاهر . . . الآن لكتاباه أغلقه ، أكثر من غلاف ، براقة أنيقة . . . الآن
له أكثر من عنوان ، كل منها يعلل النعم بحروفه الضخمة الرنانة ! . . . يستطيع

أن يطلع على قومه بين اللحظة وتاليها بسفر كأنه جديد ما هو بجديد ، أصله واحد وأغلفته عديدة ، يلبسه منها ما يروقه ، اليوم هذا والغد ذاك ، كأنه غنية في أسواق المتعة يتشكل حسنها في عيون عشاقها بتغير الشفوف . . .
وقال ذات يوم لعمر بن العاص :

« إن الله قد أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدم عبيد الله بن عمر ، وقد رأيت أن أقيم خطيبا فيشهد على علي بقتل عثمان وينال منه . . . »
فهذا إذن عنوانه الجديد . . . أعياء عبيد الله فالتمس عبيد الله . . . وهل من فارق في نظر صحابه بين الأخوين وكلاهما من صلب الفاروق العادل الذي جرت الألسن بطيب ذكراه . . . ؟
وجيء بالفتى إليه يصغى لنحريضة :

« إن لك اسم أبيك . فانظر بعلم عنيك ، وتسكلم بكل فيك فأنت المؤمن المصدق . . . فاصعد المنبر واشتم عليا ، واشهد عليه أنه قتل عثمان . »
قال عبيد الله وهو بين تردد واقتناع :
« . . . أما شتمه فإنه علي بن أبي طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، فما عسى أن أقول في حسبه . . . ؟ وأما بأسه فهو الشجاع المطرق . . . وأما أيامه فما قد عرفت . . . واسكني ملزمه دم عثمان . »
فهتف عمرو :

« إذن والله قد نكأت القرحة ! »

وعندما برح الفتى . وخلا السكان بعده للعاهل المخادع يجتر ذكرياته وآماله ، لم يطق معاوية كتمان رأيه الصريح في ابن عمر — في تفاهة عنوانه الجديد الذي سيخلب الناس . . .

قال لابن العاص :

« أما والله لولا قتله الهرمزان . ومخافته عليا على نفسه ما أتنانا أبدا . . . ألم تر إلى تقرظه عليا ؟ . . . »
فطمأنه عمرو :

« يا معاوية ، إن لم تغلب فاخلب . . . »

وكان هذا في الواقع شعاره . فما يهمه إلا الوجه الذي سيتبدى للقوم فأما اللب فسيخفيه . إنه ليستنصر بابن عمر ، ويستعديه ، ويتلمس عنده الشهادة على حلي وإنها لمكذوبة أو تبطن بالهوى والغرض ، ولكنه يرتضيها إذ هي الرقعة الحمراء التي تجتذب نظرات ثبرانه وإنه ليتلف عليها ، ويظل حالما باليوم القابل القريب الذي يتسنى فيه شاهده ذروة المنبر ليزور كلامه وينشر اتهامه حسبه أن « له اسم أبيه » . حسبه أن الآذان ستلقف حديثه والأذهان ستؤمن بما فيه . وهل يجرى بخاطر المفتونين أن يعين عبيد الله وإنه لمن عمر صاحب السيرة التي تؤرخ للحق والعدالة ؟

لقد كان معاوية على بيته من دخيلة الفتي يوشك أن يدفعه إلى الطريق التي رسمها له فلا يراه يحزن أو ينكص عن التزامها أو يجحد . عرفه كارها للإمام ، يجزع حين تلوح صورته له في خياله فيلمح منها قسما صلبة لاتلين ، ونظرة عين تحترم المجرم ، وشد سيف يتهيا لإتقاذ شرعة القصاص وكان عبيد الله هو المجرم الذي قهرت العدالة ذات يوم على إفلاته إبان عهد عثمان إذ هو امرؤ — في عهد ذلك الخليفة القليل — ليس كالناس ، يحل دونهم عن العقوبة وكان على حينذاك يراه قد تلوثت كفه بإثمه فلا عفو له على معصية أو تصبح الشريعة سلاحاً في يد الحاكم له حدان ينال بحديدها المستضعفين والعامة ويربت هازلا يمثلومهما على ظهور الخاصة من ذوى الأحساب

إن قصة ابن عمر هي صورة محنة من تلك التي تذلل العدالة في كل عصر تعرض فيه الضمائر وتهاوى قوائم الشعور بالمسئولية . قصة الهوى يحرك القانون . قصة طبقة تخصها الدولة بغنائمها وإن أساءت وطبقة غيرها ليس لها في وقاضها سوى اللغارم قصة خيانة الناس لله

أجل قد خانوا ربهم ، أحسبهم ، يوم أطلقوا الفتى حرا ولما يحف من كفه دم الهرمزان فبأي حجة أطلقوه ؟ وما هي المماذير التي تلمسوها له لإبرائه وقد عجز هو عن تلمس المماذير ؟ وكيف يستطيع القانون ، بعد حكمهم ذاك ، أن يسير في الناس إلا شائها مهبطا منضيا من معرة واستحياء ؟

كان ذلك يوم أن طعن ابن الخطاب بيد أبي لؤلؤة فيروز غلاما للغيرة وأخذت (٦ — الإمام)

روحه تنزف رويدا رويدا من جراحاته . . . وعلم عبيد الله بمصاب أبيه فانتضى سيفه ، ومضى فقتل الهرمزان وإنه لمسلم تشهد عند ذاك ودماؤه تسيل ، وقتل ابنة أبي لؤلؤة : فتاة صغيرة بلا جريرة ولا حول ، وقتل جفينة : رجلا من نصارى الحيرة كان يعلم الصبيان في المدينة — فلولا أن تسكأثر عليه الصحابة ، وسارع بن أبي وقاص فأخذ بناصيته ، وخطف منه سيفه ، ومضى به فخبسه في داره لكان انطلق إبان غضبه المجنون فقتل كثيرا من السبي وفئة من الأنصار وللهاجرين صور وهم له أنهم شركوا في دم أبيه . . .

وعلم عمر في وجعه بعدوة فتاه على الهرمزان فسأل الناس :

« ولم قتله ؟ . . »

قيل له :

« قال : قتل أبي »

فهز الخليفة الطعين رأسه مفكراً وهو حائر مرتاب ثم قال :

« ما أدري ما هذا . . . انظروا إذا أنا مت فاسألوا عبيد الله البينة على

الهرمزان هو قتلى ، فإن أقام البينة قدمه بدمي ، وإن لم يقم فأقيدوا عبيد الله من الهرمزان . . . »

ولم تكن إقامة البينة هينة لأنه لم تكن عمة بينة على الإطلاق ! . . . فما أشهر الهرمزان خنجرا في وجه ابن الخطاب ، ولا رآه أحد عند الطعنة يؤازر المجوسى القتلى ، وما عرف عنه أنه أكن للطعين موجدة . كل الذى حرك غضبة الفتى عليه رواية راو ترسم الهرمزان ذات يوم قبل الطعنة وقد أقبل ينجى أبا لؤلؤة فلما افترقا سقط بينهما نفس الخنجر الذى أصاب عمر بعد أيام . . .

وقال عثمان — وما كان بعد قد ولى الأمر — يعنف بعبيد الله :

« قاتلك الله ! . . قتلت رجلا يصلى ، وصبية صغيرة ، وآخر من ذمة

رسول الله . ما فى الحق تركك »

وساءله فى استنكار :

« وما ذنب بنت أبي لؤلؤة حين قتلها ؟ . . »

واشتد سعد على الجاني ، واشتد معه من صحابة محمد كثيرون رأوا أن ينفذوا

فيه عقوبة جرمه وفق ما تحتم الشريعة وإجازة لوصية أبيه . فلما قضى عمر ، وخلفه على الأمة عثمان تبدلت الحال بحال . . .

أقبل ابن العاص على الخليفة الجديد — حين رأى أن ينظر في الاقتصاص من عبيد الله — يزلزل فيه رأيه الحازم الذي جهر به منذ أيام :

« يا أمير المؤمنين ، إن الله تمد أعفائك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . . . »

فهل وقوع الحدث في غير عهده يبت العقوبة ؟ . . .

لقد بدا كأنما الرقة أخذت عثمان حتى استعفى أن يتناول بالقتصاص عبيد الله بعد مصرع أبيه : وبدا أن العامة وقد فقدت خليفتها الحبيب المرحوب جمعت بها الماطفة إلى العطف على ولده فألهاها عطفها عن وجوب التزام شرعة الله فيه كاللزامها في سواه . . . تهاست حينذاك طائفة :

« أبعد الله الهرمزان وجفيه . . . يريدون يتبعون عبيد الله أباه . . . »

وقال بضعة من المهاجرين :

« قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ! »

ومال عثمان إلى الرقة الأصلية فيه فأغفل تناول القضية بالحزم الواجب ، والعدالة المفروضة التي يستوى أمامها الكبير والصغير . . .

وكثر اللفظ ، وزاد تحدث الناس عن هذا التهاون في إنفاذ القانون في مجرم وفي ممالأته على غير ما تنص أية شريعة : سماوية أو موضوعة ، حتى لامه الكثير :

« ألا تنصى وصية عمر في عبيد الله ؟ . . . »

فلم ير مناصا من حسم الأمر بالقطع ، فجلس بجانب المسجد في الناس ، ودعا المهاجرين والأنصار ، وأمر بالفتى فأحضر بين يديه . . . ثم استشار :

« أشيروا علي في هذا الذي فتق في الدين ما فتق »

فأجمعت كلمة الأكابر من أصحاب رسول الله وذوى الرأي على أخذه بظلمه ..

وقال على بن أبي طالب :

« أرى أن تقتله . . . »

وعاود ابن النابغة ما أسلف من حديث الإغفاء . . .

وتحدث العامة والأوشاب — كثرة وفيرة — بما لا يحسنون غيره من منطق العاطفة . . .

وعندئذ اعتلى الخليفة المنبر يخاطب الحاضرين :

« أيها الناس . . . فقد كان من قضاء الله أن عبيد الله بن عمر أصاب الهرمزان وكان الهرمزان من المسلمين ، ولا وارث له إلا المسلمون عامة ، وأنا إمامكم ، وقد عفوت أفعفون ؟ »

فتهانف من حوله جمهور العامة :

« نعم . . . نعم .. »

وثار على وقد رأى حق الله يستلبه من ليس له حق فيه ، ومن إذا وكلت إلى عواطفهم الحدود لا تقطع النظام وجبت الحدود التي تحفظ على المجتمع حياته سليمة وأوضاعه مستقيمة :

« أقد الفاسق فإنه آنى عظيما ، قتل مسلما بلا ذنب . . . »

قال عثمان في عناد :

« ألا إني ولي دم الهرمزان ، وقد وهبته لله ولعمر ، وتركته لدم عمر »

فغضب المقداد بن عمر ، الصابي الجليل ، ورمى بصيحته في وجه عثمان :

« إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله . . . »

وحينما استشمر على من الخليفة التخاذل ، والجنوح مع الرقة إلى تفويض

قوائم العدالة ، ولي الشريعة للأهواء ، وتمطيل الحدود ، قال يتوعد عبد الله :

« يا فاسق ، لئن ظفرت بك يوما لأقتلنك بالهرمزان ! »

وأمام هذه الثورة للحق الواضح من أعرف الناس به ، وأشدهم حرصا عليه

لم ير عثمان غير أن يظهر التزول عن عناده ، فقال لهم في ترفق ولين :

« فننظر وتنظرون . . . »

لكنه لم ينظر ولم يدع لأصحاب الرأي معاودة النظر في القضية حسبما خط

ناموس الله . فقد كان — كما بدا من بعد — أبرم قراره وبیت إصراره . فإذا

هو يخرج عبيد الله من المدينة نائبا به عن المستمسكين باتهامه وتفسيره ، وينزله

داراً بالكوفة لا يطوله فيها حديث القصاص .

وتلك قصة عنوان . . .

بنى وعلى في بناء أحلامه التي عقدها واثقا على عبيد الله . . . جلا المنبر للأعين
جلو العروس . . . حشد له الزمر والجموع حوله كأنه وثق في ليلة عيده . . .
وسبق بذهنه الزمن . طفر خفيفا إلى لحظة نصره المرقوب الذي لن يلبث
ذكره أن يشيع في المجمع ، ويزحم المحافل ، ويمسأ الأفواه . . . هي ساعة
ويظفر — كليات يسوقها الفتي الخطيب . . .
وفي إبان ابتهاجه ، والأعناق تتطاول إلى المنبر ، والعيون على عبيد الله ،
والآذان تعلق بشفتيه ، ونأى معاوية عن قبلة السمع والبصر ومال بهمس
لشيطانه :

« ما منع عبد الله أن يكون كعبيد الله ؟ . . »

فابتسم عمرو له وقال :

« شبهت غير شبیه . . »

أقذ سخر ؟ أم تخابث ؟ أم كان رده عفو الخاطر ؟ . . معاوية على أية حال
لم يبق باله إلى الجواب ، ولم يأبه له ، النشوة شغلته عنه . . . وخطيبه بدأ ،
والقوم أصغوا إليه . والمجد الجامع الذي ملأته الزمر المحشودة لاح من سكون
الحركة في جنباته كمقبرة . . . كأنهم أموات ! كأنهم صفوف لحود . . . أليسوا
جميعهم صرعى فتنة ؟ . .

ما تركت هيئة ابن عمر لهم سوى أنفاس ، ولم يجذب شيء انتباههم عنه .
الأعين إليه شاخصة ، الأسماع محدودة والقلوب مصغية . . . في الصدور رهبة ،
وعلى الأوجه خشوع .

طوال مديد القامة ، فارع كالنخلة . . عريض مبسوط البنية بين منكيه ،
كأنه مارديس عليهم المكان . . . لولا هنة في ثوبه ، وهنة في جوارحه ، وهنة
في ملاحه لكان ذات العملاق الذي كان ذات يوم أبوه . . . عليه مسحة من
هيبة ، وفي صوته جاذبة ، ونظراته لها شعاع نافذ جسور يقتحم الأنفس على
أصحابها بلا تخاذل . . . أدرة تلك في يساره أم هو الوهم خدعهم عن حواسهم
اتكمل لهم صورة ابن الخطاب ؟ . .

وارتاح معاوية لهذا التوفيق ، فقد سحر بصاحبه القوم . هم بين عارف بمعم
يتوسمه الآن من خلال ذكرياته ، وسامع بصفته يتوهمه بأعين خيالاته ، كلهم
أحسوا الرهبة من خطيبهم وأثمنوه عنها الإجلال . . . الجو حولهم تغير ، ليس
هو الذى اعتادوه ، فما هذه دمشق المألوفة . . . والزمن أيضا تغير ، ليس حاضرم
المعروف ، فما هو بامتداد يومهم حين يعموا الجامع الكبير . . . إن أنفاسا رقيقة
من الماضى تهب عليهم ندية ، وقوة أسرة من ذكرياته المجيدة تلف خواطرهم ،
ثم تثب بهم إلى الوراء ، عبر السنين والمسافات .

هاهى المدينة تلوح ، نقطة نضرة ، كقارب أخضر فى محيط الرمال . . .
تلك آطام يهود على تخومها تحف بها خربة خواء . . . هنا روضة البقيع : عالم
الموت فالخلود ، ومجاز الإيمان إلى الآخرة دنيا السلام . . . هذه بقايا خندق
سلمان ، والصور ، ومدخل البلدة الآمنة . والبساتين والزروع ومغارس النخيل ،
والدروب التى طالما وطئتها قدما محمدا وأخفاف القسواء . . .

ثم الرحبة ، وقبر الرسول ، وحجرات الأزواج ، والصفة التى كانت منزل
صفوة باعوا الدنيا ليقرّبوا من الله . . ثم المسجد كله فرش حصباء وعمده جذوع . .
ثم القبلة ، والمنبر الساذج الذى شهد ولادة الدولة ، فيغاعها ، فعزها الذى رفرفت
فيه راية الإسلام على أركان العالم . . لكأن عمر الآن فوق أدنى درجاته يبائعه
الناس فيسفق على أكفهم بكفه العريضة . . . لكأنه آب لتوه من تجواله بين
الرعية فجلس يقضى أو يسمع أو يشاور الصحاب . . لكأنه فى مرقعته قام يحصى
الأسلاب من كنوز كسرى أو نقائس الروم ، ثم يخرج ساجدا شكرا لله على النصر
الذى حازه جند الله . . .

إنها لصور تترى . صحائف من المجد جديرة بأن تداعب خواطر الجماهير
المحشودة حول منبر دمشق تلقى سمعها مرهفا إلى فتاه . . أفليس هذا من ذلك ؟
أما هو شبله ؟ . . ألا تهبج فيها وقفته ، وهيئته ، ونبرات صوته سيرة الذى فات
من عدالة أبيه فتراه مثله لسان حق يوشك ألا ينطق بهواه ؟ . .

وأصغى معاوية وعبيد الله ينطلق حديثه رقيقا هادئا كماء الجدول . . . وتاهف
على اللعظة الحاسمة ، والكلمة المبجلة المنشودة . . . وسبق بسمعه لهمة الفقى ينصت

إلى ألفاظ الفرية المقررة وسبة الاتهام التي وضعها بنفسه في فيه . . الآن سيذهب الهدوء . . سيخلى مكانه على ملامح الخطيب للثورة . . الآن سيعنف خطابه ويبدو نابه . . الآن سيهدر هدر الشلال ، صيرار كإعصار ، ستنطلق كلماته حامية مدمرة كمثل اللحم والصواعق !

فما هي إلا منى مخدوع ! . . كل هذا الذي انتظره معاوية من خطيبه ظل خافيا في ضميره كأنما ابتلعه الفق وواراه . . لفته فأبطنه ! . . رعاه جناحه ولم يلفظه لسانه ! . . إنما تحدث بحاجته ساعة حديث الآمل ثم خلف المنبر وغادر المسكان . .

وأسرع معاوية صوبه . يسكه بطرف ردائة ويفتح له من بين أسنانه وهو مبهور :

« ابن أخى ، إنك بين عى أو خيانة ! . . »

فتفرسه برهة عبيد الله كانت ثقيلة مديدة كالدهر أجابه بعدها بغير إخفاء :
« كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان ، وعرفت أن الناس يحملوها عني ، فتركها . . »

فلم يعقب الماهل . وهل يجديه التعقيب ؟ . . ألا ليت عمرو بن العاص لا يتشبت برأيه فالفتى في الحق ، لأخيه شبيه ، يفرقهما حرف وتجمعهما فكرة ومع ذلك فمعاوية لا يفلته ، ولا ينبو بأمثاله ممن ألقت بهم أقدارهم في مسالك طريقه . وإنه ليغضب في البدء ، ويخيب أمه فيه ، ويوشك أن ينبذ عبيد الله أو يعاديه ، ولكنه لا يلبث يوما ثم ينفصح له صدره ، ويبعث فيرضيه ويدنيه إليه . . حسبه أن يبقى بجانبه ، فإنه على أى حال عنوان ! . .

ولم يقف بالرجل مكروه ، ولا وسائله التي تقن وتخدع وتجذب نحوه أنظار الناس ، فلئن فاته لف الكثرة من صحاب الرسول فقد لف فئة من أبنائهم حواليه وإنهم شباب لا تتحقق لهم مطامعهم إلا في محيط أطباعه العريضة . ومن يدره ؟ لعلمهم يكونون يوما عونا له على الآباء المياعدين يفتلونهم كذلك إليه ! . . إننا لئراء قد استقام له حذسه . زاره ذات يوم بعد صفين فأوشك أن يكون ما ارتجاء لولا ما كان من عناد ابن أبي وقاص ، وشدة مراسه ، ورأيه الثابت الذي لا يلين . .

في ذلك اليوم دفع سعدا فضوله فمضى يتنسم أخبار الحكمين : أبي موسى وابن العاص وهما بدومة يتبادلان ويسران مداولتهما عن الناس ؛ ونزل سعد بأرض البادية على ماء النبي سليم في مكان قريب ، فلما أن علم عمر ابنه يأمره ، أطمعه فيه مجيئه ، فأقبل عليه يحاول أن يعيل به عن اعتزاله إلى مناصرة قضية معاوية . . .

حدث الفتى أباه :

« يا أباي ، النقي الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك حتى تفانوا ، ثم حكموا الحكمين : عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . . . »

فلقيه الرجل بنظرة مستريية لكنه لم يقطع عليه الحديث .

ومضى الشاب :

« . . . وقد حضر ناس من قريش عندهما ، وأنت من أصحاب رسول الله ، ومن أهل الشورى ، ومن قال فيه رسول الله : « اتقوا دعواته » . . ولم تدخل في شيء مما تكره هذه الأمة . . »

قال صاحب الرسول :

« ثم مه ؟ »

« فاحضر دومة الجندل فإنك صاحبها غدا . . »

عندئذ هتف الوالد بولده :

« مهلا يا عمرا . . إني سمعت رسول الله يقول : (يكون من بعدى فتنة خير الناس فيها الخفي التقي) . وهذا أمر لم أشهد أوله فلا أشهد آخره . . »

وطال بينهما جدل طمع الفتى إبانته في استمالة الشيخ عسى أن ترجع به كفة ولى أطماعه فتفتتح أمامه وفي رجائه وسيرة حسبا تأمل خيالات شبابه ، ولكن سعدا كان أعصى على إغرائه ، وأشد شكيمة فإذا هو جبهه بالرأى الفصل الذي لا سبيل بعده إلى مراجعة . قال له :

« يا بني : لو كنت غامسا يدي في هذا الأمر لغمستها مع علي . . »

رضى معاوية بعبيد الله يقيم عنده على ما يشتهي : إن شاء اتهم الإمام أو شاء كتم الاتهام ، فحسبه أن له اسم ابن الخطاب . . وتصيد عمر بن سعد بن أبي وقاص

ليكون شركا — إن استطاع — لأبيه . . . واجتذب عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد فجعله على رايته يوم صفين لعله أن يعيد إلى الأذهان ذكرى القائد المبقرى : سيف الله الذى نشر ألوية الدين عالية ، وقهر الشرك ، وقاد جند الإسلام إلى النصر أينما حمل السيف وهز الحسام . . . كلهم فتية لهم مطامع وآراب يهيجها الشباب ، كلهم ذوو أسماء ، كلهم عناوين . . . هم أغلفة أنيقة براقة تستهوى الأعين المفتونة باللعمان والأسماع التى تستعذب الرنين . . .

بل القدر أيضا أمدده بغيرهم : طائفة أثيرة على عواطف الناس ، ذات غار ساطع له إشراقه . فمئذما تعبس الدنيا ، وتمتد سياطها إلى الظهور لاذعة . وتبدى الخلب والتاب ، تهزم البشر إلا صابراً ذا حصانة . . .

وقد عبست ، ودارت رحاها عنيفة تطحن النفوس . . . لو لقيها ضحاياها بمنى صبر الإمام ما كثرتهم شيئا ، ولا نالت من عزتهم وعزمهم إلا بقدر ما تناله بعوضة من قرن الثور ! . . . هى أهون على القلوب الركيئة والدخائل الحصينة . محنها موقوتة ونعمها مبتوتة . المتعلق بها أمل فى غير أمل . وصاحبها راحل إلى معاد بلا زاد . . . ولقد خبرها على فكشف ما تبطن ، وحذر منها من يغرم بها الغرور :

« . . . أخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن نخرج منها أبدانكم . ففيها اختبرتم ، ولغيرها خلقتكم . . . إن المرء إذا هلك قال الناس : ما ترك ! وقالت الملائكة : ما قدم ؟ . . . »
وهى أيضا كقولها :

« دار شخوص ، ومحلة تنغيص ، ساكنها طاعن ، وقاطنها بائن ، تئيد بأهلها ميدان السفينة تقصفها العواصف فى لجج البحار . . . فما غرق منها فليس بمستدرك . وما نجا منها فإلى مهلك . . . »

فقيم إذن — وهذا صدق حالها ، ومآل آلهـا — يـرجوها الناس فيتداركون عليها تدارك الإبل الهيم على المورد العذب بعد طول إحـمار ، ويتهافتون عليها فى اضطراب ولهفة تهافت الفراش على شـعلة النور ؟ .

إن فيهم لطائفة لم تحصنهم القناعة . وهنت منهم العزائم فأسلسوا لها القياد

وهى الجلد وخار الصبر . حابتهم بعرضها الزائل وسخرها الحائل ، وكانوا مع ذلك ذوى غابر ساطع له إشراق . . .
ولم يكن الإمام بالذى يمدل العافى المحروم ولا يستقبل هناته بالعدو والرحمة .
فالفقر وقر وقهر ، والميلة مذلة . . . وعند ما تلمس الفاقة المرء توشك ألا تدعه إلا وقد جرحت عزته وأدمت قلبه وكبريائه . كم حزن لفقر ، وعطف على ذى حاجة أسيف مرور ، فحاول وسعه أن يرأب فيهم الصدوع ويلأم الكلوم والثلوم ، فى شبابه وهو حينذاك فرد من الرعية ، وفى كهولته وهو من بعد راع مسئول كان يسخو لهم بما تملك يمينه — وإن كان طعام يومه وآله — ويبيت راضيا على جوع . . . وكان يسر عطاياه ، ويأسى الأسى كله إن بذلها علانية . فى العطن من ، واللن مفسدة لبذل الباذل ، ومذهبة لحياء السائل . لذلك طالما كان يقول :
« من كانت له إلى منكم حاجة فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة . . . »

غير أن دخله المحدود كان يقف به كثيرا على حد المعجز حين تهول الطلبة فتعي قصاراه . فما عطاؤه ؟ . وما أبقاؤه وإنه ليعين الشظف فلا يكاد يحس مثل حرمانه أفقر رجل بين رعاياه ؟ . كان المال ينساب فى كفيه انسياب المياه ، والفضة والذهب فى خزائنه كثرة وفيرة كأنها الحصى والحجارة . فما لحظها يوما برغبة ، ولا انمدر إليها هواء وإن رمتها غيره رنوة شهوة ، وتناولوا نحوها بأعناق الاشتياق . . .

وقد رنت الأعين ، وهفت الأنفس ، وصغت القلوب لفتنة الحياة . . . طمع فى مسكة من المال نفر من أصحابه ألحت الدنيا عليهم بإغرائها ، فاشتروا السعة وعافوا القناعة . . . حين جاءوه حسبيهم يشكون إليه حاجة قاصمة فهم يردها عنهم بما فى وقاضه — بملك يمينه وإنه لراض قرير . لكنهم — لعجبه — أبهظوه الطلب ، وأعضلوا به فى السؤال . وهل من حيلة ويده قصيرة ؟ . والمال قليل ؟ . .
والمورد ضحضاح ؟ . . .

وثار ضيقا وقد تبين أن صاحبه : عبد الله بن زمعة جاء يراوده عن منعة تصلح شأنه من بيت المال ، وضج يقول :
« . . . هذا المال ليس لى ، ولا لك . . . إنا هو فى المسلمين وجلب

أسيافهم . . . فإن شركتهم في حربهم كان لك مثل حظهم ، وإلا فجناة أيديهم
لا تكون لغير أفواههم . . . »

* * *

إن الذى جبه على به ابن زمعة كان ناموسه الذى التزم دائماً منه على الأيام .
فلم يظلم الرجل ، ولم يتنكر له . بل هو رعى حق الأمة كافة ووثق أمانة الراعى
المستول . . . كانت تستوى عنده الحظوظ . فالمال وأصله ، والمال وأهله ، والمال
ووجوه إنفاقه . . . لا رضىخة ولا منعة ولا قطيعة ، بل امرؤ وما فرض الله . . .
السوية شماره . فالقوم سواء ، وأعطيتهم سواء . لا يتميز فلا يميز . إنه ليأخذ
نفسه بما يشق على غيره من خشونة المأكل وخشونة اللبس ، ولا يرضى أن يرزأ
المسلمين شيئاً من مال الدولة ، وفاق قدره عندهم وتقدمه عليهم ، وإن دعوه أن
يفعل راضين مختارين . بل نراه وقد رفقوا به يرد رفقهم ويأباه . . . يقول أحدهم
له وقد وجدته ، ذات يوم قارس البرودة ، يرعد في خلق قطيفة عليه :

« يا أمير المؤمنين . إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً ، ثم
أنت تفعل هذا بنفسك ؟ . . . »

فيكون جوابه :

« ما أرزأكم شيئاً . وما هم إلا قطيفة فى القى أخرجتها من المدينة . . . »

ويلوم آخر تأثر به فى عزوفه عن الدنيا فأنحرفت به سبيله — غير جامع
لإثم ولا مبطن لمعصية — إلى التخلّى عن ماله ، وهجرة عياله . . . ينهيه عن
التزام أسوته :

« ويحك يا عاصم ! . . . لست كأنت . إن الله فرض على أمة العدل أن يقدرُوا

أنفسهم بضعة الناس كيلا يتبذّر بالفقر فقره . . . »

وإنه ليؤدب عماله بأدبه ، فيحملهم على انتهاج نفس نهجه فى أموال الناس ،
لا يكرهونهم على أداء صدقة ، ولا يستأدونهم به غير ما فرض الله ، ويؤثرونهم
بخراج أرضهم يصلحونها ويصلحون شأنهم به ، ثم يرسلون إليه ما فضل منه . . .
ويحذرونهم أن يعبثوا بأمانتهم فياً كلوا ما تحت أيديهم . . . يكتب لأحد عماله على
الصدقات :

« . . لا تروعن مسلما ، ولا تتأذرن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . . فإن قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط أربابهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حق تقوم بينهم فسلم عليهم . . ثم نقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى ولىه ؟ . . فإن قال قائل : لا ، فلا تراجع . وإن أنعم منعم أخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له . فإذا أنيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه . . ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوءن صاحبها فيها . . . واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإن اختار فلا تعرض لما اختاره . ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيره . . . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله . . »

ويكتب إلى الأشتر حين بعثه على مصر :

« . . وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد . . فإن شكوا ثقلا ، أو علة ، أو انقطاع شرب أو بالة ، أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجفف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يشغلن عليك شئ به المؤونة عنهم ، فإنه زخر يعودون به عليك فى عمارة بلادك وتزيين ولايتك . . وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالمعبر . . »

ويكتب إلى الأشعث بن قيس ، بعد بعثه إياه واليا على أذربيجان ، يبصره بحقيقة عمله :

« . . إن عملك ليس لك بطمعة ، ولكنه فى عنقك أمانة ، وأنت مسترعى لمن فوقك ، ليس لك أن تفتات فى رعية ، ولا تخاطر إلا بوثيقة . وفى يديك مال من مال الله عز وجل ، وأنت خزانه حق تسلمه إلى . . »

وإنه ليراقب ولاته ، ويحاسبهم على ماتحت أيديهم ، ويرسل إليهم برقباء يفحصون أعمالهم ثم يرفعون إليه سيرتهم بين الناس فى الأتقى وفى المال ليرى إن

كانوا يلتزمون سنته ويحتذون منها . . أرسل مرة لكعب بن مالك يقول له :
« أما بعد ، فاستخاف على عملاك ، واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر
بأرض كورة السوداء فتسأل عن عمالي ، وتنظر في سيرتهم فيما بين دجلة
والعذيب . . . »

وبعث بكتاب إلى عامل — جعل مال المسلمين وسيلة لصيته بين أهل
إقليمه — قال فيه :

« بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وأغضبت إمامك :
إنك تقسم في المسلمين الذي حازته رماحهم وخبولهم ، وأريقت عليه دماؤهم ،
فيمن اعتملك من أعراب قومك . . . فالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان
ذلك حقاً لتجدن بك على هوانا ، ولتخفن ميزانا . . . فلا تستهن بحق ربك ،
ولا تصلح دنياك بحق دينك فتكون من الأخسرين أعمالاً .

ألا وإن حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا النىء سواء ، يردون
عندى عليه ويصدرون عنه . . . »

وعلم يوماً أن شريح بن الحارث قاضيه اشترى لنفسه داراً ، فدعاه إليه بمظه
ويحذره ، ثم بيكته أشد تبكيت وآله وإن لم يشك فيه . . . بدأ يسأله :
« بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً ، وكتبت كتاباً وأشهدت فيه
شهوداً . . . »

أجاب شريح :

« لقد كان ذلك يا أمير المؤمنين »

فرمقه الإمام رمق عائب زار ، وقال وهو كالأسيف :

« يا شريح : أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك ، ولا يسألك عن بينتك
حتى يخرجك منها شاخصاً ، ويسلك إلى قبرك خالصاً . . فانظر يا شريح لا تكون
ابتعت هذه الديار من غير مالك ، أو تقدت الثمن من غير حلالك ، فإذا أنت قد
خسرت دار الدنيا ودار الآخرة . . . »

ثم استأنى برهة أتم بعدها حديثاً خلط فيه الجدل الأجهم بالدعابة الساخرة :
« . . . أما إنك لو أتيتني عند شرائك ما اشتريت ، لكتبت لك كتاباً على
هذه النسخة ، فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق . . . »

وكان كتاب الشراء الذى اقترحه الإمام :

« هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للارحيل : اشترى منه دارا من دار القروى ، ومن جانب الغانين وخطة الهالكين ، ويجمع هذه الدار حدود أربعة : الحد الأول ينتهى إلى دواعى الآفات . . . والحد الثانى ينتهى إلى دواعى المصيات . . . والحد الثالث ينتهى إلى الهوى المردى . . . والحد الرابع ينتهى إلى الشيطان المغوى وفيه يشرع باب هذه الدار . . . اشترى هذا المعتبر بالأمل من هذا المزعج بالأجل هذه الدار بالخروج من عز القناعة ، والدخول فى ذل الطلب والضراعة . . . »

أفمن كان هذا حاله ، وتلك أمثاله ، يدع مال المسلمين لى تستبيحه طائفة تقدمت بقربها منه وإخلاصها له ؟ . . أما هو فلا يفعل وإن نفسه لمحصنة ، وإن قلبه لى جنة مانعته عن الجور والتعيز . . . حتى حينما تنوس المغويات أهله لا يفعل ، بل يستمسك معهم بعبثته ، ويشد أعنف الشدة عليهم وإن أبكتهم الحاجة . . .

يقبل عليه بالكوفة أخوه عقيل ، علت السن فتقل ، وغلت السلة فأملق ، لعله أن يجد لديه ما يعينه على الشدة . . .

ويتلقاه الإمام بالاحتفال والتجلة وإن عينه لتكاد تدمع على ما نال منه زمنه ، وقلبه يئن لصيبياته هؤلاء وهم أمامه شعث غبر ، ملكهم الفقر ومسهم الضر . ولكنه يكتم فى نفسه رثاءه ، ويسأل أخاه فى ترفق ورحمة :

« مرحبا بك وأهلا . . ما أقدمك يا أخى ؟ »

يجيب عقيل :

« ركبنى وهن عظيم ، فجئت لتصلنى . »

فربت له الإمام ظهره مواسيا ، ويقول :

« إذا خرج عطائى فهو لك . . . »

غير أن الرجل الذى خلف بلده وراءه ، وخرج فى ضباب ناظريه يقوده صيته قطعوا به المراحل الطويلة ، لم يكن كل همه أن يطوى العمار والقفار ليتبلغ بمسكة من المال كهذه لا تكفى مشاقه ولا ترد إملاقه . . إنما كان ظنه أن

صاحب كل هذه الدولة العريضة لا يؤوده أن يفتح له بيت المال ثم يدعه وما شاء فيه يغترف ويحمل حق بكل وينوء . . .

ويلج عقيل . ويعاود بعد معاودة ، وهو يعنف في الطلب ويشدد في السؤال :
« وما يبلغ منى عطاؤك ! »

ويحلم الإمام ويصبره :

« وهل تعلم لى مالا غيره ؟ . . »

ثم يتهاوى صبره ذات ليلة بلغ فيها أخوه من إلحافه ومن تعنيفه أقصى جهده وغاية قصاره . . . في البدء يقبل بسمعه عليه ، ويبدى له من الرقة ما يطعمه فيه . حتى إذا حسب الشيخ أنه بالغ أربه ونائل طلبه ، مد له الإمام حديدة حمراء محلاة فأدناها منه فانبعث من حرها بصيح . . .

عندئذ يعصف على به يرجره :

« ثسكتك الثراكل يا عقيل ! . . أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ،

وتجرنى إلى نار سجرها جبارها لغضبه ؟ . . »

ليس الإمام إذن بالذى يخون أمانة الله في يده فيهبيل نفوذه ليرضخ الرضاخ ويقطع القطائع ويجعل مال المسلمين دولة في طائفة منهم وإن تزلقت إليه بصحبة أو صلة رحم . لا يفعل ، وغيره يفعل — معاوية ! . . فما يعي عاهل الشام أن يمنح من شاء أو يمنع من شاء ، فأعما المال — في اعتباره — قنية له خالصة ، شهواته وحدها ترسم حدود إنفاقه ثم لا رقيب ولا تثريب . . .

برق الذهب ثم قال : « هيت ! » . . فأما ابن زمعة فقد عمه . وأما عقيل

فقد خرج إليه . وأما معاوية فقد استغرقت البسمة ما بين أذنيه . . .

ويتفكر العاهل الوصولي والفرحة تفيض به وتريق لونها على عبياه ، كما يسيل

أعاب معتوه . . . فهذان جلب الخير ، أول القطر ، والقيث بعد مدرار . . .

وعبيد الدينار والدرهم كثر ، وما أقل القنع الأحرار في هذه الدار . . . حاله قدره ، والطمع والفاقة . وها هو ذا وقد أقبل زمانه يقوم فينثر ادعاء جديدا له على الملا من رجاله المفتونين . . . يعتلى منبره ثم يخطب وهو يلوح باسم عقيل :

« يا أهل الشام . . . هذا سيد قریش وابن سيدها عرف الذى فيه أخوه
من الغواية والضلالة فأنا اب إلى أهل الدعاء إلى الحق ! . . . »
ويسمع عقيل فيشتعل غضبه لهذه الفرية الكافرة ، ويأبى لنفسه أن يبتلع
ما احتوته من تنقص وجور ، فإذا هو يثور :
« . . . قد عرفت من فى عسكر أخى لم أفقد والله رجلا من المهاجرين
والأنصار . ولا والله ما رأيت فى عسكر معاوية رجلا من صحاب رسول الله . . . »
ثم يفرق احتجاجا فى تهافت الجماهير .
وعندما يجلس العاهل مجلسه ، ويرى ما ناله ادعاؤه من كرامة ضيفه ، ينثى
فيلين له الحديث عسى أن يهدأ غضبه ، ثم يدفع إليه بثلاثمائة ألف دينار ، عطية
سخية يشتري بها رضاه . . . ويمس له بنخب تبطن بنفاقه :
« أنا خير لك من أخيك . »

فلا تلوى الشيخ الضرير المنحة الثمينة عن الحق وطريقه ، بل يسرع بجوابه
ساخرا كأنه لسعة السوط :
« صدقت . . . إن أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت قد آثرت دنياك على
دينك ! . . . »

ثم يد عينه التى غلفها الضباب كأنما يحاول أن يستشف ان رده فى ملامح
مضيفه ، ويرهف سمعه . ويشعذ لسانه يهينه للسمة جديدة ! . . .

لكن معاوية لا يجيب . وما جواب يجد الجدال والملاحاة ؟ . . . إنه لمشغول . . .
خواطوه تهيم فى آفاق آماله . تطوف به أرض الإسلام ورقاعها الفسيحة بين
قرنى الزمن . تطوى دياره وتقطع أقطاره . . فى الحجاز دارت ، عند الحرمين .
وفى مفاوز الفلاة التى تنبسط كالتب عى الجزيرة . وفى العراق بعصريه البصرة
والكوفة ، وخلال سواده الذى جرى ماؤه فلانت حصباؤه وملاء الحين
والظلال . . . أينما انطلقت عينه فى هذه الأقاليم التى جاورته اثنت نفسه راضية .
قد تصيد من رجالها حفنة طيبة ، هم بين أهلهم أعلام . وما دامت الدنيا حسبه ،
والزيف وسيلته ، والذهب حيلته ، فإنه لآمن لا يضع قدمه على مزلق . . . فليمل
إذن ميله ، وليخط خطوة جديدة لأرض جديدة ، عسى أن يجد فيها أناسا من

نفس ذلك الطراز الذى وقع شراكه . . . لبيسط جده ولعبه ، ولينثر مكره
وذهبه ، وليقرطى طمأنينة ، فلسوف يؤتينه التهم ، والأنفس التى أعيها الصبر ،
والضائر الجريحة طائفة أخرى تتعلق بأسبابه ، وتسير فى ركابه ، ذات غابر فى
العواير ، ساطع الطلعة ، له إشراق . . .

٧

الذى أهمه فى البلاد إقليم : جنة يانعة ، بطلع منضود وظل ممدود . تأتيا
نعمها وفرة ، على فترة ، كلما طأ التهر فسال به واديه الأصفر ، وفاضت فيه
كالعيون ومس بكفه الساحرة ضفافه الجرد فجرت بهجة ونضرة . . . وكانت
بعيدة عنه بالقلب ، دانية بالقرب ، كأنها من إقليمه الساكن دثار اشعار . . .

والذى أعياه فى الرحال مارد : جنى من الإنس أو إنسى من الجنة . . .
يهوله طوله ، ويعجزه دهاؤه ، وتكده خيلاؤه . . . لما كانت قامته بالى يحزبها
أن يقال عنها مديدة ، بل كأنها من نسيج أسطورة . . . إذا وقف فبرج . وإذا
مشى فى الناس تذاويت رعوسهم بين صدره وخاصرته . وإذا امتطى الفرس
الأشرف كان راكباً راجلاً تخطط فى الأرض رجلاه . . . أما دهاؤه فمكر
شيطان . وأما خيلاؤه فإدلال بقدرة . وليس مع ذلك بغيرور .

والذى أسأمه فأسقمه ، وأجرى غيظه كالحمى الكاوية فى دماائه : اجتماع الجنة
اليانعة إلى المارد الماكر ، وانضواؤها تحته ، يوليها الدهاء فتوليه الولاء . . . منذ
دخلها سكنت له ، وخفضت جناحها مختارة غير مقهورة . . . لما اغتصبها عنوة .
ولا نالها بسيف أو ركبا بخوف ، وإنما جاءها — حين جاء — فى سبعة من
رفاقه ، قطموا إليها الفلاة فى ركابه كأنهم نداماء صخبهم تهون عليه وحشة الطريق .
ودخلوها معه بغير اقتحام دخول الأضياف فاستقبلتهم بالقرى والتجلة . . .

ولم يكن فى الحق نأماً عن مصر ، وعاملها المارد ، وخراجها الضخم الذى
لو أحيل عدة لفتح العالم بشرقه وغربه . . . أينما سرح فكره بدت له هذه الجنة
سعيراً تحترق فيه أحلامه . . . وقد حسب فى الماضى أنه أمن شررها وشرها حين
(٧ الإمام)

بعث بجند اختلب ابن أبي حذيفة من ربوعها إلى حتفه . لكنها ظلت حصينة دون هوان بعد وقعة العريش التي انتصر فيها جنوده ، وباتت على عهدا إلى اليوم للإمام لا ترد كلمته ، ولا تخلع طاعته ، وإن عاشت فيها فرقة عثمانية انطوت على نفسها بقرية صغيرة كانطواء ثعلب جبان بحجره .

وأسف معاوية . فلولا أن عمل عليها قيس بن سعد بن عباد من لدن على على الأثر لكان قد وسعه أن يجيش لها كرة أخرى من غاراته ومكر عمرو مايردها فوضى بلا صاحب حتى تنضج بها فتنته فتسقط في حجره وهو رخي سقوط الرطبة الطرية . . . لكن الإمام لم يعل له في رسم خطاطه ، وتنظيم تدبيره ، ونسج أحاييله ، بل رماه فيها بمن تصغر في عينه خدعه فلا يراها سوى عبث غلطة . . . لقد كانت العرب تعد دهاتها فتقدم منهم خمسة لا يسبقهم إلى الدهاء مباح . فيهم عمرو ، وفيهم معاوية ، وعلى رأسهم قيس وإن أنف دهاؤه أن يقوده إلى مأثم . . . كان يقظا كذبا ، ما كرا كشيطان ، ناعما كحية . . . وكان حبه للإمام يتوثب به إلى القداء والتضحية ، وإخلاصه له تقانيا فيه ، وإجلاله إياه أدنى درجة إلى التسبيح . . . وعندما اختاره على عاملا من قبله على الجنة التي اشتاقها معاوية وتاقت روحه إلى امتلاك برها وبحرها ، لم يكن مسيره إليها مسير آمل في منصب ، أو متوفز إلى جاه ، بل رجاها قناة تحز بسنها عدو إمامه حق تستلبه حياته . . .

قال له الإمام فيما أوصاه يوم ولاء :

« سر إلى مصر فقد وليتكمها ، وأخرج إلى ظاهر المدينة ، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتي مصر ومعك جند ، فإن ذلك أربح لعدوك ، وأعز لوليك . . . فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن على المحسن ، واشدد على المريب ، وارفق بالعامية والخاصة فإن الرفق يمن . . . »

فأبى عليه إشارة وليه على نفسه أن يستبطن جندا قد يكونون عدة تعين الإمام في ذلك الوقت الذي تنادت البصرة فيه للنار ، وتشرعت للحرب ، وطاف رجالها بهودج عائشة طواف المجوس بالنار . . . قال يجيب مولاه :

« رحمك الله يا أمير المؤمنين ، قد فهمت ما ذكرت . . . فأما الجند فأبى

أدعه لك فإذا احتجت إليهم كانوا قريباً منك ، وإن أردت بعثهم إلى وجه من وجوهك كان لك عدة . . . ولكنني أسير إلى مصر بنفسى وأهل بيتى . . . »
فإن هى إلا أيام حتى كان قد دخلها ، وما فى ركابه إلا سبعة ، وما فى عينه سوى دعوة بيعة . ثم شهدته الفسطاط يقف على منبر جامعها يخاطب الناس فى طمأنينة وثقة :

« الحمد لله الذى جاء بالحق وأمات الباطل ، وكبت الظالمين . . . أيها الناس ، إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله . فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم . . . »

ومع ذلك فلم يقنط معاوية ، إن مصر بايعت لكن دعائه بواديها الأخضر فى جنة ومقل — تلك الفرقة العثمانية المعادية التى ترنو إلى دمشق بنظرة الولاء لم يعسسها من الأمير الجديد عنت ، ولم ياحقها عسر أو ضر . . . لان لها قيس وإن أبت الطاعة ، وأفسح لها فى رحابة صدره ما بدت به عزيزة الجانب فى أعين من يرونها تأبى وتحالف فلا يصيبها جزاء المخالف . . . إنها ، على تمردها ، لموفورة السلامة ، آمنة السرب كحمام الحرم . . . لكانها من وجارها ذاك لصيقة بصاحب الشام دونها حصونه . . . لكان « خربتنا » دمشق صغيرة فى أرض النيل . . . لكان أهلها — كالأولى تحدثنا بسيرتهم الأساطير — قد أحصوا جلودهم بالرقى المميذة تمنعهم الخوف فترهبهم السيوف . . .
وكتب إليهم قيس :

« إني لا أكرهكم على البيعة ، فأنا أدعكم وأكف عنكم . . . »

فكان حقاً لمعاوية أن يستمسك بأمله فلا ييأس اليأس كله . بل يتربص مع الأيام عسى الأحداث تعينه على الإفادة يوماً من حزبه الرابض بالقرية الصغيرة . فلعلها السياسة . أو لعله الدهاء قد زين للعامل للارد هذه الخطة الناعمة يتناول بها فرقة المعارضين العصاة أو لعلها ظروفه التى لم تدع له إلا طاقة محدودة قد قهرته على الصبر والمواذعة . فما دخل إقليعه بقوة حربية كالتى حظه على اتخاذها الإمام تشد من أزره فترهب أعداءه ، وتمز أوليائه ، وهل كان حوله سوى نكير من أصحابه لا تكاد دماؤهم حين البأس تروى حديدة حسام . . .

رفق بهم إذن وقد كانوا جديرين منه بغير الرفق والهوادة . ودأورهم جهده وإنه — فيما نحسب — لقهور على أداء دوره ، مغلوب أمامهم على أمره ، وهل كانت ظروف أحواله : فقره في السلاح ، وقلة النصارى ، وترقبه لليعة تأتيه من أطراف إقليمه إلا مملية عليه أن يبدى من الحية جلدها الناعم ويخفى نابها السام ؟ .

أما هم فلعلهم كانوا أشد قوة بتوحد كلهم ، واجتماعهم في رقعة صغيرة من الأرض هي بهم كالحصن وإن كانوا ذوي عديد قليل . فما طاقته ؟ وما قصارى جهوده إن هو بادأهم العنف وإنه لكالأعزل ؟ . . . أولى به إذن أن يستشف عقيب إقدامه قبل أن يقدم لبتخير خاتمة آمن وأسلم ، وأن يعمل بحذر فيما يجالج الداء المعصى بالدواء الأيسر وإن لم يكن الأنجع الأحسن . . .

فيأترى قد تجنب الخطر أم تجنب الحزم حين استباح لنفسه أن يتحرر من وصية الإمام فلم يشدد منهم على حبيب ؟ . ما تركته الفرقة للتأبئة لحظة من زمان — منذ دخل القسطنطينية — في أدنى شبهة مما يبيتون . . . إن بلدتهم لدار فتنة : وإن نهجهم لعصيان . وإن عزمهم لتشريع لاعتداء مسلح عليه وعلى وليه وعلى السواء حين تلوح في أفقهم بارقة ظفر . . . لم يكن قيس في شك من هذا كله أو يكون دهاؤه اختلاق راوية . . . ولكنه مع هذا يترجم الروية والريث ، ويبدى لهم من اللين ما يوشك أن ينتقص من هيئته — حتى حينما تنادوا فيما بينهم بالتمرد ، وتهاثفوا جهرة بالانتفاض ، ودعوا إلى خلع الطاعة بألفاظ الثأر لعثمان ، لانراه يهز في وجوههم قناة أو يلوح بوعيد ، إنما يتلقاهم بما هو دون اللوم وأدنى إلى العتاب الرقيق فيبحث إلى داعيتهم : مسلمة بن مخلد الأنصارى ، يقول :

« ويحك . . . أعلى تثب ؟ . فوالله ما أحب أن لي ملك الشام إلى مصر وأنى قتلتك . . . »

ويبحث كذلك إلى القوم كلهم يؤمنهم :

« إني لا أكرهكم على بيعة . . . »

فإن هي إلا هدنة عقدها ، وعهد قطعه على نفسه حتى كان الخبر قد جاءه من البصرة بمصارع الخارجين على إمامة الإمام . . . الرعي الحاصدة التي خافها

معاوية على شامه وأحلامه قد عملت . دارت شقتها هناك بالعراق . مشى على على
عدوه بالنايا المغيرة . عصف بجندهم عصف الأهوية الثائرة بالهشيم . أكلت ناره
« الجمل » ثم ذرت عظامه رماداً مع الريح . . .

ويصبح صباح ، وعسى مساء ، وصاحب الشام بين يد قلعه مضجع ، يوشك
من خوفه أن يرى الجحافل الغازية تفيض عايه كطوفان ، من مجرى دجلة ، من
مفازة الجزيرة الجرداء ، من شاطئ الفرات الأدكن ، من ضفة النيل عبر رمل
سيناء . . . أمس وحده كان عمر راحته ، وهدوء خاطره ، وطمانينة بالله
ثم دفعه الليل في سواده . . . وعندما فاز حزبه الصرى بتلك الهدنة العارضة ود
بقلبه لو طال عهدا فترة من زمان يمد فيها إعداده . أما اليوم فهي في الغابر —
حبل أمته قصير . . .

ويتلفت العاهل القلق وهو ريشة في لجة اضطرابه فلا يسهفه ذهنه بغير
الحدس والظنون والرجم بالمغيب المجهول من كل مرتجى ومأمول . . . فلو قر
على . . . فلو أقره على أرضه كما ولاه قبله عمر وعثمان . . . فلو نساء الحرب إلى
حين . . . إنها متى أثن كذبت من بعد لقد ظلت زمنا بفتح السياسة التي اتهمجها
طويلا قبيل وقعة الجمل وفي أعقابها وكان بها يداور ويمحاور عسى أن يفوز
ببعض أربه . ولكن عينه كانت دأما على قيس ، في إبان شدته ورخاء حاله على
السواء . وهو اليوم لا يعيل بوجهه عنه ، ولا يغفل لحظة عن أية حركة تند منه
بالوادي الأخضر ! فكل همه أن يدرأ عن نفسه دهاء المارد وطاقة عصر مكتنزة
لو خلى بينها وبين الانتشار لهزت الدنيا ، وفتحت العالم بشرقه وغربه . . .

اسكن شق الرحى الثاني لم يدر دورته . . . همد حركة . جنح صاحبه به
إلى الركود . . . فما تحركت بمصر قدم أخذت طريقها إلى الشرق نحو فلسطين ،
فدمشق ، فأعمالها السكينة للناخلة للروم . ولا انمقد بها لواء . ولا تكتبت
كتيبة لحرب متمرد الشام . . . فلو لا أن يقال مخدوع أقال معاوية إن صاحب
النيل قد آثر القعدة بضفتيه يتفياً نعيمه ويستروح نسيجه ! : لكنه عرفه أخا
بصر وبصيرة ، فلا أمر ما قد تناقل إذن عن اهتبال فرصة النصر ، الذي حازه الإمام
بالبصرة ، وسار ذكره في الأمصار فكبت أعداءه وأعز خلائه وأوليائه . . .

لأمر ما يدع قيس الآن علياً في عرقه ، وفي النقع الغامر الذي أنجابه عنه القتال .
وفي هم حازب غالب من الإعداد للملاقاة خصمه العنيد في دمشق ثم قبع ينظر
ساكناً من مغاني جنانه ..

فقيم كان مسكونه وكان انتظاره وقد نزع جانبه وعلت كفه وكف الإمام بعد
نصره ذلك المؤزر ؟ .. إنه ليس عن فتور همة ، ولا عن غفلة ، ولا عن قلة
حيلة أو قصور في عتاد وأجناد . فلقد دانت له البلاد في واديه إلا بلدة ، وخضع
الناس من رعاياه إلا فرقة ، وجاءه خراج أرضه وفرا خالصا بغير عنت ولا منازعة
في الأيام القلائل التي تلت دخوله الفسطاط أعزل ، استطاع العامل الداهية
العلاق أن يسوس فيحسن حق غدت أمور إقليمه خيوطا معقودة بإبهامه ،
ففاض المال ، وانحنى الرجال ... فلو قد أراد أن يعد لأعد ، وأن يحشد لحشد .
ولو قد مد إصبعاً بحركة وعيد إلى خربتاً لأقبلت إليه تهطع وهي تخفض له رأسها
ذليلة .. ولو قد تأبى عليه أهلها ساعة لما شهدتهم بعدها ساعة إلا صرعى على
غبارها ، لفظهم الحاضر وحضنهم الغابر ..

غير أنه رائها ، كأنما شاء أن ينسئها أجلها إلى حين ! . . . وبقي على عهده
لها ، محاجزا بينها وبين نابه ، حاويا بأسها في إهابه ، كحية وعصفور ! . . . فيما
أحسب كان قيس مؤمناً يقدر نفسه أقوم إيمان ، واثقاً بجذوى تديره أعظم
ثقة ، فلم يردده شيء عن احتذاء خطة له رسمها في حيطة وراح ينقذها في تحرز
وكتمان . . . إنه ليسر نواياه ، ويلفها من الغموض بأبراد ثقيلة كثيفة حق
لتختلط حقيقة أمره على نصيره اختلاطها على غريبه . . . من البدء كان هكذا ،
ومن بعد امثل نفس المنوال . . . أو ما أقدم حين كان يجب الإحجام فدخل على
أمة ديارها وهو أعزل بغير عدة ولا أعوان ؟ . . . أو ما أحجم حين كان يجب
الإقدام فأغمض عينه عن خربتاً وأهلها المخالفين وقد هاض حزب عائشة واستطار
من أنباء ظهر الإمام ما دفع أعقى عدوه إليه يتكفف الأمان . . .

إنها خطة ، لا مرء ، عصية على الفهم ، ليس لها من المنطق عماد . . . حق
معاوية ضل فيها دهاؤه . يوم استقبلت مصر قيساً بالصمت ترقب العاهل الأمور
في صبر ، فلما رآها يهادن فيها ثماله تطلع نحوه بحذر . . . كان الموقف حينذاك

لا يكاد ينضح بعقباه . كانت فوقه غمامة ناشرة حجبت من الأفق صفاء
وشابت رواده حتى لقد حار العاهل الناث في مجاهل ظنونه أتلکم الخطوط
الداكنة في سمائه عبسة الغروب يتبعها ليل أم ظلة سحر يعقبها فجر . . .

وفي ثنايا توجسه الحائر جاءه الزمن بالجواب . . صاحب الشام لم يطل قلقه ،
ولم يضرب به خياله أشواطاً وسيمة في غمرات الحدس والوساوس . فلقد أفلمت
نشوة النصر إقلاع سعابة صائفة ، وسكنت الأنفس التي كان يزلزلها الخوف ،
وقرت القلوب الفزعة من بعد وجيب . . . ومع ذلك فقيس هناك بمكانه على
النيل ، ما زال على الحربتا في الأمان واللين ، لا يشعذ سيقا ، ولا يهز إصبعاً
بوعيد ، كأنما كل همه قعدة ناعمة على الضفاف الخضراء في مغاني جناته . . .

٨

الزمن له . . . هذه فسحة منه طال بها عمر أحلامه . كانت بلسا لحيرته .
شعاعاً هادياً في ظلام حاضره يبدو كسفة من ضباب غده المجهول . دعامة جديدة
في مجازة إلى مجده . . .

وطاب نفساً معاوية . وحق له . فحين يستنبي الآن رجاءه يرى دنياه في
عينه ، كأنما أقبلت عليه مجلوة ، على وجهها سلام وعلى ثغرها ابتسام . . . وحين
يحاول أن ينشر الحيلة لا تتعثر به الوسيلة ، فالجعبة وسيمة ، والحدع حاضرة ،
والباع طويل ، والخطر قليل . . .

ذات يوم ضل حدسه في سياسة المارد الداهية الذي يحكم النيل . كانت عميقة
كهواية ، مشوبة كصفحة البحر النائر في يدي عاصفة ، خافية الكنه كالقضاء
المغيب . . . أمس ظنها هدأة الطبيعة المخادعة تنهياً لإعصار ، فأورثته القلق
والتوجس . كان غموضها يعلأ الجو عليه بالوساوس ، وكان خرس صاحبها عنه
ينضح بالريبة . . . السكأن غفوته تلك بالوادي الأخضر تربص ذئب ينام بعين
ويرقب بعين . . . وقعدته إقعاء الوحش تنهياً للانقضاض . وهل كان قيس
إلا حية مخاتلة ؟ . . .

ثم مضى الأمس هادئاً كسابقه، وانقضى اليوم ناعماً كأمسه . وغاب الغد على أثرها في رمسه . . ليالى ونهر ما كان أطول سويعاتها الحائرة وما أشقها وأثقلها على نفس عاهل الشام ، إنها صهرت عزمه ، وأوهت صبره . . . شدت قبضتها العاتية على نحره ، وجثم شيطانها على صدره . . . ألصقت أهداب عينيه أمسيات طويلة بالنجوم الدامحة . . . ولكنه تحصن أثناءها بأمن اليأس الذى لا يملك سوى انتظاره إشعاع الفجر وبوارق إصباحه . وراح يتلمس جهده ثغرة ان كانت كسم الإبرة فى سور حمة فمصاد أن يتنفس من خلالها نسيم الخلاص ! . .

وها قد أملت الهدنة له ، وجاءته بليالى من هدوء جأشه استطاع فيها أن ينقب بظفره الجدار . . . ولم تكن فى الحق هدنة قد عقدت له ، بل هى عهد بالمسألة بين قيس وخربتا النواثة . ولم تكن سلاماً ساد بين مصر والشام ، بل هى غفوة عارضة شاءها النيل الزاحف فى مهاده الرمل كالأفعوان . . . ومع ذلك فما كان معاوية ليأمن مغبة ذلك الهدوء الثقيل الذى التزمه حارسه العملاق القابع له خلف الأسوار ، أياً رجل غيره كان حرياً به ككثفه أن يحار ذهنه فى الخطة المسرلة بالعموض . المسترة من الإسرار بألف ستار وستار . إنه ليؤوده أنها مختلطة الخطوط ، مظمومة المعالم كعبث الأهوية الهوج فى تما الرمل أو بصفحة الماء . لا تتركز على منطق معلوم فلا يتبدى من نتائجها ما قد توحى به المقدمات ولا تسير فى اطراد وموكب الحوادث السيار . . ليست سلباً يعلن فيؤمن جنابة ، وليست حرباً يشهر فيتسع رحابه وتشرع أسبابه . إنما كقارب ضال ، كبير الشراع ، فى يدي نوء مجنون ، يجذبه ثم يرخى له ، ثم يرخى له ويجذبه فلا يلوح لذهن ناقد أين مرساه .

على أية حال استطاع عاهل الشام أن يتنفس الرجاء فى أعقاب الهدنة التى امتد بها الأجل بمد انقضاء آجال « عسكر » وأجناده ، الذين شهدتهم البصرة صرعى على تراها المبلل . وسعه من تلك اللحظة أن يتبين فى الأفق ظلة فرصة مولية شابت سماء مصر بالدكنة ، ولمعة فرصة مواتية أشرقت فى سماء شامه وأحلامه . لكنه فى ذروة بشره لم يكن يحلم بأن يهد على العامل الداهية عرينه أو يشوش سكونه . حسبته أن يرقب سنته ، وأن يقابل وناه بوناه ، وأن يقبض

كفه أن تقطع عليه رقده فتوقظ في صميمه غضة جبار تعقب الويل وتورث الدمار . . .

لكن كر الليالى ، وتوالى الساعات عليه وهو فى مرقبه ، وذلك الشلل الذى ضرب به على أصابعه المتحفزة للنضال ، لم تكن كافية أن تتقدم به إلى الأمام خطوة نحو أربه . ذلك الجهد السلبي الذى بذله تجاه خطة غريعه الخافية عن تقصيه كان مضية لعمره ، مثقلا لقلبه ، موهنا لأعصابه . وإن غده لمجهول . وإن أجنة الزمن التى لن يلبث أن يدفعها ولائد إلى الحياة لمغلقة من الغيوب بما يحجبها عن وعيه ، وعن استقراءه ، وعن استيقان ملاحظها أم هى سليمة أم هى شوهاء ؟ . . . فما يدري على أية هيئة ستكون ظروفه ، ولا فى أى قالب يسويها قدره . وما يسمعه لحظة من هنيهة أن يثق باليوم القابل وإن اطمأن إلى اليوم الراحل بعض اطمئنان . وهل فى مقدوره أن يقيس غده بحاضره وقد حذرتة خطة قيس المغشاة ألا يركن آمنا إلى القياس ؟ . . .

كلا بل يعمل . ويعمل فى عجلة لا تنسيه حذره . ويعمل ليومه فى يومه دون ترقب لما يحتمل أن يطلع به غد غائم لما تتضح له تباشيره . . . الآن إذا غفت مصر ليس بعينه من خطة أميرها شيء إلا أنه فى غفوة ، مخله قد انكشف فى إهابه ، وخطره نام إلى حين . والإمام أيضا مشغول عنه ، ينفذ عن نفسه غيرة الحرب ويلامق كالليث جراحه . . . وتلك الوفادة التى ماونت تحته على الطاعة دواؤها لديه حاضر . وهل أنجع لها من مطل يرددها عنه خدرة كليلة ؟ .

فى هذه السويمات الحاسمة من تاريخه بدا معاوية كمن قد أوتى حاسة هادية توجه خطاه ، وتسدد نظرتة ، وتوفى به رويدا رويدا على غايته المرتجاة بغير عسر ولا مشقة . لكننا ، فى الواقع ، نسلبه نصيبه من الحزم إن وكلنا تصرفه كله إلى جده السعيد ، ونجنى على الحقيقة السافرة بما يحجب وجهها عن العيون . فما كان صدفة ما هدام . ولا صوتا هاتفا من السماء تنزل بالخطبة المثلى إلى هذه الأرض فانحرف سراه إلى سمع شيطان .

لم يكن غيبا انتهك ستره وتكشف سره فوضعت لاهل الشام من خلاله المعالم ، إنما نفسه دليله . هى هاديته . كانت مشعلا له أنار السبيل الذى اعترضته

الحيرة ، وسدته ظلمة الغد المجهول ، مضت به إلى مراميه وهي تحترق من جزع ، وتتوهج ، ويسيل دماؤها في كل خطوة كقطر الشموع . . . إنه لم يكن غرا ، ولا مخدوعا عن هدفه ، ولا جبانا يردده النكوص وإن أبدى ريثا كان يلبسه أحيان كثيرة ثياب متواكل قليل اللبالة أو متردد مفلول الحيلة . . . وحين رأى مصر تعنو لحصمه ، راحت الحيرة تعبت به عبثة الكأس بدشوان لكنه لم وعيه المبعثر ، وتفض عن رأسه النشوة المغيرة . وما زال ذهنه يسير به حتى التقى همه برمل سيناء فجعل يإزاء أرضها ثلاثة رهط من أعوانه أشدة ، أقامهم على فلسطين ليدروا عنه ثعبان النيل لو شاء زحفا على تخومه . . . ولم ينم لياليه أيضا حتى كاتب الثعالب المحتجرة بالقرية الصغيرة ، فرقته بخربتا ، عسى أن تكون له في الوادي عدة حين يآزف الصراع . . .

تستر الرجل بالخفية في ضلته بمعتزلة مصر ، مناهم عوته ، فرشهم عروضة وديناه . سارهم وتاجوه سرهم ونجواه . . . ولم يكن يخشى عليهم غائلة من أميرهم الجانح إلى سنته ، فقد علمه ذا وفاء ، لا يتنكر لعهد ، ولا يعتل لغدرة . . . ومع ذلك فما أعجب أن تكون الحطة التي رسمها معاوية في كنفاحه قيسا ، تدور رحاها كلها على اختبار اليهود المقطوعة : أهي عارض أملتة الحاجة ، أم سليقة أنجبتها الخلائق النقية المطبوعة على كل خلة كريمة وسجية أبية مستقيمة . . . وكانت نفسه هاديته ، كما أبنا ، في هذا الميدان . ففي مرآتها يرى غيره ، فيحسب له الوفاء عجزا ، أو حيلة ، أو وسيلة . . . وقد انتهى به تفكيره في حال غريعه ، القابع هناك في مغانيه ، إلى العلم بما في يديه من قدرة وحول اجتمعت بهما له أفياض المال وسواعد الرجال . . . وأيقن أيضا أن الحيلة في جمبة قيس إن كانت معدة حاضرة فهي عدة الظلام لا يطولها حدسه وقد تطيش في استنباء كنهها ظنونه . . . كلا الفرضين لم يكن مسعفه على التقدم إلى هدفه ، فلم يبق سوى « الوسيلة » علة يفترضها لصمت داهية النيل . . .

ولم يضيع وقته ، فالعمل وحده قد يكشف له عن مسالك يشقها كيده . . . وكانت الفكرة التي لا ريب سيطرت على ذهنه تتفق ونهجه في الحياة ، وتسير وطبعه في سبيلها . إنها سليقة التاجر المنهوم للربح يلتمسه من أدنى طرقه

وإن خاض إليه على أنقاض الذمة . . . إنها شيمة المساوم التهاز ، يعد الصاع ليغم الأصوص . . . وهل يحول له بخاطر أن صمت قيس عنه وعن أضرابه المخانلين من معتزلة النيل كان ابتغاء مثل سامية ، ونبت نفس كريهة تنفض الأثرة وتدنى الإيثار . . .

وفي عجلة وأمل غمس قلمه في مداد المني الخداعة ، وزيف الأباطيل ، وبرق العروض السخية التي تغوى ، وتفتن ، وتميل بالقلوب النهمة الوصلية إلى كل ميل . . . وكتب بيد المساوم الضلل رقعة سوداء ، كلها رياء ، واقتراء ، ومرادة ملحة عن الحيانة :

« من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد :

سلام عليك . أما بعد . . .

إنكم إن كنتم نقمتم على عثمان في أثره رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربها ، أو في شتمه رجلا ، أو تسييره أحداً ، أو في استهماله الفق من أهله ، فقد علمتم أن دمه لم يحمل لكم بذلك . . . وقد ركبتم عظيماً من الأمر ، وجئتم شيئاً إداً . هـ . فتب يا قيس إلى ربك إن كنت من المجابين على عثمان . . . فأما صاحبك فإننا استيقنا أنه الذي أغرى به الناس ، وحملهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظيم قومك .

فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل . تابعنا على أمرنا ولك سلطان المراقين إن أنا ظفرت ما بقيت . . . ولئن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان ، وسأني غير هذا ما تحب ، فإنك لا تسألني عن شيء إلا أوتيته . . .

والسلام .

وختم كتابه وإن بنفسه لجزعة من مغبته أن يوقظ غضبه الثعبان النائم . وإن بها كذلك للهمة أن تصادف عنده ضميراً يكون خيالا لضميره . . . ولتنبئته الأحداث . . .

أما الافتراء فهو ديدنه . ما انتشرت أمامه قط ثمرة إليه إلا اقتحمها بلا وني
أو تلبث . . كان عماد سياسته المناهضة للإمام والمحور الذي يدور حوله تدبيره .
وحتى عندما قضى الخليفة الشريف أيامه الدنيوية ، ووسعته رحمة السماء ، ولم يدع
على هذا الكوكب الدنس إلا تراثا روحيا له نقاوة المدى في البكرة ، وطهارة
قلب المولود ، وعطر الزهرة الريانة حين تفتق عنها الأكمام — حتى بعد أن غدا
الإمام ذكرى للذاكر ، ونورا من الغابر يهدي في الحاضر ، وزادا طيبا للعقول
والخواطر ، لم ينم معاوية يوما واحداً عن رمية بأباطيله الافتراء . . وإنك لتراه
وقد غدت الدنيا بكفه ، وجثا الإسلام عند قدميه ، لا يني بأمر الناس أن يسبوا
عليه ، ويهيضوا من قدره ، ويركبوه بكل مذمة ومنقصة . فإذا قيل له ليكف
اندلاع لسانه الكذوب العياب : « إنك يا أمير المؤمنين ، قد بلغت ما أملت ،
فلو كففت عن الرجل » — أبي وقال : « لا والله . . حتى يربو عليه الصغير
ويهرم عليه الكبير ، ولا يذكر له ذا كر فضلا . . . »

وأما الجزعة على مصيره أن يرسمه قيس فنبأها مع الليلي الطويلة التي حالته
فيها اليقظة . ما كان ليقر جنبه أو يلين فراشه وذلك العملاق يتراءى له في
خيالاته كأعما يوشك أن يعبر سيناء ، ويقتم فلسطين ، ويدق عليه أبواب قصره
في دمشق الفبياء . . فلو فعل لجاءت النهاية ، وجاءته من جانبيين ، شطرها من
العراق والآخر من النيل . وهو بهما حينذاك كمن شدت أوصاله جربا إلى
فرسين ثم ضربا ليجمعا : هذا إلى عين وذلك إلى يسار . .

وأما الرجاء الذي احتوته لهفته فقد طلع عليه ذات ليلة صافية الأنجم في حساب
أوهامه وإن كانت حقا غائرة الأعين كثيفة الظلال . . إنما ضل فيها حسابانه .
بدت له كظنه من خلال الطبيعة الهادئة التي أخذت حينذاك تنفض عن نفسها
رهق الصيف ، وتخلع ثياب الهجير ، وتتعمى من أبرادها الخضر تبرد في نسمة
الحريف البليلة . . ولاحت كذلك من خلال أملة النهى الخو ، الذي حملة

كتاب وولده كتاب ١ . لكأنها جاءت به بحلم عمره ، وغاية المرجو من قدره المترفق وحظه المواتى السعيد .

فليكن له إذن وهمه . وليكن له بشره ساعة أو سويعات من ليلته تلك « الصافية — الدكناء » وهو يرتل جواب قيس له كأغنية ١ . . . ففيه متعة . وأطياف رجاء . ومزاق يؤدي عاجلاً إلى الحياة كظنه السارح الضليل ؟ . . . قرأ معاوداً وهو نشوان :

« . . . بلغنى كتابك . وفهمت ما ذكرت فيه من قتل عثمان ، وذلك أمر لم أقارفه ، ولم أطف به .

وذكرت أن صاحبي هو الذى أغرى الناس بعثان ودسهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عاينه .

وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قياما عشيرتى . . .

وأما ما سألتني عن مبايعتك على الطلب بدم عثمان ، وما عرضت على من الجزاء به ، فقد فهمته . وهذا أمر لى فيه نظر وفكر ، وليس مما يجعل إلى مثله . . . وأنا كاف عنك ، وليس يأتيك من قبلى شيء تكرهه ، حتى ترى ونرى . . . والسلام » .

وبطيه الكتاب الذى أقبل عليه من مصر إقبالة النسمة المعطرة ، طوى معاوية إحدى صفحات قلقه . إن سفر متاعبه ضخم ، والسطور التى خطها الزمن فيه تسكل فى تبينها وفى استيعاب ألفاظها المتداخلة عينا . ولكنه مع هذا قانع قرير ، قانع أيعا قناعة ، وقرير إلى غير قرار . أم قد خدعه حينذاك تقديره فعاش صدر ليلته تلك وهذا الكتاب عيش طفلة ودمية ؟ . على أية حال غمرته الفرحة المفاجئة — لا ريب — من هامة لساق . ظفر خياله السارح فطوف به كالنحلة فى مغانى أحلامه ، انتشر أمله الجامع انتشار الضوء بين وضعة النجر وحجرة الغروب . . . فهلا أمن ؟ . بل يوقن . بل يطمع . بل يبني البواذخ الشم على دعائم التصور ، وطيدة رفيعة كأنها الصروح ذات الأبراج ، فالوارد الجبار خلع جبروته : استأنس الوحش الذى تهباً طويلاً للانقضاض ، غدا وادعا حكامة ، أليفا كهرة ، حياء كعذراء ١

ما كان أيها بدء ليله ؟ .. فما يريبه الآن ، وما يشغله في مصر ، من جيرة النيل ومفازة سيناء ؟ .. هذا عهد من الداهية في كتاب ، مصانعة ، كتابعة كبايعة ، أم لا فأين الساعة ولاء قيس لعل وإنه للمليم حق العلم أنه شهيد قرية ؟ .. فيم صمته إذن عن هذه التهمة التي ألصقوها بسيده ، الموغلة في الحيف ، الغالية في الباطل ، المنسوجة من خيوط الحقد بإبرة المطامع ؟ .. كيف لم يدفع بجد قلبه ، لاحسامه ، عن إمامه فجاءت سطوره لينة على استحياء كأن قد أتت الإنكار ورضيت الإقرار ؟ ..

في خاطر العاهل ، الذي استخفه فرجه ، كانت « اوسيلة » وحدها هي التي سطرت حروف الجواب ... ذلك حسبانه صدر ليلته . وإنه ليفكر ساعة بشره هذه في أمر قيس ، وموقفه اليوم وموقفه أمس ، فلا يرى علة تفسر له نمومة غريعه المارد إلا إضماره في دخيلته العميقة كالبر هرقا خالصا محببا لنفسه ، راح يعد له ، ويصبر في حذر ، ويستأنى بزمنه عسى أن يبلغه إياه ذات يوم قابل وهو رابض هناك بجانب النيل . وما هو برود أبدأ عن وطره الخفي المأمول . وما هو بعثمه إلا هذا السكوت عن غريم صاحبه مرة ، وعن ثمالب خربت مرة ، حتى تأزف آزفة يستطيع خلالها أن يساوم من شاء على ما شاء . ولعله ، إذ ينادى النفير للحرب ، وتدوى الطبول فتتفلق الهام وتتناثر على الثرى فتات الأجسام ، عامد إلى الفرصة السانحة المرقوبة ، فناهض فيها لأمره ، يساوم أو يعلى وهو حينذاك القوى الأغلب الذي لم تصبه بعد قارعة ، ولم ترهق سيفه الحادثات الجسام . . .

ويقلق معاوية . دون هذا ويسود ليله . . . تلك الأمسية التي تبدت لعينه صافية الأنجم أخذ ينقب وجهها ضباب . كلما انطلق به الفكر ، والزمن ، في ساعاتها الوثيدة : من جبينها ، إلى النحر ، إلى الصدر ، إلى الخصر ، إلى الأطراف التي همت توفي به على النهار ، وجدها ذات وحشة وظلمة ، غارت نجما — في باله — كليلة في الشتاء عابسة وإن عرفها من بواكير فصل الخريف . . . اكتسى هيكلها كله بمثل القار . .

وكان اضطراب ذهنه ، لا غيوم السماء ، هو ما حجب صفاءها الرائق عنه ، وعبت بأمنه ، وطرده طلائع الطمأنينة التي غزت خياله الفسيح ساعة الغروب . . .

فما وراء هذه المصانعة ؟ . . ما غاية قيس من الليونة التي خطها جوابا على الإغواء والنعومة التي استقبل بها الاقتراء ؟ . . أحقا التوى ومال ؟ . . أعن حب نفع ، وصدق نية على تبادل المغائم واقتسام الأسلاب المتخلفة بعد من أنقاض دولة الإمام أم هرلين الرمال الرخوة ما تلمسها قدم حتى تميد تحتها وتنهال ؟ . . أم نعومة الحيلة المختلة ؟ . . أو تلالؤ السراب ؟ .

ذات غد غير بعيد ، حين فشل إغواؤه ، وضلت وسائله عن ضم قيس إلى صفوفه ، وتسعرت بينهما المناجزة والجفوة ، كتب إليه معاوية يذمه ويعرض به :
« إنك يهودى ابن يهودى . . . »

لجاء نعتا إن يكن لا يطابق في حقيقة صفة المنعوت فقد صور لنا رأى ناعته فيه ، ولم يكن معاوية — إذ نعت — ملهاة غضبة جارفة ، ولا أسير خيال أحق مريض ، وإعنا استملى ظروف ماضى المارد ، وعيشه الشباب بالمدينة ، وعشرته فيها قبائل اليهود جيران قومه الخزرج وأحلافهم قبيل الدعوة . . . فإن كان هكذا رآه ، فقد وفر له من طبيعتهم النهازة ، وأثرة تأسره ، وتلوى خطراته وتدفعه أمامها ريشة خفيفة في رياح أطماعه .

لتوشك إذن هذه الصفة أن تجمع الغريعين في سبيل ، يلتقيان على نفع . . . ومع ذلك فمن يدرية أنه لم يقبس من اليهود غير هذه من خبائث ؟ . . بل يؤوده أن يطعمئن له ، غدا كأمس ، وإن غدا بعد رقيق فضله وبذله مما تسعه تلك الأمانى والعروض . فهو يومه — إن مال — خائن وليه الأول : الإمام ، وهو في غد — إن وفى لطبعه — للجديد أخون ، وتلك شيمة كل غادر خؤون .
ويصابر معاوية هذه العروض المثيرة التي أمطرتها سماء أمسيته . . . لود لو انطوى في فراشه وهو نشوان بنصره صدر الليل ، والرجاء حينذاك يهدد خياله ، لكنه الآن لقي في أيدي قلقه ، وخضم أفكاره ، والوساوس التي تترى عليه أمواجا وراء أمواج . . . فذاك « اليهودى » قد حيره ، وما يحسبه ، هذه اللحظة ، إلا انطوى مثله في أمسيته ، يفكر ويعاود التفكير وقد أمسك كتابه بكف يهودية ، وراح يطالع سطوره المغوية المرة الثانية ، لثالثة ، لأمشرين بعد المائة على عادة إسرائيل الحذرة . . . أفقتله ياترى الوعود . . . بل كلا . أيعا رجل غيره ولو كان غرا لا تجوز عليه هذه الحيلة ، التي لبست

بالعروض السخية وبطنت بالأمانى المعسولة . . . وما كان قيس بالغر الذى يفتنه
الزخرف البادى على اللب الزائف الموه . . . ليس غرا فبرتمى فى لهفة على قيس
الضوء الذى شبه مساومه ارتعاء فراشة فى لسان الالهيب . . . ليس غافلا فيقطع إلى
خيال الرضيخة السمينه المشتهاة ، للنعكس من خلال كتاب الإغواء ، كأنه محروم
منهم . . . ليس أحق — قبل هذا وذاك — فيؤمن بصدق النية التى لوحث له
ينصف ذلك الملك المؤمل الفسيح . . .

وعندئذ حق لمعاوية أن يلوم نفسه أعنف اللوم ، ويغرق فى عذرها كل
الإغراق ، فلو اقتصد فى عروضه لكان خيرا له ، وأجدى عليه ، وأحرى بها
أن تبدو للعيون صادقة فتميل إليه نفس قيس لو شاء أن يميل . . . ولكنه أباحها
بقلمه مالا يبيحه بقلبه ، ومط أمامها رقعة السخاء مطا شديدا حق رقت وكشفت
من خلال شفافيتها خدعته . . . أم لا ، فما الذى بقى خالصا له . . . هو الخليفة
المرجى ، من الدولة التى وسعها أطباعه وسلطانها خداعه ؟ . . . ما الذى تحتويه كفه
وقد أهدى مصر لابن العاص ، وأقطع العراقيين قيسا وله غيرها ما أحب لو شاء
وفرض لأهله أيضا الحجاز ؟ . . .

كان فلك أمسيته إذ ذاك قد أفلح لغايته ، عند شاطئ السحر . . . والنجوم فى
الأفق وسنانة . . . ونسمة الحريف الندية تطل وجهه المحموم . . . كل شيء حوله
احتوته الظلمة التى أراقها سواد أفكاره ، حتى البواذخ الشم من خيالاته التى
تبدت له صدر الليل كأنها الصروح ذات الأبراج . . . ومع ذلك فما زال يصابر
جزعه ، ويتشبث بأوهامه . . . وإنه ليمد عينه من خلال ستر الظلام فيتبدى له شعاع
كالخيط ، يسرى مخافتا من ناحية النيل — من عامل مصر — من نفسه اليهودية
النهضة . . . ألا لو يصدق حدسه فإن المارد إذن لمطواع ، حريص على ما سحا به
حرصا ينميه خوفه أن تفلته الفرصة ، وجشعه الذى ماله مثيل إلا فى إسرائيل . . .
ولسوف يلوح له ثانية بوعوده ، وبوعيده ، فتستجيب فيه طبيعة اليهود ، وينقاد . . .
وكتب إليه :

« . . . قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلما ، ولم أرك تباعد فأعدك
حربا . . . وليس مثلى يصانع بالخداع . . . فإن قبلت الذى عرضت عليك فلك
ما أعطيتك ، وإن أنت لم تفعل ملائمتها عليك خيلا ورجلا . . . والسلام »

١٠

كان كالبادي المسعر ، أليف ظعن وترحال . أكل قدمه الرمل ، وهقق
القيظ إهابه ، وتحلب العطش ريقه . . . ولكنه سائر شوطه ، لقدر مقدور . في
النهار والليل ، تحت وقدة الشمس ، وفي قرة الظلمة — حق في كوايبس حلمه
التي تطالعه كل لحظة إعياء تقسر رأسه على النهويم وجوارحه على الارتخاء . . .
إنه لا يأمن التروقف . بحسبانته — لو فعل — أن حرارة الحياة في أعضائه
ستخمد ، وأن قبره سينشق عند منتهى أثر قدميه . الموت يرصده في كل مكان
فلا أمان بمكان . إنعاسير ، ومماودة سير ، وسرى يسلم إلى سرى . فعناء وحياة
خير من قرار وموت . . .

ومن خيالات وهمه كانت النجاة تلبثق له ، كشمعاع النور في ليلة ضريرة ،
كالنبع في الصخر ، كالظل في الفلاة الجرداء . . . فإن يكن سرايا فإنه أمل ،
ومهرب من يومه وما احتوى من كرب ، ونظرة إلى غد باسم ذي ضياء ،
ومسرب ذي زروع . . .

وكان لا يثق بالسراب ، ولا يؤمن ؛ ولكنه انطلق نحوه ، بلا فتور ، ففيه
راحة إلى حين . راحة لنفسه الحائرة ، وقلبه الخافق المقلقل . فمن ذا يدريه ما يضمه
ألقه عند التقاء الأرض بالسما : خيال ماء أم هو ماء . . . وشبح دائرة
أم دائرة ؟ . . . والأمل دائما يسبق الرؤية . والرجاء شطاح ، بجناح وبخير جناح !
فلعله — إذا انخدع ساعة لوهمه — أن ينخدع بعدها وهمه ، فتبدو النجاة
من قريب . . .

لكن الليالي حدثته غير شجوه . . . فالماء خيال ، والدائرة طيف ، والرجاء
هباء وقبض الريح . . . المغاني الحضر منمته جناها : ظلها تقلص ، ونبعها غاض .
لأشجرة ولا قطرة وإن ثقلت العصون ، والتف الشجر ، وجرى الكوثر بفيضه
على الأيام بجرى الشمس والقمر . . . كلاهما انحرف النيل ، وأتى له أن يعيل
وصاحب أمره ومالك عنانه قائم دونه صلبا كقناة ؟ . . .

هو كالرمح — ذاك الرابض هناك في مصر — قد يشدخ ولكنه لا يلوى ،

أو يكسر ولا يعصر . ولقد ظن معاوية . إبان خياله وتغنيه أنه لا بد يوما لاويه .
فها هو اليوم ، وهاهو قيس ، كالم يعهده ، ثابت ، شديد . عنيد لكأنما
الإغواء قوى عزمه ، والوعد وثق مراسه ، والوعيد زاده صلابه كالماء
للحديدة المحماة .

« العجب من اغترارك بي ، والطمع في . . . »

أنسومنى الخروج من طاعة أولى الناس بالإمرة ، وأقولهم للحق ، وأهداهم
سبيلا ، وأقربهم من رسول الله وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك — طاعة
أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقولهم للزور ، وأضلهم سبيلا ، وأبعدهم من الله
ورسوله وسيلة : طاغوت من طواغيت إبليس ؟ . . . »

إنها إذن سراب خادع تلك اللعة التى تبدت لعينة ذات مساء من أماسى
الحريف وقد بعث النظر إلى أفقه البعيد عند التقاء سماء حلمه بجنة النيل . وضح
عبث التنى ، بغير جدوى انتظاره ، وتربصه ، ورفقه الموه المزعوم وكان
يعلم من البدء أنه مخدوع عن الحقيقة ، كالبادى المصحح الذى ضل سبيله فلم يكفه
المهجير عن المسير . لكن هذا كان بالأمس ، اليوم أيضا ، اللحظة التى سلفت
ورود هذا الكتاب العنيف . فإن يبق له الآن شيء من راحة البال فهو يأسه
من غريعه ، واليأس طلى أية حال إحدى الراحات

والقلق أيضا قد عاده ، أشد وأمض فما نسى قط من بعد ، خلال حياته
الطويلة — وحتى فى ثنایا انتصاره ، ذلك الوعيد الذى لطمه به قيس ، ورماه
فى وجهه كقبضة تراب . كان خطرا يرصده ، سيفا مصلتا فوق رأسه قد عاق
بمثل نسيج عنكبوت فإن خشيه فقد خشى قبله اللحظة المجهولة التى ينقطع
فيها خيطه الواهى فيقد رقبته أو يفلق هامته .

ويعاود مطالعة ذلك التهديد وهو مشغول :

« تملأ طلى مصر خيلا ورجلا ؟ . . . »

والله ، إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لئود جد
وإنه لئود جد ! طالعه سعيد ، وقدره الآن فى عينه وإن ركه غريعه بالتهديد .
فالآن قد انكشف الستر ، وبرز الخفاء ، ولم يعد دعة مجال لمطمع فيه ، وهل
فى سراب جنى وظل ؟ فما وعد حتى أخلف ، كطبع اليهود !
وكتب لقيس :

« . . . إنك يهودى ابن يهودى . . . إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك ، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك . . . »
غير أن غصته لم يطفئها التعريض . وغضبته لم يخمدها ذمه وتهديده . . . وكان
ثأرا كأعصار وخائفا كعصفور في برائن حداة جارحة ، حائرا كوحش أطبقت
عليه الشراك ، لكنه استقبل نفسه بوجه واستقبل قومه بآخر . فإن هو إلا الصباح
حق طوى همومه ، ولبس قاعا كشيئا على كربه الثقيل ، واغتصب بسمة الرضا
والارتياح وهو يخطب الناس :
« . . . يا أهل الشام . . . »

إن قيسا قد تابعكم ، فادعوا الله ولا تسبوه . . . لا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا
شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته سرا . ألا ترون ما يفعل بإخوانكم الذين عندهم من
أهل خربتنا ، يجرى عليهم عطاياهم وأرزاقهم ، ويحسن إليهم ؟ . . . »
وما يضيره إن كذب ، فلك شيعة فيه . . . فالكذب مركب هين يباغى
هدفه ، على نفسه أهون من صدق يقعده ، ويكبح طمعه ، ويتخلف به في سباق
الحياة للمجد . . . وما يكرهه الساعة من الناس حوله ولن يتبين أحدهم أنه مخاتل
كذوب ، فأيا أمرىء منهم جاءه النبأ من مصر يتخلف قيس عن معالجة الشام
بالمهجوم ومبادرة خربتنا بالشدة ، حرى بأن يظن به أبعد الظنون . . .
بل أولئك الذين لم يدوروا في فلك معاوية ، كانوا عدوا له عتيدين ،
يتربصون به ، ويرصدونه كل مرصد ، ظنوا به كظن أولياء الماهل المخاتل ،
وتبدت أمامهم — لجزعهم — قدما فيس على هاوية . . . ليس لحسب عامة
الناس بالحاضرة الجديدة ظنوا به ظن سوء ، بل الخاصة فيها ، الخيرة ، الصفوة
الخالصة من رجال الإمام الأئمة الذين يؤلفون من أعوانه طليعة الصفوف . . .
وجاءت منهم الإمام طائفة ، تدفعها الريبة ، خدته في الأمر وإنه ليوشك
حينذاك على الخروج للنخيلة بأجناده ليتشرع منها لحرب الشام ، فلا يكاد يلقف
من شكوكهم همسة مخافتة حتى ينبرى يذود عن خديته .

« والله ما أصدق بهذا على قيس ! »

فيبادره منهم ابن أخيه : عبد الله بن جعفر ، لا يداجى ولا يعهل ، ملقيا
بظنه وشوراه .

« يا أمير المؤمنين ، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . . . »

أجل فثمة شبهة غير منكورة وإن غشاها على إيمانه الوطيد في وفاء قيس .
وليست بالأولى . لا ولا الثانية ، توالى النذر عليه جذيرة بأن تزلزل يقينه كلما
حملت له عيونه المبثوثة هناك بالشمال ، مع كل إشراقة ، وفي كل مساء ، خلال
هذه الفترة الأخيرة من الكفاح ، أنباء وفاق سرى تهاشم الناس بانعقاده بين
رجله وبين صاحب الشام ، فلو صدقته فصحبه الذين يحاورونه الآن قد صدقوه
أيضا النصيحة . . .

ويفكر وإنه لنهب بين يقينه وبين الظنون . ويتدبر الخطوة اللازمة في أناة
وروية . . . لقد سمعه أن يجنح إلى قوله السوء ، ثم يمدل نصيره ، ثم يقطع الثقة
المدودة نحوه إلى غير رجعة وما هو إن فعل بالجائر . قد سمعه اللحظة أن يعدد
حربا وكان من قبل يعدد اضماتقة . قد يجيزه الحذر بعد الأمان أو يسمه كوسمه
القدرة . . . ولكنه ليس بظنين — ذلك العامل الطوال الأجرد ليس عنده
بتمهم ، بل ولى وفي شكور مشكور سما بنفسه عن الحيانة . وماهى إلا فرية صبا
صنائع ابن هند في أسمع العيون ، قد أعقها لسان كذوب ، ونسج وشيها الخبيث
قلب دءوب على الدسيسة ، فمضت يدرنها وراء الحدود . . .
ويثنى عبد الله :

« اعزله يا أمير المؤمنين . فوالله لئن كان هذا حقا لا يعتزل لك إن عزلته —

اعزله ا . »

ويعلو جرس نصحه إلى صيحة ، ففضية ، فتورة تهز قلبه وفرعه . فإذا رجمه
في الآذان دوى ، وفي الأذهان نذير ، يضطرب ويقور فيدفع هتافا تلمظته
الشفاء كالزئير :

« اعزله يا أمير المؤمنين ا . . . »

غير أن الإمام ينطلق عنهم بعينه إلى بعيد . . . إلى غبرة في الأفق تعلو أمامه
كالسمابة ، وتطير صوبه كالدخان . وإلى ضجة تخرج من الغيمة الزاحفة ، في بدئها
مخافتة تخطو النسمة ، ثم تدنو فتعلو . ثم تبدو نواتها وتتسق خطواتها حتى تعميل
نحوها العيون الرقية . . .

وعندما ينجلي الغبار ، ويترجل الفارس ، وتأخذه الأبصار . يصمت القوم
من توجس ، وتحتبس صيحاتهم المتمردة وراء الأفواه . فعلى الرجل وعشاء راحل
أبلى السرى وأعبي الرواحل . فى عينيه سهوم حائر ، وفى وجهه وجمة محاذر ...
وفى سكون ثقيل مريب ، يميل على أذن على يسر إسراره ، كأنما لسانه قلم
يرسم فى صماخها حديثه . . . فإذا فرغ ، دفع إليه بكتاب فى رقعة ، وعهل على
أهبة ينتظر . . .

فلولا أن أودع الإمام وجهه الكتاب ، يكتب على سطوره ببصره وخاطره ،
لبدت لهم خلجات نفسه بلا حجاب عميقة الأثر فى جبينه . لكنه لا يبيحهم
مشاعره . ويعضى معاودا يتلو من الصحيفة كلاما ، بناظره دون ثغره ، له فى
فؤاده مثل وخز الرماح :

« للأمر معاوية بن أبى سفيان من قيس بن سعد :

سلام عليك . . .

أما بعد . . . إني لما نظرت لنفسى وسى ، لم أرى سعى مظاهرة قوم قتلوا
إمامهم مسلما محرما . برا تقيا . فاستغفر الله لذنوبنا ، ونسأله العصمة لديننا .
ألا وإني قد أقيت إليكم بالسلم ، وأجبتك إلى قتال قتلة عثمان إمام الهدى
مظلوما . . . فعول على فيما أحببت من الأموال والرجال .
والسلام . . . »

ويعاود أيضا . يتلو بعينه ولا يعقب . . . إنهم حوله كبيان عليه مراقب من
عيونهم تربصت بأفكاره . كأسوار قلعة . . . كطوق النجاة . . . لكنه
لا يبدى لهم إلا عينا جوفاء تحيد سريعا عن نظراتهم اللامعة المخالسة لتبدو بنجوة
كالحصاة الصلدة إذ يطلها ندى الصباح . . . إنما شغلته صورة تشعبت خطوطها
من سطور الكتاب ، ثم تقاربت ، ثم تجمعت فى أضواء وظلال رسمت الحياة
الهدية فتنة تستذل الرجال ، بها هوى ختال ، وعابد ضال . . . أفكذلك يريق
الحاضر من سوائه ظلمة تكفن فى سوادها القابر الهيد ، وسيرة كانت أمس
كالشمس وضوء ، ونفساً منيرة على الغواية منعة أحد على عواصف الريح ؟ .
أما الجمع فقد تلقاهم الرقعة التى مدحا إليهم الإمام ، من حذهم وحيرتهم ،

إلى مثل نوء عفيف من العواطف ، يضطرب بهم ، ويدوم ، ويدور . في وجوههم
دكنة الحزن ، وشحوب الأسف ، وحرمة الثورة . فما هذا بقيس الذي عرفوه .
ليس هكذا تستطيع أن تجمع الأخيلة فتخلط الخبيث بالطيب ، وتجمع النقيض
للقبيض . أسيد الخزرج ، علم الإسلام ، ابن النقيب سعد بن عبادة الذي احتضن
الدعوة وإنها لطفل هزيل مهيض ، والدعاة وإنهم لحفنة يتخطفهم الخوف ، هو
الذي يخط مثل هذا الوفاق ؟ . . . لقد يوشكون أن يحسبوه أحمق ، أو قعد ،
أو أحمق ، ولكن ظنهم ، قبل يومهم هذا ، ما كان قط مستطيعاً أن يقرنه
وخيانة . . .

كلهم غاضب ، وكلهم أسيف . على ملاحظهم مثل غبرة . وفي حلقهم شجى ،
وفي عيونهم وميض نار . . . حق الحسن الذي تشرق من جبينه سحابة الطباع ،
وترف الطيبة والسباحة في بحياه . . . وحق الحسين الذي كان ذكرى حية لجده
رسول الله تعيش فيها قسماته . . . وعمار أيضا الآدم الرقيق الذي لم يترك تقدم
العمر فيه بقية لوجدة . . .

كان لهم : « اعزله ! » . . . وصوتهم « اعزله ! » . . . وأنفاسهم المتذائبة بين
الصدور والناشق : « اعزله ! » . ثورة وحنق . صخب وغضب . عواء وزئير .
لنهرت الأرض من هتافهم ميادة كمن زفير بجوفها انشق عنه قلب بركان .
اعزله ؟ . . . بل لو كان حضرم معاوية لهتف مثلهم : « اعزله ! . . . »
فإنها هدفه . سعيه وقصاراه . . . إنه ليبدو الآن للإمام ، تحت شعاع البصيرة
الكاشفة ، بقصره هناك ، كشيطان راح ينقث في روعهم من بعيد أحرف اللفظة
المؤلبة . . . أم يدع قيساً وجته ؟ . . . أم يتركه شوكة نخزه ؟ . . . أم يسلمه أطماعه
العريضة ملهاة في كفه يعبت بها ثم يحطمها حينما يشاء ؟ .

ورفع على يده إلى صحبه يكفهم عن اللقط ، فالأمر إن خفي عن إدراكهم إبان
السخط ، إنه لشاخص تحت عين الروية ، عار بلا دنار ، ظاهر بلا ستار . . .
وما هو قط في قيس بمستريب . ولا بمنكر وفاء . ولا بعازله اليوم وإن تجيشت
عليه مواجد رفاقه . ولقد ينثر الآن جعبة الفعال التي أنجزها بعصر عامه فيرى فيها
أعمالاً يبدو كتقاعد ، وأناة كتردد ، وسكوناً كغفلة . ولكنه مع ذلك لا ينبو
بذلك العذر الذي ساقه إليه قيس عن التهمل والسكون والأناة :

« ... إن قبلي رجالا معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم حتى يستقيم أمر الناس ، فترى ويروا رأيهم .. وقد رأيت أن أكف عنهم . ولا أتمجل حربيهم ، وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل قلوبهم ، ويفرقهم عن ضلالتهم »
ولقد فعل ما كتب ، وأمن الخائف ، وأمهل المريب ، وكان بذلك هدفا سهلا لخصومه وأصدقائه على السواء . فلعله الآن أن يقطع صمته ، ويجمع حزمه ، وينفذ ما أبلغه إياه إمامه ساعة خروجه إلى قاعدته فيبدأ ضربته قبل أن يستطير شر أولئك المعتزلة بعصر ، ويقوى بهم حزب الشيطان .
وعندئذ بعث إليه الإمام :

« ... سر إلى القوم الذين ذكرت ، فأب دخلوا فيما دخل فيه المسلمون وإلا فناجزهم ا . »

ومع ذلك فقد أبي قيس ... أية خطة تلك سوغت له أن يدع عدوه وشأنهم ، وإن اليوم ، بل الساعة ، بل اللحظة تزيدهم جميعها منعة وعدة بعد إذ كانوا قلة ضعيفة تهاب اللقاء ؟ ... بذهنه فحسب ما أضمر ، فلم يطلع أبداً على تدبيره صباح ؟ .

١

حم القتال ا ... لا فرجة اليوم لطاعة ، أو موادة ، أو وفاق ... العيون
تلتهب . تزلزلات بقيعها الصدور . بانث العقول في مشافر السيوف وفي رؤوس
الأسنة . وأينما تحرك البصر أو تربص السمع كان فحيح ووسوسة ، وألوية
وبنود ، وصليل وقمقمة في كلا دمشق والكوفة — في القصر والرحبة .
ها هنا جموع تلتها جموع ، وزمر محشودة ، وصيحة للدم . وهنا نداء ودعوة ،
ولفظة جهاد ، وحركة إعداد . والقلوب التي حلت بالوحدة المرتجاة قشع حلقها
تردد الضجيج ا ...

لكن قلبه كان قد أشرب الرحمة ، ونفسه صفاء ، وروحه تملأها اللوعة .
فما كان أشقه من سفر على فؤاده تحفه من كلا جانبيه الجاهم ا . وما أبغضها
حنة ، هذه الحرب ، تخبر فيها النيات ، يقتل الرجل فيها أخاه ، والوالد ولده ،
والابن أباه ا ... أرض محراتها سيف ، وبذرها مهج ، وربها دم ، وطلعها
المجتنى بعد هذا كله قبور وأحزان

ولم يكن — مع ذلك — ليقمده أسفة ، ولا الحسرة الحبيسة بقلبه توشك
أن تسبق الزمن فتفيض كالدمع قبل أن تتبدى أمام أعين الحياة تلك الكوارث
للرقوبة ... وهل كان بيده أن يغير الأنفس ؟ .. إنه كافح في هذه الناحية
كفاحه ، ينطقه ، وسن قلعه ، حتى تهاوى لسانه وكل بنانه . ولكنه ، والوفود
تتري عليه ، وصيحة الحرب تلوكها الخناجر ، أتبع محاولاته بأخرى جديدة لعلها
أن تبقى على السلام

وكانت قدمه لم تسر بعد شوطها في طريقه إلى النخيلة عندما جاءه الجواب .
هذه المرة لم يحدث معاوية ، ولم يلتبس من لدنه الفصل أو الفء للصواب .
فبعسبه ما كتب له ، وما لو كان قد أتبع إسماعه الجلاميد لخرت صعقة تستجيب
للهداية ا ... إنما كتب دونه لصاحبه ، مستقر سره ونجواه ، عمرو بن العاص :

« ... إن الدنيا مشغلة عن غيرها ، وصاحبها مقهور فيها ، لم يصب منها
شيئاً قط ، إلا فتحت له حرصاً ، وأدخلت عليه مؤونة تزيده رغبة فيها . ولن

يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ... فلا تحبط
أجرك أبا عبد الله ... »

وأحبط عمرو أجره ... سخا بآخرته وبخل بدنياء . فثمره في يمينه اليوم
خير عنده من جنات وظلال ، وخر وعيون ، وهور عين !

لم يجد جهده ، هذا الآخر ، على السلم مثل خردلة ، ولم يدع ثغرة للرجاء
إلا في ويل ، وحرب مجلية تسوق لدمار ، وفتنة حصادها خلاف وفرقة ، طويلة
الأجل إلى أجيال ، فقد أبت نفس ابن العاص إلا أن تعيدها جزعة :

« الذي فيه صلاحنا ، وألفه ذات يئنا ، أن تنيب إلى الحق ، وأن
تجيب إلى ما تدعون إليه من شورى ... »

فكان بجوابه العجيب أشد غلوا من رفيقه ، وأبعد في العنت والعناد . فتح
باباً في القضية لم يفتحه قبله سواء ...

وزم الإمام شفتيه في عزم ، على غضبة نائرة ، وهو يطوى الكتاب الذي نقل
إليه صورة أخرى من صور الأثرة . ابن النابغة ووليه سبان ، مرثى ومرتأة ...
ولولا أنه على ، بخلقه على المناقص ، عف اللسان والفكر ، لجال تلك اللحظة
بذهنه ما جال حينذاك بخواطر الناس ، فرد كئلام بنوة الشبيهين جميعاً إلى
أبي سفيان ...

بل قد عصمته أيضاً سجاياه أن يبيع أصحابه الخوض في أنساب أعدائه ،
وإطلاق الألسن تتناولهم من أساليب الدم والمعاينة بما قد يباح . وإنه ليعلم أن
حجر بن عدى ، وعمرو بن الحلق ، جهرا مرة بالبراءة واللعن من أهل الشام ،
فلا يمهلهما أن يسيرا المواجد ، ويقول :

« كفا ... »

فيحاوره الرجلان :

« يا أمير المؤمنين ، ألسنا محقين ؟ »

« بلى . »

« أو ليسوا مبطلين ؟ »

« بلى . »

« فلم منعنا من شتمهم ؟ »

قال :

« كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين . ولكن . . . لو قلم مكان لعنكم إياهم ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، وأهدم من ضلالتهم . . . كان هذا أحب إلى وخيرا لكم . . . »
وتوالت عليه الوفود والزمم ، كلهم قادم كأن لهجرة في الله ، قد خلف أهله وراءه ابتغاء الجهاد . فما كان عمرو في اعتقادهم بعاص ، ولا معاوية بمتحدر ، ولا من تابعهما على الفى بظنين . . . إنما قوم عدوا حق الله ، وأدبروا عن سبيله أن صدعوا الأمة بظلمهم فصدعوا الدين . وإنهم لينسون ربهم في غمرة انكبابهم على الحياة فيدعهم في العماية أدلة لإبليس . . . يصف غاياتهم المضلة الضالة ، وحوافزهم الخاسرة ، عبد الله بن يديل بن ورقاء الخزاعي ، فيقول للإمام :
« لو كانوا الله يريدون ، أو الله يعملون ما خالفونا . لكن القوم إنما يقاتلون فرارا من الأسوة ، وحبا للأثرة ، وضنا بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التي في أيديهم . . . »

ويقول عنهم المرقال : هاشم بن عتبة بن أبي وقاص :

« . . . نبدوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرّموا حلاله ، واستولاهم الشيطان ووعدهم الأباطيل . . . »
وكان قدر آجالهم في نظرة عمار :

« إن سفك دمائهم ، والجد في جهادهم تقربة عند الله . . . »

كذلك كان أصحاب علي ، وكذلك صحت منهم المزائم عندما تشرعت في أكفهم البوادر الصقولة ، وتهايت لهم ضواير المطى تهم جميعها أن تجوز بهم البادية من سواد العراق إلى غوطة الشام . وما كان سفرهم إلا كحجة غدت عليهم فريضة ، وشعيرة من شعار دينهم مستحقة الأداء . . . وليس بينهم سوى قارى وناسك ، وعابد ، الليل والنهار في التهجّد لديهم سواء . الأرض لهم مسجد ، والزمن صلاة ، والعمر عارية ، والآخرة وحدها الحياة . . .

ونادى بينهم مناديه :

« أيها الناس . اخرجوا إلى معسكركم بالذخيلة . . . »

ثمضوا إليها على الظهر والقدم . إن يكن لخطوهم حسيس على الثرى الندى ،
وفي برودهم حفيف ، وفي سلاحهم رنين ، ففي حلوهم دعاء وذكر وتسبيح لها
في الفضاء الفسيح جلجلة . . . نهر من الرجال دافق ، منبعه الكوفة ، وعجراه
ذلك الطريق للنساب بحذاء الفرات نحو البلدة الصغيرة انسياب ثعبان ، ومن
دون ذلك له روافد وجداول من بحيشة البصرة وأصبهان والمدائن وغيرها من
بلاد أقبلت تغذى ذلك النهر المتلاطم الطويل . . .

وأصبحت النخيلة وهي محشر لكل صاحب جبهة سوداء ، يبس جبينه من
كثرة السجود ، وأصبح معاوية وإنه لملى جزع يأتيه نبأ هذه الحركات منجبا ،
ساعة ساعة ، كأنه خلق سلسلة . فلا يكاد يتبين فيه الجد الأجهم ، والنهاية المخوفة
المقدرة ، حتى يفزع إلى رجال إقليمه :

« يا أهل الشام . . . قد كنتم تكذبوني في علي ، وقد استبان لكم أمره .
والله ما قتل خليفكم غيره . . . أمر بقتله ، وألب الناس عليه ، وآوى قتلته ،
وهم جنده وأنصاره وأعوانه ، وقد خرج بهم قاصدا بلادكم ودياركم لإبادتكم . . . »
أما الحق ، فالإمام لم يرحل إلا وقد تعاقبت زمر الناس على معسكره ، من
حواضر ملكه وبواديه ، على وفودهم أعلام من رجالهم لهم بلاء ، في سيوفهم ردى
وفي قلوبهم أمن ، وفي حلوهم شهادة . . . فالجرب قد دوى بها النفير ، والجهاد
نشر راياته ، واللجنة قريب . . . وما في البلاد رجل مست روحه نفحة إيمان
إلا تشرع لها بإيمانه ، ونهياً بصبره ، وتعجل من خلال لفحها ونقعها ودمها سبيله
إلى موعود ربه الذي وعده الثقة الأبرار . . .

وفي مسيرهم من الكوفة إلى النخيلة ، كانت خواطرهم ما تزال نشوانة بحديث
الرجل الذي تألفتهم كراشم سجاية ، وازدراؤه بدنياء ، وفناؤه — من يفاعه ،
إلى شبابه ، إلى كهولته حتى يومه ذاك — في الله :
« إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته . . . فأنصبوا أنفسكم في أداء
حقه ، وتنجزوا موعوده . . . »

وعلى رنين السلاح ، ومطيم تخب ، وأقدامهم تدرج بهم على الرمال ،
راح يتردد كالصدى في آذانهم مع الصليل ، قول الحسن الذي تزودوه قبل مخرجهم
إلى النخيلة :

« . . . لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدهم . فاحتشدوا في قتال عدوكم : معاوية وجنوده . ولا تحاذلوا . إن الإقدام على الأُسنة نَجدة وعِصمة ، لأنه لم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة . . . »

وبين إيمانهم الذي نحلهم الثقة ، وعزيمتهم التي وهبتهم الإقدام ، ظلت صيحة الحسين تفرع سمعهم كالنذير ، لتجنبهم مهاوى الغرور والهلكة .
« . . ألا وإن الحرب شرها ذريع ، وطمعها فظيع ، وهي جرع متعساة فمن أخذ لها أهبتها ، واستمد لها عدتها ، ولم يألم كلومها عند حلولها ، فذاك صاحبها . ومن عاجلها قبل أوان فرصتها واستبصار سميه فيها ، فذاك قمن ألا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه . . . »

وقد أعدوا ، ولم يشدوا إليها رحالهم بغير زاد . . . عديد وعتاد ، وعزيمة واعتداد ، بين يدي حنكة وبقظة ، ولئن قاربوا حلبة الصراع وإن عدوهم حينذاك ضمفان ، فكذلك دائماً أصحاب الدنيا أوفر نقرأ ممن نذروا حياتهم للشهادة ، وآثروا ما عند الله . . .

وتواثبت بهم خواطرهم ، وظفر الخيال قبل الخيل ، وسبقت العقول العقائل إلى ساعة في الزمن تطلع النصر في تاريخهم شمسا قانية ذات دفء ، بعد زهمير هذا الشتاء ، حرها كفاح ، وأشعتها دم . . أما الآن فهم على أهبة ، ينتظرون منه أمره لينطلقوا . في أثناء الفرات ، أو محاذاة دجلة ، أو مع البادية الجرداء التي يضمها الرافدان وهي كبعير السقاية يحمل الماء وهو ظمآن . . إنهم لن يمنعوا كأطيار ضالة وإن ودت جموعهم لو كانت من ذوات الجناح ، ولن يقطعوا الشقة كوحش الفلاة تنخبطه الوهاد والروابي وإن مائلوا الوحش في الظفر والنباب . . . إنهم من هدفهم على بيئة ، ومن خطوهم الوشيك كهذا النهر الذي ينطلق فلا يجاوز مجراه . . . وها قد مضت قبلهم طلائع ، ترود الطريق ، إلى حيث وجار الثعلب الختال في الشمال ، غدت لهم كشمع لسوف يسرون في ضيائه . . . ثم حانت لهم لحظتهم المرقوبة ، عندما وقف منهم الإمام يأمر جعافلهم المسكتلة بالتقدم وهو يرنو بعينه صوب ماء الفرات :

« . . . إني بعثت مقدماتي ، وأمرتهم بلزوم هذا اللطاط حتى يأتهم
أمرى . . . »

ورد طرفه إلى بعيد ، نحو دجلة الذي لا تلمحه من مقامه في معسكرهم
الأبصار وإن يسر أن تراه عين التصور ، وأنهم يقول :

« . . . وقد أردت أن أقطع هذه النقطة إلى شريعة منكم موطنين بأكناف
دجلة فأنهضهم معكم إلى أعداء الله . وقد أمرت على المصر عقبة بن عمرو الأنصاري ،
ولم آلكم ولا نفسي . . . فإياكم والتخلف والترص ، فإني قد خلفت مالك بن حبيب
اليربوعي ، وأمرته ألا يترك متخلفا إلا ألحقه بكم عاجلا إن شاء الله . »

فتهاقت كتنائبهم بهليل ، وخفقت الرايات ، وغمر النفوس غامر الشوق
للجهاد ، والرضا بالمسير ، والفرحة بالمصير الذي دنا وإن كان رحلة بلا معاد ،
وهجرة آمنة تنجهم القبر وتسلبهم العمر . كلهم قرير أما مالك بن حبيب فمحزون .
وإنه ليأخذ بعنان دابة الإمام فيلويه بين أصابعه في اضطراب ولهفة . ويغضى
بعينه فيأبى دمه أن ينطبق جفناه . قلبه يضطرم ، وثرعه يختلج ، وكيانه يهتز
بعثل رجعة محموم . ولكنه يغلب أساه ، ويقول هامسا بصوت كله ضراعة :
« يا أمير المؤمنين . . . أخرج بالمسلمين ، فيصيبوا أجر الجهاد والقتال
وتخلفني في حشر الرجال ! »

فيرق له القلب الكبير ، وتربت كتفه اليد الحانية ، وتداوى حزنه النبرات
الرحيمة :

« يا مالك . . . إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئا إلا كنت شريكهم فيه .
وأنت ها هنا أعظم غناء عنهم منك لو كنت معهم . . . »
وتحركت دابته فتحرك الناس .

ورجز حينذاك راجز :

« يا فرسى سبرى ، وأمى الشاما وقطعى الحزون والأعلاما

ونابذى من خالف الإماما

إني لأرجو إن لقينا العاما جمع بنى أمية الطقاما

أن نقتل العاصي والهاما »

وعندما توالى الكتاب ، وأدبرت عن الديار ، شاعت البسمة في ملامح
خفير ثلاثة ، عملاً منهم العيون والثغور . فلقد خرجوا الآن مخرجهم هذا عن
بلادهم وهم أعزة ، طوعاً لا كرها ، لبلاء لا بإجلاء . . .

وأولئك فريق ممن كان قد نقام عثمان ، وأخرجهم من ديارهم بالكوفة
إذ عاتبوه في عامله عليهم سعيد بن العاص ، نبوا بصلفه ، فدفع بهم إلى ابن هند
يسومهم من تجبره ، ويسقيهم الطوان . . .

وتلا منهم جندب بن زهير والرواحل تسير :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين
أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . . »

وهز في عينه قناته وإن عينه لتومض بمزموه وغضبته وهي تتجه كالشهاب
إلى ناحية الشام . . .

وهتف صاحبا :

« صدق الله العظيم » .

ثم تبعاه . . .

٢

مضت إلى وجهها مقدماته : اثنا عشر ألفاً مكتبة ، كأنها السيل وهي تئرم
الفرات في زحفها السريع الثابت ، مغربة بثقلها إلى الشمال ، نحو غاية لها مرومة
لن ينالها اليوم إلا السلاح . . . كل راكب فيها وراجل يعرف قصده ، ويسمى
واجبه ، ويسير على جادة من أوامر مولاه كالصراط . جمعهم خرج في الله ،
ينصر حقه ، ولا يلتوى قيد شعرة عن الشرعة القويعة . الكفاح الذي يطلبونه
ليس وسيلة لدولة ، بل جهادا في دين . والأطراف والجحاجم المتحفزة للتناثر إن
هي إلا دعائم في بناء « الإمامة » نذروها اختيارا ، لا لبنات تقيم معقل
« الإمام » . . . فإنما الله يريدون .

السلطان الزمني لم يكن لهم فتنة ، ولا هدفا يرمقونه أثناء زحفهم بالقلوب

المشوقة والعيون النفاذة إلى مستقره البعيد كالشعاع . ولا جنة يفيثون إلى جناها
الشهى وظلها المديد بعد كد الصراع . . لا مرمى ، ولا قصد من متاع هذه الحياة
وعناصر الناس والجاه — بل الإسلام الغاية . . .

وكانت كل حركة محددة ، وكل خطوة مسددة الطريق مرسوم . والخطوة
مرسومة بما احتوت من دفاع ومن هجوم . بل شؤون الأجناد ساعة السير ،
وإبان الرقبة والانتظار ، قد أعدت أوفى إعداد وأحكمت بأدق مقدار . . .
بل سيرة الجيش ، فرادى ومجموعة ، فيما يجتاز من بلاد ويلقى من ناس ، مقدورة
كأنها صورة يحدها إطار ! . . لم يدع على أمرا إلا دبره ، ولا شيئا إلا أحاط به
وأحصاه . لا هنة . لا شاردة ولا واردة . وعندما انطلق قائدها : زياد وشرع ،
على مقدماته بجانب الفرات ، سبقته إليهما نشرة منه ترسم الخطه المثلى لسياسة
الزحف والرصد والاستطلاع .

« . . . إن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم . فإذا أتما خرجتما
من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع في كل جانب ، كي لا يفتركا عدو
أو يكون لكم كمين . . .

لا تسيرن السكتائب إلا على تعبئة . .

فليكن معسكركم في قبل الأشراف ، أو سفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار
كي ما يكون ذلك لكم ردها ، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين . . .
اجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال ، وبأعلى الأشراف ، ومناكب المضاب ،
لئلا يأتىكم عدو من مكان مخافة أو أمن . . .

حفوا معسكركم بالرماح والأترسة . ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم ، فما قوم
حفوا معسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون . . .
احرسا معسكركما بأنفسكما ، وإياكما أن تذوقا نوما حتى تصبعا إلا غرارا
أو مضضنة . . .

وليكن عندى كل يوم خبركما ورسول من قبلكما

وكان نهجه في سياسة جنده التسوية ، وبر الكبير بصغيره ، عليهم واجب

الطاعة . ولهم منه حق الوفاء :

« . . . إن الله جعلكم في الحق جميعا سواء ، أسودكم وأحمركم ، وجعلكم من الوالى وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد ، وبمنزلة الولد من الوالد الذى لا يكفيهم منه إياهم طلب عدوه والتهمة ؛ ما سمعتم وأطعتم وقضيتهم الذى عليكم . وإن حكمكم أيضا لكم ، والتعديل بينكم ، والكف عن فيكم . فإذا فعل ذلك معكم ، وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق . . . ونصرته على سيرته ، والدفع عن سلطان الله . فإنكم وزعة الله فى الأرض . . . »

وحذر أمراء جيشه أن تبيحهم ضرورة الحرب ما لا تبيحه قوامه الخلق وشرعة السجاياء الكريمة إبان السلم والطمانينة ، من السلب أو العدوان :

« . . أبرا إليكم وإلى أصل الدمة من معرة الجيش ، إلا من جوعة إلى شعبة ومن فقر إلى غنى ، أو عمى إلى هدى فإن ذلك عليهم . . فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان ، وخذوا على أيدي سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالا لا يرضى بها الله . . . »

لا تألوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونة ، ولا دين الله قوة ، وأبلوا فى سبيله ما استوجب عليكم . . . »

مضت هكذا أوامره رسم السيرة ، وتنظم الصلة بين كل قائد وفرقة ، وكل جندي وزميله . وكل جيشه وغيره من رعاياه ممن سيخرق الجند عليهم بلادهم وأراضيهم . فأما أمره للمقدمة فالسير والفرات صوب الشمال ، عيونا وطليلة ، لا تعجل بقتال إلا أن تحمل عليه ، ولا تنتهج خطة إلا أن يزودها ببيان ، وهى فيما بين هذه وذاك تكون ملتزمة جانب الحذر واليقظة والاتشاد . . . »

أما القوة الرئيسية فقد استأخر بها بعض زمان لا يبرح مقامها ولا تبرح حتى تكاملت له القبائل واجتمعت المقاتلة ممن حشد عماله وولاته من الأقاليم . ولم يطل بعد هذا إعداد . فتكتب الناس ، وانتظمت الأخماس . ثم عقد الألوية ونادى مناديه بالرحيل . . . »

حينذاك كان العام فى ربه الأخير . وكان الشتاء يلفظ من أنفاسه بقية كالنماء إن تكن توحى بمقدم الربيع ، فقد خلفت الكون بعدها مثلوج النسمة ، والورق النابت مبكرا على غصونه يرتجف بمثل اختلاجة مقررور . . . »

وكان النهار في إبان مولده باسم الظلمة أبلج الجبين . والشمس المظلة من سماء صفا أديعها صفاء مرآة ؛ قد أسفرت عن وجهها المتألق الصبوح ، وانسدل شعاعها على جوانب الأفق كشمع غائية : خيوطا دقيقة من نحماس كلون اللهب ، رفاقة رقيقة ، ليس فيها وقدة من حرارة النار وفيها رحمة من رخاوة النور . . .

الأربعاء اليوم . وشوال الشهر . والزمان مستهل الربيع . . . النخيلة تعج عجيجها بمن حملت ، ومنافذ الكوفة ، والدروب الطويلة المؤدية إلى الفضاء الفسيح الذي انساب في أديعه الناعم القرات انسياب ثعبان . . . للنجائب رغاء ، وللخيل صهيل ، وللأسنة صليل . والصدور التي تتوق للقاء شقيقها دعاء وزفيرها تكبير . . .

الإمام قائم على رأس قواته ، يشق أمامها الطريق في وقار وتؤدة . لا يعضل بالناس في سير ، ولا يؤودهم حين اعتلاء شرف أو اجتياز غور . . . بقلبه طمأنينة ، بعينه دعة ، على ملامح وجهه سلام . يحسبه الرائي — وهذه حاله — أخصا سفرة إلى مزاح آمن وادع وليس بنازح إلى غمرة تحفها المصارع . . .

ما ادرع ، ولا اكتفى الزرد والحديد . كل ما عليه ثوب مرقوع ، قصير إلى ركبتيه ، إن يكن ستره فليس بكاف أن يقيه عادية البرد في ساعات البكرة أو ليالي البوادي الثلوجة . . . لا ملحفة إلا هذا القميص من الصوف والجلد والليف ، ولا درع إلا شعر صدره الكثيف ، يطل من ثغوب ثوبه كأنه الشوك .

وكانت عينه طوال الطريق وانية ، أدنى إلى الوسن منها إلى الالتباء ، كأنما يؤثر النظر بالبصيرة ، فدروحه اليتقطان طرف لماس يري المكان بدا أو غاب ، ويرصد الزمان من خلف حجاب .

وكانت رحلة تفشد الدم . ولكن الحرب لم تستغرق كل همه ، وفكرة الموت الجائعة من ورائها لم تشغله عن مقومات الحياة . . . ففي الطريق دأما عظة لمن ألقى السمع وأدار البصر أينما مضت قدم . وفي العظة تقويم خلق ، وإصلاح معاش . وما هو بالذي تجمد خواطره وإن أحاطت به عدة الحرب كالسياح . . . لم تلهه الحومة المقبلة عن دوره الذي احتذاء عمره من تنقيف الأنفس ، وتهذيب الطباع ، وتأديب الناس بأدب الشريعة الهادية ليصموا بعده مشاعل النور . . .

(٩ — الإمام)

وإنه ليضع رجله في الركاب قبل المسير فلا يكاد يستوى على ظهر دابته حتى يذكر ربه : « باسم الله » ... ثم يرفع وجهه يناجيه : « اللهم أنت صاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ... » ويمضي ، فيتبعه الجيش كله على يقين ...

... وينزل منزلا بجمعه الحاشد فيتقدم يصلي ركعتين . فالأرض كلها مسجد ، والصلاة قربان . حتى إذا فرغ قام فقال ، ليعلم الجاهل ، ويبصر الغافل :

« أيها الناس ... من كان مشيما أو مقيا فليتم الصلاة فإننا قوم على سفر . ومن صعبنا فلا يصم المفروض . والصلاة المفروضة ركعتان ... »

ويعر في سيره بآثار كسرى ، فيسمع صاحبها له يتمثل :

« جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد »

فينهاه :

أفلا قلت : « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بك عليهم السوء والأرض وما كانوا منظرين » .

ثم يستقبل بعد هذه التلاوة الجمع بالتحذير :

« إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبهوا موروثين . إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية ... » .

... ويلقاء بعض الدهاقين قد أتوه بدواب وطعام هدية له ولرجاله ، فيأبى ويقول :

« أما دوابكم هذه فإن أحببتهم أن نأخذها منكم فنعسيها من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإننا نكره أن نأكل من أموالكم شيئا إلا بشفع ... »

عندئذ يحاولون أن يحملوه بكياسة على القبول :

« يا أمير المؤمنين ، نحن نقومه ثم نقبل ثمنه ... »

فيضحك وقد فهم حيلتهم :

« إذن لا تقومونه قيمته ! نحن نكتفي بما دونه »

فإذا ألحوا عليه عيسى وقال :

« ويحكم ! .. نحن أغنى منكم ... »
ويتركهم وهديتهم الفخمة على الطريق ...

* * *

ويعضى .
المطايا تحب والركب يسير...
دورة اليوم تنطلق بساعاته إلى حافة الأصيل ...
الرايات تعتنق ثم تغترق في النسمة البليلة ...
كل امرئ في الحشد الزاخر ذلك النهار بأمره مشغول : برحله ، بدابته ،
بسلاحه ، بالشقة الطويلة التي ما يفى الأفق يطالع عليه من مراحلها طولاً من
وراء طول ...

وهو أمامهم يقظان كغافل إلا حينما تند منه خاطرة في شأن دنيا أو شأن
دين . متوثب تكامل إلا على الظهر تحتسه الذي لا يحس ثقله وإن حسبه القوم
كلا على الراحة ..

وعند ثنية في الطريق يعتلى جسمه البدين بالحياة فتنتطلق الأعين إليه ترمقه ،
من كل جانب بعيد وقريب ، وقد شهدته يثب إلى بقعة من الأرض ينو إليها
بنظرة واجمة ...

وتلقف الآذان صوته الهامس الحزين :

« ها هنا ، ها هنا ! ... »

ها هنا موضع رحلهم ، ومناخ ركابهم ...

ها هنا مهراق دمائهم ... »

فتأخذ الناس من حديثه رجفة ، ويسألون في توجس وإشفاق :

« وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ ... »

ويتمهل بهم ، حتى إذا دارت عينه فرأت الحسين ، توقف نظرها على عيائه

في رنوء حانية ، ندية غائمة ، وهتف يجيب :

« ثقل لآل محمد ينزل ها هنا . فويل لهم منكم ، وويل لكم منهم ... »

ويل لهم : منكم تقتلونهم ، وويل لكم منهم : يدخلكم الله بقتلهم إلى النار ... »

ويسير ناكس الرأس إلى مطيته . . .

إن لروحه لطرفا لماحا ، يرى المسكان بدا أو غاب ، ويرصد الزمان من
خلف حجاب . . .

قتلك البقعة « كربلاء » الشقية ! . . .

٣

منها إلى المغاني الحضر بين التهرين ، سوداء التربة ، زهراء الماضي ، التي سميت
قبل بأججها إلى مدار الشمس . . . من كربلاء الحزينة مشى على الماء ، مخلفا
وراء ظهره بقية من قلبه الأسيف الأسيان ، رفت يومه كالإمامة على الثرى المغبر ،
ثم مضت دمة تنديه ، ثم غدت مع اللينالي السود التي تكشف عنها بعد هذه
الأحداث جدولا من الدم جرى سلساله من فؤاد الحسين الشهيد . . .

فلتمل به عينه الآن عن مصارع بنييه ، ومحة حازبة يدخرها القدر ، وغدر
فاجع يعدم العتاة لعترة الرسول . فإنما الغد القابل رهين بساعاته ، والغل القاتل
خبىء في غلالاته لا تدركه اللحظة فراسة العيون . . . وإن عينه الندية ليخفيها
جفناه ، وإن قلبه العاني لتمسكه يمينه أن يترنح بين جنبيه أو يعيد ، وإن الرعدة
من محبة وإشفاق لتمس في أوصاله فإذا هو في هنية قد نقضها ثبت كيانه كالبنديان
في الله ما يلاقيه . وفي الله أيضا محبة بنييه ، ونكبات قاصمة تحيق بذراريه ،
فالدعاة أبدا هدف الطغيان . . .

وخطت به الدابة تخوض يتبعها جنده الأباة من كل فارس وراجل ، فرقة
وراء فرقة ، وقبيلة في إثر قبيل . قرابة خمسين ألف تأثروا خطاه في مسيره ،
يسلمهم الفرات إلى دجلة ، ويدوى وقع أقدامهم على الأرض السوداء النظرة
دوى الطبل . ولم تكن بابل برقة مجهولة المسالك على الكثيرين ممن يطأون
ظهرها الآن ، ففهم ثمة من الألى فتحوها ونشروا في ربوعها دعوة الإسلام ،
ولكنه لم ينخ فيها الدواب ، ولم يتمهل بالركب . لقد كان حسبه أن يمر عليها
كالطيف ، ويدعها ورقعة منها كانت يوما ملاذ الشيطان . . .

وقال حينذاك لمن استنبأه هذه العجالة :

« إن يابل أرضا خسف بها ، فحرك دابتك لعلنا أن نصلى المصير
خارجا منها . . . »

كانت الشمس خمرية الشماع ، ذرت ضوءها على الأفق كأنه حبات التبر
تلتمع في الأصيل وهاجة . وكانت أنفاس الشتاء رطبية رتيبة ، تتردد على مهل
فلا خفقة للنسيم هوجاء ، ولا نفحة صقيع ، ولا سحابة تفسر الظلال قاعة اللون
فوق المروج . . . الطبيعة رائقة ، والسكون هادئ تلهف السكينة كأنها التي
السمع يعد الخطا التي تواتر جرسها المنتظم على الثرى الناعم . والشمس كذلك
بدت وانية ، كأنها ثقلت حركة في مجراها وهي تنساب للغروب . وقطر الذهب
في وشاحها الوضيء راحت تصبغه الحمرة رويدا رويدا ، بيد خافية ، خطا قانيا
وراء خط ، وطيفا داميا بعد طيف . ثم احتضنها الشفق . ثم حفها الغسق .
ثم آن حين وسنها فالتحفت المساء . . .

وأصبح اليوم وهم بساباط تنبدي لهم في مجال النظرة بشاطيء دجلة البعيد
قصبة كبرى ، التي تمثل فيها عمر دولة عمت زمانا على الناس ، واستذل عواهلها
زهو دنياهم فحسبوا لأنفسهم الخلود . . . بدت للدائن من وراء ، بين الزروع ،
على التربة العنبرية تأتلق في الضياء الذي يسكنه المشرق . وكان قصرها الأبيض
الكبير ، وإن عدت عليه العوادي ، لا يزال يلتمع كالغرة في جبين الصبح الأدوم
ساعة البكور . . . إنه البقية من عزة قديعة . وهي معه كذكرى حلم نسخته
اليقظة . وشطرها الداني من كنائب الإمام إذ تغادر إليه سابات حلقة من سلسلة
النصر التي طرقها سواعد قوم ضعفة ، على الفطرة ، كادوا لولا نفحة سماوية أن
يسيروا في ركاب البشرية هملا ضائعا بغير تاريخ . . .

غير أن الإسلام بدلهم بحالم حالا ، فأورثهم الأرض ، ومنحهم العزة ،
وملكهم بعد ضعف مصائر الشعوب . وهذه الطائفة التي انطلقت تزحف الآن
إلى الأمام ، صفوة منهم على بصيرة ، النور ينبثق من حيث تسير . إنها لتملأ
الأعين بما ورثت فتخشع وتمتلي منها بالثناء القلوب ، لتوشك أن تخر ساجدة ،
هذه اللحظة التي طالعتها أجداد فارس القديعة ، تهجدا وحيدا اللهم الصبر ،

واهب النصر ، قاهر الطغاة . فلقد صدقها وعده ، فلا كسرى اليوم ، ولا عبدة نار ، ولا إدلال بقدرة لا يخلبها غالب طالما أثر بها في هذه البلاد حزب الشيطان . . . ذهب الكل وبقي الله . وهما هي الآن بهر سير ، الشطر الداني من قصبة الأكاسرة على الشاطئ القريب للنهر ، قد غاب غابرها الصلف في حاضرها الخاضع ، وغابت معه دولة عاتية ، وملك محرد كما تبدد مع المواصف دخان . .

ويتلفت هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إلى البلدة الخائضة الجذخ بعد إدلال ، فينتبه خاطره ، ويلتمع ناظره ، وتهز نفسه المطمئنة الذكريات . . . على خده الآن دمعة ، ظهرها بكاء ، ولها ثناء . وفي قلبه فرحة وإيمان ، وعلى أهدابه رنوة تتوئب ، فيها ثقة يحفها خشوع ، ونخر يخالطه شكر ، ورضاء يزينه دعاء . . . وعندما دنت معالم بهر سير والجيش يسير ، خفقت شفتاه تهمسان نفس الحمس الذي رده بنفس الوطن منذ أعوام :

« . . . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل . . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . . . »

بلى أقسموا أمسهم ليخلدن — أولئك الأكاسرة وكتائبهم المغرورة بوران — ثم صبحهم العذاب . وكأن ملكهم حلم ليلة نسخته اليقظة . وكأن عزهم ظل أمسية ذاب في النور . وكأن عرشهم بيت عنكبوت ! . . هم الآن ذكرى للخواطر المستعيدة ، وعبرة للعقول الرشيدة ، والعيون الشواخص الشهيدة ، وكم يجند الإمام اليوم من راشد وشاهد ومستعيد . وكم من بينهم له على هذه الربوع دم ، وتحت تراها الصامت شهيد . . كلما تحركت به راحلة ، أو مشيت قدم ، ثار من وقعها مشهد من ذلك النصر الزاهر الذي احتازه سعد منذ سنين ولم تغير الليالي فخاره . كرة الزمن لا تبليه ، وتواتر الفتوح في أعقابها بين جناحي الشمس لم يطلو عنهم لواءه الرفيع ، فقد جثت له القادسية ، وتمزق رستم ، وفنيت بوران ، وظهرت الكتائب الإسلامية وهي نشاوى بريح الدماء تجتاح السهل والحزن ، الجامد والماء ، نحو القصر الأبيض وفي أقدامها اجتياح إعصار . . .

والتوت أجياد . فهنا الآن مظلم سابط . وهذه خلفه الدائن مظلة على النهر
كالشرف العالي تراحت عليها أطياف الشفق . وبهرسير بينهما على الضفة الدانية
لدجلة كأنها درع تمنطقت به حاضرة فارس — ذاك منذ أعوام . . . أما الآن
فالماضى يشور من وقع الخطا الرتيبة . الغبار لوحة الغابر ، الوقائع البائدة تترى
خلاله للعقول الذواكر ، الأعين الراصدة يلتقى لمحها ولمح التصور على الأمس واليوم
فى مكان . ها هنا اللقاء . فى ذات البقعة . بأرض المظلم اجتمعت الذكرى إلى العيان .

وعندما التقت العيون بعينا هاشم تحييه كانت الأذهان قد استعيت ساعة من
سويحات ماضيه . هو إن وسعه لأغلق على الذكرى التى يكبرونها واعيته من
استحياء ، فلا من لديه ، ولا زهو ، ولا إدلال . لكن الذين حضروه حين
الفتح — من جنود الإمام — يرونه اليوم بنفس مقامه حينذاك . النقع الذى
يشور من أخفاف مطيته على ذات البقعة قد أعاد أمامهم صورته ، وسيرته ، على
رأس حفنة صغيرة من الرجال ، بعثها سعد بن أبى وقاص طليعة له إلى بهرسير . .
وكانت غيرة القتال ما تزال عالقة بالأردان ، والأبدان فترتها المشقة . والإعياء
الزاحف على الأطراف والجوارح يتحول لوسن . وكانت أشعة الشمس واهنة ،
يذيبها الغسق ، وينشر منها على المكان ظلالا عريضة . والفرقة الكليلة تتلمس
المأمن لتنام .

لكن آهة محاذرة أبلغتهم جميعا شف التوجس . . ثم صيحة مخافه . . ثم
صرخة فزعة أطاحت من العيون خفق النعاس .

ودوى على الأثر زئير تجاوبته أركان الليل كأنه قصف صاعقة زعجرت
فى القضاء . فى رنينه ثورة ، وفى إرعاده هلاك .

كانت هدأة الطمأنينة هى وحدها ما يسيطر على قلب هاشم إبان الجزع الذى
ملك رجاله ودفع بأفئدتهم إلى الحلق . . ومن خلال العتمة التى نقطتها أضواء
الأنجم ، مد عينه الثابتة إلى موئل الهدير ، تقنم الوحش الذى أبطره عنفه
وعنفوانه . . .

وتقدم الرجل على سكينه ، وأقبل الليث على احتياج ، قد شحذ نابيه ، وتفتح
إهابه ، ونشر لبدته الكثة على جيده كأنه الشوك .

فإن هي إلا وثبة حتى بدا هاشم لأصحابه على باب قبره احتوته أحضان
الوحش كأنما غاص في جلده . والتمت الأنياب في الليل . وانفجر الغم الهادر
بزئيره اعتنقا برهة كالدهر سكنت خلالها أنفاس الناس . فلما افترقا برق
في الظلمة الثقيلة وميض غدا الوحش بعده لقي على الأديم ، صيغه دمه ، هادم
الحركة كالدمية إلا خواراً أطلقتته الجراح . . .

ومسح هاشم شفرة سلاحه ثم أودعه غمده . بغير زهو فعل . على استحياء
كهذا الحياء الذي يجمل اليوم محياء ولح العيون الشهيدة والخواطر المستعيدة
يحياه . . .

وكما همس من قبل ، يهمس اللحظة وهو يجوز مظلم ساباط صوب بهر صير ،
في هدوء وإيمان ، وعينه تدور بالمكان :

« . . . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من روال ؟ . . . »
ثم ينطلق خلف الإمام .

٤

كان مسيره والرافدين . مرة إلى هذا ، وأخرى إلى ذاك حتى بلغ خنق الأرض
بينهما فقال يسرة إلى الفرات ، تاركاً دجلة ، مغرباً نحو الأنبار ، فمصدماً من بعد
في الجزيرة إلى أقاصيها كأنما رام أن يتخذها مرقباً يطل من عليائه على سهل الشام .
العراق كله مراده . سواده الخصب الذي حفة الماء عن عين وعن شمال ،
وباديته التي هي مهاد نهريه ، وأشرافه التي تحدت منها الحياة في روافده سيالة
تحدر الدماء في الشرايين . . لم يدع على فيه ركناً إلا نفذه ، ولا شعباً إلا اعتلاه
ولا قاعاً إلا انطلقت عيونه وطلائعه في ثناياه . داس جنده السهول والوديان ،
الحل واليانع ، والربا واليفاع . بجانب الفرات مشيت مقدماته والضفة اليمنى ، على
حافة البادية ، تذرع الرمل المنبسط نحو الغرب كالتيه ، وتشق سبيلها محاذرة إلى
الشمال على هدى الماء . وفي جوار دجلة خرجت فرقة له من الدائن ، تملو مع
الأرض إلى مكان الموصل ، ثم تنثنى إلى نصيبين ، ثم تنكفي في حذاء نهير

الخابور محترقة جبال منبجار وقد أوشكت أن تبلغ السور الضخم الذي تؤلفه الهضبة الأرمينية الناهية في السماء . أما مجازه بجيشه الكبير فوسط الجزيرة ، مع انحرافه عن الشرق ، حتى الرقة الواقعة على مصب رافد للفرات ، والمطلة على حوض حلب حيث ينفتح منها الطريق لنا إلى وجار أعدائه .

وكانت الخطة أن تلتقي بهذه البلدة الجيوش الثلاثة : الأصل وللمقدمات والطليلة ، وقد هبطت الشام من أعاليه فأمنت أن تجد عنتا أو تصادف مقاومة إلا متى وأينا اختار . فالشرق الآن له : فارس وما وراءها إلى غاية ما بلغته أقدام جند الإسلام . والجنوب له : ما امتدت الصحارى الفسيحة إلى بحر الهند مجاوزة النفود ونجد والحجاز . والشمال أيضا له ، حتى حدود أرض الصقالية ، ولاياته موالية ، وحافته البعيدة هي الحائط الأرميني المائي الذي تضرب قننه في الفضاء إلى خطوط الجليد .

أينا خطا كانت قدمه ثابتة ، لها موقعها الأمين المعلوم فمجارى المياه رده له ، والجبال فوقه رده ، والصحارى إلى يساره رده ، وقد جنب نفسه أن يحترقها من الكوفة ليبلغ بين قيظها ومحلها حاضرة الشام ، أما وكر خصمه فركن منبوذ ، من تحته رمال ، ومن فوقه تلال ، وعن يمينه عدة وأعداء ، وعن يساره اصطخاب الأنواء . فليس البحر إذن بواقية إلا أن يتخذ مسرعا للفرار . وليس الرمل إذن بعاصم إلا أن يتسلل من خلال دروبه إلى فلسطين فتلقفه على تخومها تماسيح النيل . ولئن كانت دولة الروم اليوم في عهده ، مهادنة له ، قد مكنتها عنه ذهبه وهداياه ، فإنها حين الوقعة حرة أن ترقب حركة الصراع شامته ، لعل القدر أن يقذف بصاعقة تدك خصمها القريب والبعيد . . .

لكن معاوية إن يكن آده انطلاق الكنائس الزاهدة إليه ، التي باعت الدنيا بكفن ، تروم أن تدق عليه أبوابه ، وتشق عن قلبه إهابه ، فقد راحت نفسه تنسرب في الظلام ، تتلمس الهنة هنا والثغرة هناك في صفوف الإمام عسى أن ينفذ من ثناياها بالدسيسة . . . فما يعيه الكيد ، ولا إثارة الحسد وإشعال حريق البغضاء ما وسعه وما أمكنه بكره أن يفوز بفرقة مدمرة تفوض دعاتهم الوحدة التي يرتكز فوقها سلطان غريه . وإن هي إلا ساعة جاء فيها نبأ إقامة أمير المؤمنين

حسان بن مخدوج على رئاسة ربيعة وكندة دون الأشعث بن قيس حتى نفخ حليف
الظلام والمكيدة في شرر عصبية القبيلة الذي كان الإسلام قد وأده في رماد
التسامح، ونفث في روع صاحب له من كندة كنفث الشيطان :

« اقدفوا إلى لأشعث شيئا تهيجونه على علي ... »

ففعل شاعره .

فلولا أن الفتنة لم تكن نضجت على غضنها حينذاك ، وأن الزمن قد تلسكأ
قليلا في سيره لأغر الشعر ثمره المر . . . فلم يكن الأشعث للإمام بالولي الأمين
وإن تبعه كظله إلى قبره ... وإن خاض معه الدم ... وإن اكتسى فترة في العيون
كسوة الفيصل يسير قدما بلا حيدة عن الحق أو تحرف . . . إنما كان امراً أعجبه
نفسه فرفعها للأبصار ، واقتحم بها الصفوف حتى غدا في المقدمة يدفعها إليها أصل
ونخوة وكبرياء . ولولا أن فاضل بين الخصمين فرجح على ابن عم الرسول لسكان
آثر ابن هند وديناه فلحق بركابه وتعلق بأسبابه . ولكنه تدبر فأيقن أنه هنا ذيل ،
وأنه هناك ذيل ، فاختر أن يكون خير الذبول . . .

لم يكن الرجل ، فيما رأيت ، وفيما بقلبه وجارحته ، بسره ونجواه على الدواء
وهو يتبع الإمام شبرا من الأرض بعد شبر إلى غاية سراه ، وحتى انقضاء حياته
وانتهاء دنياه . . . على كان من بدء الأمر لا يكاد يأمنه ، ثم يغلبه فيه أمله على
شكوكه ، ثم يرى من حاضره صحائف تحيي أممه أخرى مشوبة من ماضيه فتوشك
الرغبة أن تملك على قلبه الكبير مسالك الرجاء فيه . عندما انتهت إليه بيعة الناس
بعد مصرع عثمان ، كتب له وهو إذ ذاك عامل على أذربيجان يدعو له للولاء والطاعة
فكان من كتابه :

« . . . لولا هتات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس . ولعل

أمرك يحمل بعضه بعضا إن اتقيت الله ... »

فما صح فيه من بعد أمله وإن صح حينذاك خدمه إذ أتاه منه الولاء . فلقد
بايع وإن قدمه لعل حافة المعصية والتمرد ثم لم يكن له قدر ذرة من الفضل حينما
أطاع . . . إنما حثه على الطاعة خلصاؤه ، ودفعته كبرياؤه أن يلحق بعلى ليكبر
في الأغنياء بشرف هذا اللحاق . . . يقول لأصحابه قبل أن يبايع وهو لا يكتف
عن أحدهم نواياه :

« إن كتاب على قد أوحشني . . وهو آخذى بعال أذربيجان — أنا لاحق
بمعاوية . . . »

وقد حق له أن يعيل بفكره إلى هذا النهج فصاحب الشام ليس آخذه
— إن اتبعه — بديعة أو بعال . . .

لكن صحبه يعيرونه :

« الموت خير لك . . . أندع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل
الشام ؟ »

فاستعيا . خجل أن يخون ثقة أناس أودعوها عنده أمانة وهو سيد لهم فيعيد
ثانية إلى الحياة قصة خيانة سلفت أو شك الزمن أن يدفنها في طوايا . . هو الآن
شاخ . انفلت به الأجل إلى شفا الهوى . غفلت العيون والعقول عن كبيرة قارفها
إبان شبابه فوضعت زمانا في مهب الهوان . لكن الذاكرات جعبة تحتزن كل هنة
وموبقة ، فإن هزها فاضت بمحدث ارتداده عن الإسلام غب موت الرسول ،
رغبة منه عن الله ، وصدا عن دينه الحنيف إلى الملك والعرش والتاج . . .

حينذاك والشباب مورق ، والمنى تسحر ، وأحلام النفوذ والجاه تتراقص
في خياله كتلك الظلال التي تنثرها شمع تذاب نورها مع الريح ، كانت الجزيرة
العربية مهد فتنة ضالة مضلة ، أثارها الشيطان فعصفت بها عصف الإعصار وحدث
محمد ما زال في فراشه ، مسجى ، تندبه من الأثدة جراح وصدوع ، ومن الأعين
مشون ودموع . كانت دعوة إلى الغواية . استذلت القلوب المريضة والضامر المدخولة
المهيضة . فمنعت طائفة الزكاة . وتنبأ فريق كأنما الوحي همل مباح . وارتدت فئة
كبيرة عن ضياء الإسلام إلى ظلمة الجهالة العمياء . . . وكان أبو بكر هو الربان
الذي أمسك بدفة السفينة التي اعتورتها كل هذه الخروق فأوشكت بها أن
تبلغ القاع . . .

فإن هي إلا أشهر قليلة حتى رتب الخليفة الشيخ ما اتفق ، وعبر سفينه
العاصفة رافع الشراع . . . لقد بحث في فجاج البادية بموته ، كتائب مجندة عتادها
الإيمان ، أقوى من الموت فلا تخشاه ، وأعق من الطوفان فاجتاحت الصعاري
تبل محلها بفيض العقيدة . فإذا الأرض سلام ، وإذا الكفر هباء ، وإذا الأنفس

صفاء . دان مانعو الزكاة . وتردى الأنبياء الكذبة . وبهتت الردة وانكش
ظل دعائها وأوليائها إلا فلا هنا أو فلا هناك ضاقت به الفلاة الفسيحة فراح يستخفي
ويحتجر كالهوام . . . وكان من هذه الغلول شرذمة من بني وليمة فرت ببقية عمر
من أسياف زياد بن لبيد ، قائد الصديق ، الذي ألقمهم الخوف والحلف ، وأشفي
بهم على الفناء . أولئك استأخرت آجالهم ، وأمهلتهم المنايا فسحة من زمان شدوا
خلالها مطاياهم إلى ديار كندة ، يستنصرون سيدها الأشعث ، ويحتمون في رحابه ،
ويستعدونه على حجة الإسلام .

ولم يردهم الأشعث ، ولم يعجب لهم عندما استعانوه فقلبه في عشاء . . .
كان إيمانه كبهض أبراده ، إن شاء خلعه أو شاء وضعه . . . فنسى الهدى
الذي اعتنقه ، والعهد لله أن يصونه أو يقضي دونه . إنه ليفضي المين عن لؤم
وليعة فينسى شماتها حين جاءها نبأ موت الرسول . وينسى كذلك كيف غنت
بغاياها وخضبن البنان ، وقرعن القداح مترعة بالراح ، فرحا بوفاة الذي أعزهن
دينه عن الفحش والفسوق . وينسى أيضاً سوى هذه وتلك آصرة صهر ربطته
بمحمد إذ تزوج أخته قتيلة وإن اتى ربه ولما تجمعه بها دار . . .

إنما ذكر الرجل الفتون ظمأ نفسه إلى المجد والسيادة فقال لمن استنصروه :
« لا أنصركم حتى تملكوني ! »

فلكوه . وتوجوه كما يتوج الملك من قحطان ، ولو علموا لرضوا مؤثرين
أسياف زياد تتخطف نواصيمهم في حومة الجلال . . . ولكنهم وضعوا حياتهم أمانة
رخيصة في كف من خان أمانة الله فكان لهم أخون ، وكانوا عليه أهون من
حفنة من تراب . . .

ويستعز الرجل حيناً بتاجه . ويتخبطه صلفه فيحشد الحشود تناوى جنود
الإسلام . ويحلم زمناً بملك يرد يأكل اليمن وحضرموت وعمان . ثم تصبغه بعد
ذلك الهزيمة فيلجأ إلى النجير : حصن ضخم ، عساه يعضمه . لكن الموت ينصب
عليه من خلفه ومن قدامه ، تصبغه جنود الهاجر وزياد ، فليس له ولا لأعوانه
كاشفة اليوم من قدر الله ، فإن بدت له بعد فرجة إلى نجاة فإنها الحياة . . .

ولا تلومه نفسه ، فيعده الطوفان . . . وإن الليل ليشهده قد تدثر بظلماته ،
يخرج محالسا كالخفاش إلى « عكرمة » أحد قادة الجيوش التي أتت تقاتل الردة
فحصرت أهل الكفر من حصنهم في وجار . فإذا لقيه ولقى المهاجر وزيدا باعهم
نواصي رجاله ، وحرية النساء والأطفال ، ببقية عمره . . .

قال لهم :

« استأمنكم »

فسألوه :

« علام ؟ »

« أهلى ، ومالى ، وعشرة من أحب ، ثم أفتح لكم الباب . . . »
وفتح الباب .

ووقع ملسكه المزعوم كله طعمة في يد جند الإيعان .
وجيء له بكتابه الذى ضمنوه الأمان للعشرة الذين احتار ، فما تبينه حتى أخذ
قلبه يتسرب قطرات بين حبات الرمل . . .
إنه فى ساعة حرصه على الحياة نسى أن يكتب لنفسه الحياة وكتبها بعهد أمانة
لعشرة سواه . . .

وهتف المهاجر ساخرا ، وقد فرغ جنده من حصد أهل النجير وهم ثمانمائة
فارس وراجل صريع وقتيل :

« الحمد لله الذى خطأك نوءك ، يا عدو الله ! . . »

فسجد يستجير ، والسيف يبرق على عنقه .

وعندئذ حدث عكرمة رفيقه المهاجر :

« ألا تؤخره ؟ . . أبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم فى هذا ، وإن كان رجل

نسى اسمه أن يكتبه وهو ولى الخطابية أفذاك يبطل ذاك . . . »

فأخذوه إلى المدينة ، مع بنى قومه وأسراهم من نساء وأطفال ، مصفدا
بالحديد ، لا تكاد تلمحه عين امرأة منهم حتى تنحرف عن شؤمه أن دك بينها
وأخريه إذ أثابها الشكل والترمل ، ولا عين غلام غردق عنقه عن حديدة
الحسام ، فلم يصده الحمام ، إلا تأورت عليه من حقد إذ أثابه اليتيم والدلة . فبسدره

هاض ملكه ، وعرف السيف طريقه إلى قومه ، وأذاق فلهم غصة الهوان ،
وهان . . .

ويتردد في أذنيه ، والأصعاد ترن في معاصمه ، والدرب أمامه للمدينة طويل ،
ولولة الأيام والشكالي والأيتام ، مختلطة بذلك النعت الذي الصقوه به ناطقا بخدر :
« يا عرف النار ! . »

إنما الذاكرات جعبة ، تحتزن الهنات والسيئات فإن هزها اليوم فاضت بمحدثه
بعد أن كادت العقول تفساه . . . فهل يجسر ؟ . . . لكأنه ، هذه اللحظة وتحريض
الشاعر يحرك منه مكان من الحيانة قد سد أذنه ، وكن قلبه المفتون بغطاء من الحجل
والتعزز أن ينقلت ثمانية إلى ماضيه . . . وما هو بغير ، وما هو إن أصغى إلى
نظيم الوقمة بآمن أن تتبعه كندة كما تبعته قبلها وليمة . فالخير إذن في الخضوع
لأمر على ، والسلامة في الاستسلام . . .

ويقبل عليه حسان بن مخلد ، وقد حزر حقه وغيرته يريد أن يخفف عنه :
« لك راية كندة ، ولي راية ربيعة . . . »
فتأخذه النخوة أن يتفضل عليه منافسه :

« معاذ الله ! . . ما كان لك فهو لي ، وما كان لي فهو لك . . . »
لكن ابن مخلد كان أعلم به فلم يرد فرقة تدب في صفوف أعوان على . لإمرة
على طائفة يتولاها هو أو يتولاها غيره . فإذا افترقا ، أخذ راية القيادة فلحق به
فركزها له في مقامه . . . وعندئذ يسارع الأشعث إلى الإمام لينفي الشبهة عن نفسه :
« يا أمير المؤمنين . إن يكن أولها شرفا فإنه ليس آخرها بعار . . . »

فيرمقه على هبة ، ثم يرضيه :

« أنا أشركك فيه . »

وتخمد شعلة الوقعة ، وتتوارى الحيانة إلى حين . . .

الأيام التي أعقبت المحنة النفسية التي عاناها الأشعث بعد رسالة الدسيمة ،
شهدته وفيها غالبا في وفاته بدا كأنما الماضي الأسود الذي كتب في سجله
غدره القديم لا يني يطل عليه من خلال ساعات يومه ، وآباء ليله ، كمثل السواة
للكشوفة تؤذى الأبصار ولا تحتجب عنها بدثار . . . فوفي نكير وفي ، وأخلص
كأدنى ولي ، ومضى الزمان كله — حتى اللحظة التي غلبته نفسه فيها على احتراسه —
يضرب بظفره ونابه ، ويشير من رهج البذل والشجاعة لغاية الإمام ما يشغل
العيون عن زلته ، ويمسك الألسن أن تردد حين تلفاه : « يا عرف النار . . »

وقع بدوره الذي أملى عليه : لبنة في البناء الكبير المؤلفة منه أداة الدولة
الإسلامية في تلك الحفبة الصاخبة بالحوادث الجسام . إن يكن فاته أن يكون من
عمدها فالعماد حينذاك الخليفة والكل عصبة وأوتاد . أو يكن فاته أن يجبل من
مصيرها ما قد شاء فإنه الزمن الذي لم يسعفه ، والوعى العام كان في انتباهه ،
كإقعدة الأسد عند الخطر ، قد تهيأ وتحفز فليس يؤتى من غرة ولا يغمز . . .
فما عدا الجمع الضارب الآن بالقدم والظهر إلى جوار الروم أن يكون فرقا من
كتائب الإيمان ، خرجت في الله ، لتمر دينه ، وتنصر عهده ، وتشر لواؤه غالبا
على صروح النفاق . وكأين من رجل اليوم هجر داره ، وصار مسيره ، قد التوت
به الذكرى إلى الأمس ، عندما هاجر الرسول للمدينة من البلدة الحرام ، فرأى
نفسه صديقا آخر يوشك كلما امتدت الخطا به في الشباب أن يتبدى له على مدى
النظرة السائلة « حراء » . . .

على أنه مع ذلك لم يكن من العروس — هذا الأشعث الذي تلبدت رأسه
بشعرها فأعلمته من بين الناس . . . وكانت الأفكار في ذهنه أيضا ملبدة ،
والنبات في فؤاده ، والآراء بين شفتيه . . . بل الأرض تحته غدت مشبكة
الدروب ، مختلفة المسالك كشرك الصياد ، فامس يدرى أيها مجازة . إنه لفي حيرة ،
فالشدة أقسى ما تتمتع فيه الضمائر . وإن يكن مضى شوطه ، بعد وقعة الشاعر ،
إلى أرض الشام وهو يدخر لها من سلاحه وجلده ، فقد ادخر عاهلها له من

دسائسه وهو على بينة بما يهدد رياه ، ويعسح على غروره ، ويلوى بعنانه إلى
الغاية التي يروم . . .

ولكنه انطلق في ركاب الإمام ، علما بين أعلامه إذ ولاء ميمنة أهل
العراق . الآن هو شيء في أعين قومه ، وفي جسد الجيش ، وحيال النظرة
الزارية حين تود اقتحامه يمز دونها على الاقتحام . . . حق أن تهدأ نفسه ، وأن
يسكن جأشه ، وأن يطيب خاطره ، وعندما تأزف الآزفة سيرين ربيعة ، وكندة
والبحن جميعا أنه في حسابهم ذو خطر ، لا يلحقن دوره كما يلحقن سواه ، ويسعه
وحده أن يخطط مصيره بيمينه .

* * *

والجيش بعد هذا يسير . والزمن أيضا يسير فتلبس الأنجم الصفا ، ويرف
النسيم بالدف ، وزهر الأرض كالرياض . فقد أقلع الشتاء بصقيعه ، وخفقت
في الجو أنفاس الربيع تبعث اليقظة في الأوصال المقرورة . مضى شوال . وأقبل
القعدة ثم خطا إلى حدوده . ووافى الحجة ففى النفوس حنين بعقدته إلى الكعبة
الحرام ، وبالقلوب إلى مشوى الرسول وله وغرام . لكنهم إلى اللقاء أشوق —
أولئك المكتائب الزاحفة من جند على زوم بزحفها جيرة الروم . . . كلهم يتعجل
الزمن إلى ساعة الجلاء ، وإن أنت بحينه ، ليسل سيفه ويحلو سنه على الرقاب .
فما الموت بمنزلة يقينه ، ولا هو راده عن الغاية وإنه لغاية تهون أمامها كل
الغايا . . .

في خلال هذه الفترة ، مضت الأمور على ما انتهى على ، ووفقا لما جرى
بتقديره . . . ذرعت الطليعة الصغيرة الأرض سعدا إلى نصيين . وقطع جيشه
الكبير الجزيرة بغير معوق ولا مقاومة . وأخذت مقدماته على عتق صفى الفرات
حسبا رسم لها خطة المسير . غير أنها في الطريق قلبت الرأي فرات أن تمر بالنهر
عند « هيت » حين جاءها النبأ أن معاوية قد زحف بجموعه ليهاجم القوة
الرئيسية التي يقودها الإمام . على عجلة عبرت بعد أن قطعت نصف الشقة إلى
« الرقة » لتربط مصيرها بمصير سيدها ، وكل جندها وقادتها يرددون :

« ما هذا لنا برأى : أن نسير وبيننا وبين المؤمنين هذا البحر . . . »

ثم أمعن في السير والضفة اليسرى للنهر ، فإذا هي من بعد لاحقة لا سابقة ،
فد بلغت في « قرقيسيا » مؤخرة الجيش وهو يوشك أن يجتاز عند ثنية الحابور .
فلما تقدم زياد وشرح للإمام خفقت بسمه على ثغره وخاطبهما في دعاية :

« مقدمي تأني من ورأى ؟ . . »

والثأم الجمعان . ومضى الجند حشدا واحدا حتى نزلوا على جانب الفرات
« يلبخ » . هنا تبينت لهم مواقفهم ، وراحت سمات العداء تتجمع سمة سمة وهي
تنبيء باقتراب ساعة الحومة ، فقد لوت الرقة بأعناق أهلها عن الإمام ، فغلقت
الأبواب لا تعينه بشيء ، ورفعت سفنها من الماء لا يعبر ، وردت طلبه أن تجسر
جسرا بينها وبين مستقر أعدائه يصبغهم منه أو يسيم . . . كانت البلدة عثمانية
الهوى ، لا ذت بها من الكوفة فثة فرت من كفه ، وغلت في شقاؤه ، ونزعت
نزعها إلى ابن هند ، تكاتبه ، وتعنوله ، وتلتزم نفس نهجه في اللدد والخصومة .

ومع ذلك فلم يعضل عنها بالإمام . ولم يدفعه إلى حافة غضبه فينكل بها وإنها
افئة واحدة : مئآت قليلة ، لا تكاد دماؤها تشبع حسامه . . . فالدّم عنده حرمة
إلا في مأثم عز دونه كل دواء . والعنف أبغض وسيلة من وسائل المجالدة
والكفاح . ولئن جيش ، وزحف ، وامتشق ، فإن نفسه ظلت كلفة بالسلام
تحتال لالتماسه ولو من سم إبرة . . . وما كان يعيه حينذاك أن يقمأ فرقة مثل
هذه ضالة ويحملها على ما تكره . ولكنه طفق يرجو — إن يفسح لها في
رفقه وصبره — أن تجنح إلى الحكمة وأضرابها من العلاة في شقاؤه ، فيملك
الأمة أن ينفرط عقدها ، وتتقسمها الشيع فتذهب مع الريح . . .

على ظلمهم تركهم ، تلك الليلة من ليالي ذى القعدة ، ويحسبون حصونهم مانعهم
بطشة المنية . وما هي قط بماعة إن يهز في وجوههم حسامه ، ولا بدافعة عنهم
البلاء إن يعدد نحوم إصبعها تنطلق معها جنوده يسحقون الديار والأعمار . . .
غير أنه أثر الرفق ، وقدم المهلة ، ونثر رقعة الأرض التي تليهم فاختر العبور
من جسر « منبج » ليقم جيوشه إلى « حلب » من الشمال .
ومن الرقة بعث بكتاب :

« ... إلى معاوية ، ومن قبله من قريش :
إن لله عبادا آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا في الدين ، وبين الله
فضلهم في القرآن . . . وأنتم في ذلك الزمان أعداء لرسول الله ، تكذبون
بالكتاب ..

فلا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين ، ولا فضائلهم في الإسلام ،
أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولي به ...
ولا ينبغي لمن كان له عقل أن يجهل قدره ، ولا أن يمدو طوره ، ولا أن
يشقى نفسه بالتحاس ما ليس له ...

فاتقوا الله الذي إليه ترجعون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق
وأنتم تعلمون ... »

وكم من كتاب ا . . . ولكنه اليوم نذير .

لئن ترفق وأملى لهم ، فقد ترفق قبله محمد بسلف لهم ، وبهم ، وبأمثالهم كثير .
وما طى بالذى يمدو طوره فينصرف عن تأثر الخطأ الرسومة التي طبعها الرسول
المعظم في الدعوة . « فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية
على عروشها ، وبئر معطلة وقصر مشيد » ... « وكأين من قرية أملت لها
وهي ظالمة ، ثم أخذتها وإلى المصير ... »

٦

هم كانوا أهله ، أولئك العصبة الجاحدة في خلافه . من العشيرة الأدينين .
عام وإياه في الزمان أصل ، ثم ربطهم به من بعد صهر وجوار . إن يسروا على
دربهم فلن يضروه ما عاد أمرهم إلى الله فهو أعلم بهم ، إليه الرجعة وعنده
الحساب ... أو يتبهاوا بقضهم فما يغني الجمع حين تلتقي الأسته وتبدو الآخرة من
غير حجاب ا ... إنه على بينة ، يمدد الحق وجنوده . وهم على شبهة ، تبعوا
الطاغوت فضاقت المسالك ، ودنت للمهالك وغدوا بغيرهم في تباب ا ...

وكان عزيزا عليه هذا البغى الذى إليه أنسوا يقطفون من ثماره الخبيثة .
فألهوى شقوة . والمصير شقوة ، قصر عمرهم أو طال ، وعندما تشرع سيوفه
فسوف تتربص بهم على أشفارها مناياهم ثم تحمل فلهم على امتثال نهجه الذى تنكبوه
عنوة وكرها ، ولات حين توبة إن غر الأمل فم الأجل وأقبل المآب . . .

الكرة بعد الكرة حذرهم الفرقة . بالرفق فعل ، وبالوعظة الحسنة ،
وبالحكمة وبالبيان لايتشكى السأم لسانه أو بنانه . كانت الرحمة دائما تعمد حسامه
والرحم ، وحق الجوارى الوطن والله . كلما دعاه عنهم وجد قلبه إليه أقرب ،
فداوى بالحرف مايداوى بالسيف ، وله فى نبيه الهادى مثال . . . فى بطحاء مكة
كانت أعين خياله تراه ، وبين الشامب ، وعلى دروبها التى فرشتها الشمس بوقدة
من الهجير كالنار . لم يغب محمد عنه ، ولم تغب أمائيله . دورة الزمن لم تستطع أن
تطمس الذكريات . والواعية فتية ندية وإن صلب بدنه وشاخ . وحين تراوده
القنا والحراب عن مصارع الفلاة فى الكيد له ، تشرق أمامه البسمة الحانية ،
والغم الذى ترف الشفقة على شفتيه ، واليمينان اللتان تفيض منهما المغفرة كالدموع
وإن مشيت على اللامع الرحيمة مسحة من الحزن قد رسمها مايلاقيه من عناء
وقسوة وتعذيب . فإن يكن يحزن لما يصيبه فحزنه لهم أشد أن خالفوه فارتضوا
عمى الليل دون نور النهار . أو يكن لم يعجزه منهم النكال ولم يصد عنه السير
فى سبيله ، فالرجاء فى جذبهم إلى حظيرة الهدى كان حلم أيامه ولياليه . . .

كم من ساعة أطلعتهما معا — الرائد وفتاه — فى كنف الكعبة ، وحيال
الستر ، وعند الحجر . هذا يدعو بقرآن الله ، وذاك يرقب . وهو غلام ، خواجه
الأنفس المفتونة بغيرها كيف تطفح استكبارا وعنتا وسخرية على الوجوه . . . وكم من
لحظة وارتهما معا وراء الظلال نأيا عن الأكف الأثيمة التى تربصت للنبي
بالعدوان . . . كان محمد حينذاك هو النور ، وكان على الظل الذى يقبمه ويدور
معه حينما يدور ، وذلك عهد انطوى سجله . مضت شروبه حتى ظن أنه لاشر ،
ودفن الماضى شياطينه فى « القلب » ! . . . فلو أنهم أسعدتهم نجومهم لفة هوا
الإسلام قبل الحمام فحققوا رغبة طالما ألحت زمانا على الرسول أن يجنبهم الضلالة
إذ كانت لهم به وشيجه ، وفى قلبه مكانة ، وبين قومهم أقدار . ولكنهم غووا ،

على خلاف مشتبهاء ، حتى نفص منهم يديه ، ووقف على أشلائهم وهي لقي على
الرمال تهم أن تتخذ من القلب منفليها ومثواها ، يلحى ججودهم وطغيانهم :
« يا أهل القلب ، بثس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ! ... كذبتهموني وصدقني
الناس . وأخرجتموني وآوأتني الناس . وقتلتهموني ونصرني الناس ... هل وجدتكم
ما وعدكم ربكم حقاً ؟ . . . فإنني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً . . . »

واليوم على صراط رائده . إن يكن قد ذهب النور فتقلص الظل على أثره
فما يفي الصوت يتواتر جرسه وتتردد في أعقابه رنة صداد . . . الشماب تملأ
برجعه ، والنجاد ، والربع الخالي ، والبادي السارحة حول المياه والخضرة .
إلى الغاب والشجر ينطلق ، وإلى العيون التي تفجرت من الصخر ، وإلى منزل
أشم بمكان أفيح تأرجت بأنفاس زهره نسمة الشمال ...

لكن الغي كتاب ، والرشد كتاب . والقدر من فوقهم يحرك يمينه فيدهمهم
بظلمهم إلى بوار . فبأت يدان بالخسران كتبنا على صاحبهما الغواية حين خط
ما أملت عليه الأهواء .

« من معاوية بن أبي سفيان ..

أما بعد :

ليس بيني وبين قيس عتاب غير طعن السكلى وضرب الرقاب «
نشر القدر صفحه ، وصرف بقلمه ، ثم طوى سجله على المصير المقدور ، وقد
اختار للخلف محنة السلف الذين شاقوا الرسول ...

فليكن هو الهوى المضل ، أو هو الطمع المذل ، أو زخارف الحياة التي صيغ
نسجها من أباطيل قد قتلها الشيطان الغاوي خطاما يقود به أوليائه إلى مهواه ...
فلتكن هذه كلها ما أعوى معاوية وانحرف بخطاه عندما سطرت يمينه كتابه
وختمه بخاتم محنة لسوف تعزق أمته وتدفع بها شيما ضعيفة محولة يتخبطها التفرق
والانقسام . غير أن سومة الغل كانت تنخر كذلك في سويدائه ، وعفن الحقد ،
وقبح المواجد القديمة التي لم تبليها فيه سماحة الإسلام وإن وارتها زمانا كالجدوة
المقدمة طمرها الرماد .

وتتردد لحظة في سمع الإمام كلمات كان قد ألقاها على الناس عبد الله بن بديل
ابن ورقاء الخزاعي قبيل مسيرهم إلى أرض الفتنة لئلا تجزأ العامل المشاق :

« كيف يبائع معاوية عليا وقد قتل أخاه حنظلة ، وخاله الوليد ، وجده
عتبة في موقف واحد ؟ . . والله ما أظن أن يفعلوا . ولن يستقيموا لكم دون
أن تقصد فيهم المران ، وتقطع على هامهم السيوف ، وتثرحوا جبههم بعمد الحديد . . . »
وصدق عبد الله . فقد ود على السلامة للعشيرة الأذنين ، وأبى ابن هند إلا أن
يشعلها نارا تأكل منها بحطبها من تأكل ، وتقذف بقايا جيفهم ، كسلفهم ، في
قلب جديد . . .

ويأسى على أسى محمد إذ خذله أهله أمس ونبوا به حين دعاهم بدعوة السماء .
ويتريث وقتنا كمن يتوق أن يتدبر لهم — وإن كرهوا — ثغرة إلى الهداية ،
فلما أن يؤوده الفكر ، وتعييه الحيلة ، وتعز عنه الوسيلة ، يهمس لنفسه في
حسرة وإشفاق :

« إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم
بالمهتدين . . . »

ولا يرد عينه الغائمة بدمع الرحمة عن رسالة الخلاف التي أقبلت عليه مزهوة
من المنزل الأشم بالمسكان الأفيج الذي تنأرج بأنفاس زهره نسمة الشمال . . .
لا يردها وإن ضربت حولها عيون الأشر والحسن وعمار ، وبقية صحبه وأوليائه ،
سياجا من العواطف اختلفت أعواده وتباينت آحاده ، فيه التحدى ، وفيه الحزن ،
وفيه الرغبة تسبق الزمن إلى سويمة جهاد . إنما يظل يرمق الأحرف وهي تتوثب
أمام ناظريه كألسنة النار ، كاسفا أسيفا . وشفثاه تنطلقان في التلاوة بصوت رحيم
عميق رقيق :

« . . . وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ، أولم نمكن
لهم حرما آمنا يجي إليه ثمرات كل شيء . رزقا من لدنا ؟ — ولكن أكثرهم
لا يعلمون . . . » وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فذلك مساكنهم لم تسكن
من بعدهم إلا قليلا ، وكنا نحن الوارثين . . . »

وعندئذ تضطرم قلوب بشغفها ، وتتطلع أعين ، وتنهياً سواعد وأقدام . . . ذهبت المحاسنة . دنا البأس . ملأت الجوريج الحرب والدم والنار . . . لبس كل لأمته ، ورحل دابته ، وغدوا جميعاً على أهبة كأنهم ، لفرط تحفزهم ، يقفون على أكلة قدم . . . الآن لم تعد بهم حاجة إلى التهل . ولا إلى الإملاء في الصبر للعدو العنيد . وإذا كان الإمام لم ينل بعنفه أهل الرقة حين حبسوا عن رجاله سفنهم ، وأبوا أن ييسروا له عبوره إلى أرض الشام ، فالآن لم تعدمة مدعاة إلى الرفق والهوادة وهذا دليلهم الذي يأترون له قد أسفر اليوم عن وجهه ، وخطت عينه دعوة الصراع . .

فإن هي إلا سلحة من الزمن ، كيوم أو بعضه ، حتى ثارت بالأشتر حميته ، فاندفع إليهم بحصنهم وهم محتجرون ، يدق عليهم بسيفه الباب ، ويزار لهم الوعيد :

« يا أهل هذا الحصن . . . إني أقسم بالله لئن مضي أمير المؤمنين ولم تجسروا له عند مدينتكم حق يعبر منها لأجردن فيكم السيف ، ولأفتلن مقاتلتكم ، ولأخرين أرضكم . . . »

فأخذهم الخوف فجسروا . . . وبعث هو إلى علي بيمض الطريق « نحو منبج » فعاد . . . ثم عبر الجيش إلى أرض الفتنة ، كتيبة كتيبة ، فرسانا ومشاة ، يزدحمون جميعاً ويستبقون كأن لأقدامهم أجنحة طير ! . . .

كانوا على شوق . فهذه الأحرف التي أتهم من قصر دمشق طريقهم إلى الكعبة ! — إلى منى القلوب ! — إلى غاية يشدون بها من زمان على قطر الدم ، ومزق الجوارح ، وبقية الروح ! . . . لم يعد يحسبهم الأمل في صلح ، ولا طيف سلم . إنما رفع معاوية ذلك الرجاج الذي كانت تنحبس خلفه عواطفهم فتدفقت كالسيل يحمل الدمار في تياره إلى العصابة الجاحدة التي أضلها الهوى عن الحق إلى شفا المصارع ! . . .

واحتشد الجمع العابر على الضفة الثانية للفرات يعد عيونه وشوقه عبر الصحراء إلى ملاذ أعدائه . . . كله رغبة في اللقاء . لا رهبة ولا خوف . في القلوب

شغف . على الشفاء بسمه ... اللامع الضلابة كأنها صخر نحتت العزم فأبدع تشكيكه .
والصدور أفسحت ، والأذرع فتحت لتحتوى هناك فى أحضانها — إبان الحومة —
فرائد الحور ! ...

وتهل هنية على الشاطئ فارسان ، عقلا دابتيهما ، ثم مضيا معا إلى النهر
يخوضان ماءه ... كأننا قد ازدحما على الجسر حين العبور يرجو كل منهما أن
يكون له على زميله فضل السبق عسى أن ينفذ بسيفه قبله إلى صدر مفتون ، فإذا
الخطا تشبكت ، فيضطربان ، وتسقط إلى النهر قلنسوة هذا وقلنسوة ذاك . . .
ويقول أحدهما لصاحبه وهو ينشل قلنسوته :

« يا بن الحجاج .

إن يك ظن الزاجرى الطير صادفا كما زعموا أقتل وشيكا ، وتقتل ! »
قال الثانى ، والفرحة حينذاك تغمر بحياه :

« ما شئ أوتاه ، يا عبد الله ، هو أحب إلى مما ذكرت . »

وأسرعا يمتطيان ، ليسبقا الجمع . . .

فالوجهة الجنة ! ...

لولا أن حاجز بينهم وبين القتال ، فربما غرسوا على شاطئ أنفرا ، بعد المعبر ، جنة من الجحيم ! . ما كان يصدم أن تكون الرمال الأكفان ، والدم الغسل ، والنصال التي تقصدت في قلوبهم صحائف تدل عليهم ، وتعلم لحودهم أمام الأعين وهم رقاد عاشوا بالموت بعد أن فارقوا الحياة ! ... فالمنية لديهم بداية ، والشهادة فريضة ، والدم قربان . وحين تحركت بهم دوابهم تدع الماء وتوغل في البلقع ، كانت المني لا تزال تخطف في أخيلتهم ساعة العدو كهذا الشماع السابح يتوثب به موج النهر ، إن مد برق أو جزر غرق ... فالجهاد حلمهم الذي غذا خواطرهم . واللقاء في ظلال الأسنة غاية الأنفس تتوق إليه في حنين . والإمام — إن كان نهاهم ، يومهم هذا ، عن المبادأة بسل الحسام — فالنذر في الجوتهم أن تتجمع فيوشك معها أن يدعوهم لرى الفيا في الظمآنة ! . .

هم قد خرجوا يرتادون ، وما من حيلة لمرئاد ... إن الأرض أطلعت عليهم الأمن سكنوا ، أو العنف شدوا على عدوهم فجالدوه ويأما أثر الكثيرون منهم لو استقبلهم عدوهم بالصوارم ! ... اليوم أعيام الحلم . أسأهم السلم . تقطعت نفوسهم حسرة على تلك الفترة من أعمارهم التي أمضوها يطاولون خصمهم بغير طائل ... لكن علماً كان يدخر الحرب إلى لحظة في خاطره ، خفية عن كل خاطر ، بعيدة عن أناة الحالم وصبر المصابر . فما هو لهو ، ولا هي حشد ، ولا هي غيلة . بل صراع شريف بين جميعين : تماقد يخنانه بالقبول أن يحتسكاً إلى الأسنة لتعصم ما لم يحسمه كلام ولم تقطعه أقلام ! ...

لم يكن قط ليخلب النصر من غرة ، أو يعمل القنا في ظهر ... فليست الحرب غارة تسير وفقاً لشرعة العابثين بالمحارم من قطعة الطريق ومحترفة القتال . وليس يبيعها أن يخالف فريق ويشاق إلا أن يعلنه الآخر بها ليصبح على أهبة وحذر ، إن شاء خضع فبايع ، أو شاء أبى فدافع وهو حينذاك متبين سبيله الذي اختار ... تلك شريعة ارتضاها القدامى ، وتعارفت عليها جيوش الأسبقين من الدول والشعوب ، كان القتال وفقاً لها صراعاً سافراً نبيلاً بين الأجناد ، لا يقر

البقعة قبل الإغذار ، ولا تنهياً له مقوماته دون إعلان ، فلا نجاة ولا غدر ، يلتقي فيه الفريقان وهما على بيته : كفتان عالمان ، وجهها إلى وجه ، وصدرها إلى صدر . في هذا الضوء الذي يبدد ظل الشبهات ، خرجت كرة أخرى مقدمات الإمام من الجانب الغربي للفرات تجاه الرقة ، ترتاد الأرض في طريقها إلى الشمال . وكان عليها هذه المرة أيضاً زياد وشريح . وكان هدفها أن تنفض السبل أمام القوة الرئيسية التي كانت حينذاك تتجمع وتنتظم بعد عبورها من الرقة لتحت الخطأ إلى منزل لها تختاره في ديار الفتنة . فما يأمنون جميعاً الغدر من معاوية وإن جاءت على غير ما تتبعه شريعة الحروب ، لأنه يبيع ما لا يباح ، ويقاقل بأي سلاح . . .

ومضت بهم مطيهم محاذرة ، تحب هونا على طريق حلب . فليسوا يخشون جانب دمشق وقد علموها البؤرة التي تركزت فيها جحافل الشام ، وإنما الحذر من هذه الدائن الضاربة إلى تخوم دولة الروم ، والتي قد تكون جمية لفرق إضافية أعدها ابن هند لتفاجئ الإمام من مأمن ، فتكر عليه من الشمال بينما تزحف الجحافل الشامية عليه من جنوب وغرب تسددونه المسالك فيغدو بها في حلقة وثيقة ليس فيها ثغرة للخلاص إلا مياه الفرات . . .

ولم يغب طويلاً عن أمير المؤمنين نبأ مقدماته التي انطلقت غرب النهر ترود له الأرض ، وتعد الأنف والآذان والعيون إلى تجمعات أعدائه . بل هو يوم أو بعضه ثم بعث فأحضر الأشر :

« يا مالك ... إن زيادا وشريحاً أرسلنا إلى يعلمانى أنهما اتقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم ، فنبأني الرسول أنه تركهم متوافقين . فالتجاء إلى أصحابك النجاء ... »

وأمره عليهما يعملان تحته على ميخته وميسرته ، على أن يعذر إلى عدوه ، المرة بعد المرة ، ولا يدانيه جانحاً لاعتداء ، متشرعاً لحرب :

« ... إني أمرت عليكما مالكا . فاسمعا له . فإنه بمن لا يخاف ربه ولا سقاطه ، ولا بطؤه عما الإسراع إليه أحزم ، ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل »

وتواقف الجمعان : مقدمة على ومقدمة معاوية بسور الروم بقية النهار .
يوشك الرأي ألا يلح في وجوههم عداوة ، بل مكينة وطعاً نينة . يتبادلون
الحديث في وثام عن الوحدة ولأم الصدع ، منهم معذر ومنهم مخالف . فاجتماعهم
ليبان ، واقتراقهم بإحسان .

غير أن الليل كان يبطن القدر في سواده ... فلم تكدم تعابت الأعين
في معسكر الأشر هجمة حتى دهمتهم الحيل يقودها أبو الأعور وهو يحسب أن
القرة مجزيتة الظفر . إنه ، فيما يبدو ، على دين سيده ، لا يأثم ولا يتخرج ،
فكل ما يثبته الغلبة خلال ... لكن القوم الذين ظنهم لقية هينة بلا مساج من
الحذر والتأهب ، قد غالبوه هجمته ، فاضطربوا ساعة ، وثبتوا ساعة ، ثم كروا
فما أسفر الصبح حتى كانت أرض الواقعة من أبي الأعور وأجناده الغدرة خواء .

كما استتر بالظلمة قدامهم ، توارى بالسحر خلف المسكان مصعداً برجاله عن
سيوف خصمه ، نازحاً بهم إلى الشمال ... ترك خلسة سور الروم ، وأسحر منها
إلى ملاذ ... إن كان لغاية أضمرها الرجل في دخيلته ، فلعله خشى أن تنال من
جمعه الأسنة إن هو ثبت ، فاستمهل إلى حين هنية الجد حتى يزيد أهبة ، وتثني
له فرصة جديدة . أو لعله قاس فسحة الزمن فعلها في حساباته سويغات إن تبقى
له على رجله وخيله فإن غدا مطلع عليه بعدها وليه في حشود تملأ الأرض فتشد
أزره وتعلو به على عدوه . أو لعله مكيدة الحرب ، والحرب تراجع وفر كما
هي صبر وكر على أية حال ارتد أبو الأعور يبتعد ، وتحرك الأشر مع البكور ،
في طائفة من المقدمة ، ينشده على الدروب والمسالك المتفرعة من البلدة حتى ثقفه
قد لا ذمن « قنسرين » — في منتصف الطريق نحو حلب — بربرة تحميه ،
وتهيء له من شرفها حصناً يدرأ عنه غرة الهجوم ... وكان النهار قد تبين .
والصبح يلقي ظله ونوره ، والقفر حولهم ينبت الوحشة من كل ذرة في رماله ،
ويوميء إلى الفراغ ...

حتى أولئك الذين قد عرسوا بالقتال من أعوانه ، وراحوا يدلون بفروسيتهم ،
ما ثبتوا برهة حتى حصدت بعضهم سيوف غلة من أجناد الأشر فانطووا في الثرى
مغيين كانطواء ذكر لهم كان — إلى ساعة حينهم — كأسطورة ... ونكص

البقية على الأعقاب إلى تلك الجنة التي ادرع بها أبو الأعور، يلتفون حوله يعصمونه إن أغارت عليه هذه الطائفة من مقدمات الإمام . لكنها لم تكن حربا توفرت لها شرائطها ، واكتملت مقوماتها — وإن عاجل فيها صاحب معاوية أعداءه بالعدوان . فلم ير الأشتر أن يندفع بوحى غضبته ، بل استحضر نصب عينيه وصية على ، فأثر الكف جهده عن الباغي ، وقدم الأناة .

لكنه لم يكن ليأمن منهم عدوة مباغنة ومبادرة كأمس إلى القدر والحديعة ، فأحب أن يكف عن نفسه وعن جنده بلوى القائد القادر ويناله بجزاء بغيه وطغيانه . إنه مراوغ كثعلب — ذلك الرجل الذي باغته ثم انسرب من بين يديه محتجج تحت ستر الظلمة ... وهو فارس القوم . وهو ظفرهم وناهم . فلو حرك فيه إدلاله بقدره ، واختياله بشجاعته في مجالى الطمان ، فلربما وسعه أن يحتلب هذه المقدمات الشامية نابها ، ويقلم ظفرها ، ويدعها مكفوفة الأذى حتى يلتقى الجيشان في ميدان الحرب ، يتناجزان أو يتوادعان ...

رام القائد ولم يرم الفرقة ، فاحتجارها عن رجاله استئمان ... كف إلى حين ... مهادنة موقوتة بساعة أو بساعات . فلم يكده يصف جنده على أهبة ، ويؤمن منزلهم ، ويخفهم بما يجنبهم بغتة الغريم ، حتى دعا الأشتر إليه فتي من قومه النخع ، فأمره بأمره :

« يا سنان ... انطلق إلى أبي الأعور فادعه إلى المبارزة » .

فهتف الغلام :

« مبارزتى أو مبارزتك ؟ »

« أو لو أمرتك بمبارزته فعلت ؟ »

« نعم ، والذي لا إله إلا هو ، لو أمرتني أن أعترض صفهم بسيفي فعلت حتى

أضربه بالسيف ! ... » .

عندئذ ابتسم القائد لفتاء ، وقال وهو يربت كتفه :

« ... إنما أمرتك أن تدعوه إلى مبارزتي ، لأنه لا يبارز — إن كان ذلك

من شأنه ! — إلا ذوى الأسنان ... ولكنك حديث السن يا سنان » .

لكن السلى — فيما بدا — كان جديرا بسخرية مالك فلم يكن من شأنه

لقاء الأقران . . . فما هو أن سمع الدعوة إلى المبارزة حتى راغ وهو يعتل بتعلة
لعلها أن تدارى اضطرابه ... سكنت طويلا عن الرسول ، وأغضى يتفكر
ويتدبر ، فلما آن أن يرفع عينيه وجبينه ، كانت عبسة تظل ملاحه ، وتغشى على
وجهه بالوجوم .

وقال لسان :

« إن خفة الأشر وسوء رأيه هو الذى دعاه إلى إجلاء عمال عثمان من
العراق ، وافترائه عليه : يقبح محاسنه ، ويجهل حقه ، ويظهر عداوته ... إنه
سار إلى عثمان فى داره وقراره ، فقتله فيمن قتله ، فأصبح مبتغى بدمه ... » .
فلم يلو اعتسافه الأباطيل ذلك الحدث عن مجابته بمعارضته ... قال الشاب
وهو يحاول أن يرد إفكه عليه :

« قد تكلمت فاسمع منى حتى أخبرك » .

لكنه أبى أن يصغى ، وصاح :

« اذهب عني ! ... لا حاجة لى فى مبارزته ... » .

وضحك الأشر بعد هذا ، وقال ؟

« لنفسه نظرا . . . » .

ثم نثر على حد الأفق نظرات عيفيه ، ترود الأرض ، وتود لو آنت من
وراء هذا الفضاء حشدا يحرث الرمل بأقدامه ، وينشر الظلال فى منبسط النور ...

٢

الوقت يدنو من الضحوة . نسمة الصبح مسترخية ، فائرة الحركة ، قد مسها
من الليل وسن لم تنفضه يقظة النهار . الأرض ندية بالطل ، قفر بلقع ملؤها
نور ! — لا جنى فلا ظل . . إلى صخرة حثا الريح فوسمها بعيسم الزمان ،
أو كشييا جمع حباته ثم نثر منها وفرق وأهال . أو رقائق من صلصال هى بقايا
آنية عابر ، عاشت فى الحاضر ورحل دونها إلى الغابر . .

هذه وحدها هى الظلال الهامدة ، قد تناثرت على الأديم النقي فبدا بها

كإهاب حية ... أما غيرها من خطوط الظل ففيها حياة ، تسكن وتميل ،
وتقصر وتطول إن تحركت أصولها ، أو أخذت الشمس سمتها إلى الزوال ...
فيها أعين شفه الأرق ، فيها قلوب نهشها القلق ، فيها آذان تسمع الرعد في همسة
النسمة ، ودوى الصاعقة في زحف الهواء ... فلئن باتوا ليلهم في أمان فإنه
أمن النائم على جرف السيل . ولئن أمهلتهم الآجال فما درأوا منايهم بهذه
الأسياف التي حملتها أ كفهم طول الليل ... طالت الرقبة وما طلع معاوية . لم
تظهر لهم أفراسه المسومة . ولا فرسانه المعلقة ، ولا عتاده وأجناده وقد حسبوها
رحلة ساعة ثم يبدون قبل مطلع النهار . وها هنا أمامهم . على قيد النظرة حيال
الربوة ، فرقة تربصت على حرد ، تحصي عليهم الأنفاس . فهل إلى لقاء ؟ ...

لا هو الخوف ، ولا هو الخنف ، ولا هو التردد يقعد بهم عن الصراع .
فما بهم خور . ليس في قلوبهم وهن . سيوفهم صليبة مسنونة لم يسبها ثلم ، وأجسادهم
دارعة لبست الزرد والحديد ... لكنهم حيارى . هذا سيدهم لم يوافهم بجمعه .
هذا معسكر عدوهم على أهبة . مشيت فيه الحركة من بعد سكون ، وبرقت الأسننة
منه في ضوء الشمس تخايل عيونهم وتدفع بهم إلى الحذر واليقظة ... آن الخطر .
نهضت للطى وركب الفرسان ...

كانت الربوة ملاذا حصينا يحمي ظهورهم أن تنالها نبال الأشر ، تعد لهم في
الدفاع ما أرادوا الدفاع . وكان جمعهم كثرة ، وعدتهم وفرة . غير أنهم ما انسابت
العاصفة من المعسكر المقابل إلى جنهم حتى اضطربوا ساعة من زمان ركنوا
بعدها إلى الارتداد ...

كرة أخرى ارتد صاحب معاوية وترك الميدان . جلا عن قنسرين ساعة
الضحوة وتركها لغريمه . وما كان عليه لو ثبت من جناح أن تقطع وسائله ،
أو تجندل فلوله وتلقى مصارعها أمام عزيمة الأشر على احتلاب النصر بأفدح ثمن
وبأغلى قيمة . فمن عجب أن نظن أبا الأعور توقع الهزيمة فآثر السلامة ،
والنصر حينذاك أدنى إلى يمينه منه إلى كف خصمه ... فهل كان ارتداده —
ولما يبذل الجهد كله فيما لاح — لحكمة ؟ . . أخطأ مدبرة وقصد مقدر ... أم
الحشية وحدها أن يسحق المدوقواته قد جعلته يجنح إلى التراجع ؟ .

ليوشك المرء حين يتبع الرجل ، منذ خطر على أرض الحلبة إلى الآن ، أن يراه يخطو على نهج مرسوم ، لهدف علمه وكتمه . في سور الروم يتراءى نهرا الزباد وشريح ولا يبادرهما بمدوان ، حتى إذا أمدهما الإمام بالأشتر . تسربل بالليل ، فضرب ثم هرب . وفي قنسرين يلوذ بشرف من التلال بحميه ويجعل فرقه في مثل الحصن ، فلو شاء ثبت فدافع وكبد غريعه من الخسائر ما تنوء به العصبة أولو العزم . ولكنه ، كحاله ، اضطرب ثم هرب ... فرار يتبعه فرار ، ولحاق يتبعه لحاق ، كأنه رام أن يشد إليه مقدمات الإمام ، يجرها من موقع لموقع ، ومن بلدة إلى بلدة عساه أن يشردها وبنأى بها عن القوة الرئيسية لجيشها الغازي إلى أبعد مقام . وما أحسبه وصاحبه إلا اختطا هذه الخطوة حتى تتوفر لصاحب الشام القدرة على مباغته جيش أمير المؤمنين وهو أبتز بلا مقدمات تستطلع له ، وتصد عنه خطر الضربة المفاجئة . فإن أصاب غايته فقد رجعت كفة معاوية وشالت كفة علي في غمرة لأولهما فيها ميزة البدار للقتال ، وميزة المعرفة بطبيعة الأرض ، وميزة ولاء أهل الإقليم ...

أما التراجع فقد أفلح ، وطوى قائده الفراسخ خارج البلدة ينأى منها عن سلاح أعدائه . وأما الموقع فسقط طعمة للأشتر غير منافس عليه ولا مغالب ، ينزل منه مكانا أوسع رحب السعة عند شاطئ الفرات . وأما المطاردة فسكانت حلما سلخته الحقيقة وبددته كالدخان ... فلم يتعقب الأشتر فرار أبي الأعور ، ولم يبطأ آثاره التي تركها على الرمل . إنما سكن من قنسرين بمنزل ذي جنى وظل عسكر فيه بفرقته ، يطلون منه على شريعة الماء ، ويصوغون حلقة في سلسلة المقدمات التي باتت اليوم منتشرة بشاطئ النهر ، من هذه البلدة ، إلى سور الروم ، إلى ما يواجه الرقة عند نهاية الجسر .

عن هذه الحادثة انجملت الموقعة في قنسرين بين الأشتر وأبي الأعور ، أو انجلت في الحقيقة الحسكة المشوذة من وراء الارتداد ... انكشف عنها الغطاء فإذا هي ثمرة مريّة كريهة المذاق تلك التي غرس نواتها معاوية ، وتمهدها زمانا بسقياء ، ثم طعمها في نهاية المطاف حتف أنفه وكان يعدها وليمة لخصمه ... الآن له القفر ، وله الظمأ ، وله لفحة الهجير والرمضاء . السراب وحده ، والحراب

وحده وحين يهل بخيله ورجله على المكان فلن يجد أمامه لهم مستقرا إلا أن يصفهم عند حافة البادية ، وعلى شفير الصحراء ..

ولم يكن نمة أدنى ريبة في أن أمير المؤمنين قد أقر قائده على موقعه ، ودعاه أن يستمسك به ، ويحرص عليه ، ويحتال لحفظه ما وسعه الحرص وأمكنته الحيل والقدرة . فهو رده جيشه كله . وهو معبر إلى العراق بجيشه منه موارده وأمداده من عتاد وجند وميرة . وهو منزل سهل أين لا يشق على الناس ، وتخرج منه السبل وتنتهى إليه معبدة ممهدة إلى مدائن الشام .

وانحدر الإمام من جانب الفرات يزحف هونا إلى الغرب عساه يلتقى بأعدائه المصعدين صوبه من ناحية دمشق قبل أن يأخذوا مكانهم في الميدان . لكن معاوية كان قد سبقه ، فواطىء جيشه طوال الطريق هينة ، فلا ماء ولا صحراء ونزل العامل المتحرد . ونزل الإمام على كشب منه ، وتوافف الجمعان يعدان ، لم يجنعا لعنف ، ولم يشهرا السيف . إنما شغلتهما الشواغل فترة من الزمن يعد هذا إعذاره ، ويعتسف ذاك تملاته ، قبل صف الرجال وبدء القتال .

فكأنى بأبن هند ، وإنه حينذاك للجانب الأذل ، قد اضطرب وتينه واسترخى عرينه نظر لنفسه فكان الوبال المآل . يكاد يستنشق الهزيمة من الريح وهي تقبل عليه ريانة بقاء الفرات توشك أطماعه أن تضل في تيه من القلق والوساوس كهذه البادية التي تنهيا إلى جواره لا ابتلاع ملته وهو مزق وقلول وعندما استقرت به نواه ، واحتواه فسطاطه مع الحلوة . كان نجيبه قد عقدته الفكر ، وعينه قد أغمضها التصور ، وفهذه ينساح به في عالم من الظنون والهواجس فسيح ...

غير أن الرجاء أملى له ، تلك الليلة التي لم يرقد خلالها جنبه ولم يغفل هديه ... أم ينام على عواسج وأشواك وهذا على دونه قد احتاز الماء فعدا بآمن لا ينوشه الخطر من ثناباه كلاب سهر ، يصطلى الفكر وإن قدره الآن لجائم بهذه الثنية من مياه الهر التي اتخذها الإمام معسكرا لجنده — الضفة ترسه ، والموج حرسه وإن عينه لتجوس فيها بلمح التصور فتراها كأنها السياج الدارع ، أذانيها الجسر قد أحال الشام عنده مرادا مباحا لأهل العراق ، وأقاصيها

موقع الأشر في قنسرين ، الذي اختلبه ظلفه ، وقبضته كفه . . . وفيما بين هذه وتلك كتاب كمثل الجلاميد ، يشدها الإيمان بما أقدمت له ، ويحسبها يقينها بأنها تدفع محنة توشك أن تنال وحدة الإسلام بالانقسام . . .

وأبحر الليل . ضرب سفينته في لجة السحر ، إلى شاطئ الفجر . . كم من ليلة عاشها معاوية في هذه الليلة ! . . كم من سنة . . كم من جيل ! . . لولا الصباح قد تسلمت منه إشاعة إلى باب فسطاطه لحسبها ليلة بلا صباح . . . ومع ذلك فالضيء الضئيل جاءه بالرجاء ، وراح يقيء عليه بعض السكينة . طابت الآن نفسه من بعد حيرة . هدا جأشه من بعد قلق . قرت روحه وقد أحسها طوال أمسيته تنقلت منه فتشرد ونهيم . فإن هي إلا نقطة الشيطان في أمنيته حتى استعضر جعبة حيله وأخاديعه ، كما يفعل ساحر ، فنثر منها وعجم ، وخبر واختبار ، ثم مضى راضيا لما اتواء .

وشهد النهار عند الثانية ، فيما يلي موقع مقدمة على ، إلى الشمال ، جمعا جما ، معهم الفؤوس والمسكات ، قد انتحوا من البر ناحية لاحوا كأعما يختفون فيها عن الأعين ، وراحوا يحفرون الأرض ويخدون فيها الأخاديد . . أولئك لم يرم من المسكر رقيب فيملك عليهم أيديهم . لكن الرصدة مشت ينبئهم فلقفه الناس بالعجب ، وتأولوه كل تأويل . .

وشهد النهار أيضا سهما مريشا ، أز في الجو أزيزه ، ثم سقط في المسكر بين قوم من مقدمة الإمام . هنالك أخذوه وهم يحسبونه مؤذنتهم بيد القتال فإذا هو مؤذنتهم بيد التفرق ، وتعزق العزم ، وانفصام ما بين حلق هذه السلسلة التي كانت أمس السياج الحارس لجند أمير المؤمنين أن يناله مقتحم ، أو يشغره مهاجم . . .

وهمس رجل لجاره ، وعينه على السهم .

وأكبا معا يقرآن ما فيه :

« من عبد الله الناصح .

إني أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات . .

نفذوا حذرکم . . . »

عندئذ بدت في وجهه بهتة . أعدت الآخر ، فإذا هي بغتة ، ثم رهبة ، ثم حيرة وقلق ، ثم خوف وفرق . . .

ولغظت ألسن . ومالت شفاه على أسمع ...
وحينا ذاعت القصة ، وغدا المعسكر تخلية نحل ، كانت ملامح مغبرة ، وأوصال
ميادة ، وأفئدة هواء . . .

فأين هم من الإيمان وأهله ؟ . أين صدقهم وصبرهم ، وحزمهم وقدرهم
أولئك الذين فرقوا من رقعة ، فنشروهم فزعة . وطوتهم فزعة ، ووئبت قلوبهم
إلى الخلق ؟ . . .

لولا أن تم عنهم مواضعهم المحيطة فترقى بهم فوق الظن . لوسمهم الجبن ،
ثم بقيت سمته على جباههم أبدا ذات أثر يلحق بهم إلى القبور . . .

لكنهم ليسوا سواء . فيهم أشبال أصحاب بدر وأحد والخنديق ، وأقران
آساد الجمل والقادسية ، الذين يلقون الهول فيلين كحمل ، والموت فيهمهم
الأجل . إنما كان ذلك المعسكر خليطا من اليقين والشبهة . فيه طائفة صبرت
فبرت ، وفيه طائفة خارت فبارت وإن بدا جمعهم كله ، حين المحنة ، على غير
ما كان يجمل ، فسرى الخور في نفوسهم ونحر . وهل كانوا إلا فرقة تسودها
« نزع الجماعة » التي طالما أتت ما يأباه الفرد ويترفع عنه لو ترك له الأمر ليصدر
فيه عن هدى ضميره ويوحى تفكيره ؟ . بل هم أيضاً شراذم شقي لا يجمع بين
ميولها تجانس ، من قبائل وبطون ، تباينت بهم منازل الولاء للإمام والوفاء
لغاياته ، وتذاءبت أحلامهم بين عمى الجهل ، وحمق السذاجة ، وجلالة البداوة ،
وبين إشراق الفهم ، واستنارة البصيرة ، وحسن التقدير ...

ليس الموت ما يخافونه وقد حركوا نحوه مطاياهم ، بل اللوثة التي صورها
الوهم . فلغيرها تهيأوا ، يقدمون الصدور والنحور للأسمنة ، ويستيقنون للمصارع
على قطر الدم . أما هذه فغيلة . إحناء الرقاب للذبح . ميتة السوائم . . .
وسخر على وقد نبأه خبر الأخدود الذي يحول الفرات عن دراجه ، وقصة
السهم ذي الرقعة . وبعث برسول :

« ويحكم . . . إن الذي يعالج معاوية ، لا يستقيم له ، ولا يقوى عليه . .
ولمّا يريد أن يزيلكم عن مكانكم فالهوا عن ذلك ، ودعوه . . . »
فكم منهم سمع ، وكم منهم وعى وهذه دقائق الفئوس في الأرض ينقلها
(١١ — الإمام)

الوهم من بعد فتحهم منهم الآذان ؟ . . . وكم قد استطاعوا أن يتبينوا الصواب في الخطاب ، وما لهم من نظرة إلا تطوف حولهم قلقة ترود الأرجاء لتبعث فيها عن سيل الطوفان ؟ . . . خرست الألسن عن كلمة الصبر ، وعميت الأعين عن الحقيقة ، وبات خفق القلوب نقشة ملهوف وشبهة مخوف :

« هم يحفرون ! . . . هم يحفرون ! . . . لنتحلى ! . . . هم يحفرون الساعة ! . . . يحفرون . . . يحفرون . . . لنتحلى ! . . . والله لنتحلى ! »

وبعث على ثانية ، ينذر ويحذر :

« لاتعلبوني على رأى ... »

فغلبوه ! . . . بعضهم من خور ، وبعضهم من جهالة ، وبعضهم وهو مفلول الحيلة ، قد رحل مثلهم بعد أن أوهوا بيبانه ، ولماظوا دعاءه إلى الصبر ، فهو غالب ومغلوب ! . . .

٣

أفرخ الكيد ، وضحك الشيطان ، وأدل معاوية ما شاء له إدلاله بهذه الوسيلة من وسائل الخداع الذى لا يضيق عنه باعه ، ولا يقصر ذراعه ! . . . فقد خدت أخاديه فى صف على قبل خدها فى جانب الفرات ، وأصاب سهمه منه ثغرة مغفورة نفذ فيها بسنه وسمه ! . . . فإذا المقدمات المناوئة قد تراجعت عن شريعة النهر تخلى الأرض التى كانت لها ملاذا وجنة ، وللعجيش كله ستارا حافظا ودرعا منيعة ...

ولم تردهم دعوة الإمام عما اعتزموه ، ولا حث بعضهم بعضهم أن يلتزموا الأمر ، ويدعوا الخور ، ويشبتوا على قدم . . . إنما ملكتهم حينذاك جنة فمضوا لطيتهم ، على غير وعى ، يرتدون عن الماء إلى البلقع ، وعن الحضرة إلى القفر . . . وكانت خشية الفرقى هى ما يملأ منهم الأذهان فكسروهم هباء ، ويأخذ عليهم الجنان فقلوبهم هواء . . . يستبقون إلى الفرار حذر الموت كالسواثم ، زاغت الأبصار ، وانطمست الضمائر ، وبلغت القلوب الحناجر ! . . . حق هذه المسكة من الولاء التى

ربطتهم زمانا بابن عم الرسول ، وأوفت على القداء ، انقصمت الآن عروتها ،
ووهنت وحدتها فعاثوا عنها بالتمرد ، يعجلهم فرقههم إلى الخلاف ، ويدنو بهم من
المصيان ... فلقد تهامسوا ، ثم هتفوا ، ثم صاحوا بغير تخرج ولا حياء ، وقد
سرى إلى أسماعهم دعاؤه ونجواه :

« لئلا نلحقكم بالله ... فإن شئت فأقم . وإن شئت فارتحل ... »
فإن هو إلا أن خلت مهم الشريعة حتى أسرع معاوية فاتحها بجنده ،
معسكرا فيها بأرض يستطيع منها أن يقطع عن الإمام كل نجدة أو زاد قد تأتيه
حين الحاجة من جانب العراق ، ويملك الضفة عليه أن يردها رائد من رجاله
أو دوابه وقد باتوا الآن بنجوة عن الماء ، بمكان يابس عند صفين ، عزلهم فيه
عن الفرات هذه الجحافل الوفيرة من كتائب الشام ...

هكذا انقلب الميزان ، وتبادل الجيشان موقعا بموقع فساءت خيرة المخالفين ...
لكأنى بهم ، هذه الفرقة ، وقد ثابت إليهم الخواطر ، ووعت الأبواب ، قرأوا
ما عملوا حاضرا ، تأخذهم الرجفة أن عصوا أميرهم وتفرقوا عنه رأيا وكلمة ،
كما اختلف على موسى بنو إسرائيل ... هم أمس أمروا أن يشبثوا على مقرهم
— وفيه ظل ومنعة وأمن — فزايروه . وأولئك قبلهم تمردوا على منزلهم —
وفيه رعد وسلوى ومن — فأنكروه . كلاهما أعماء هواه فانحرف وتمرد
وشق الطاعة . فكم اليوم من رجال الإمام من رحل بخياله فاستحضر بياله —
هذه اللحظة المنكودة — كلمة الله التي سخر بها حينذاك من يهود :

« أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ... اهبطوا مصرا ، فإن لكم
فيها ما سألتم ... »

أوائك عصوا وسخرت السماء . وأولاء عصوا وسخر على ... ثم غضب
وأنكر . ثم ثار وثار . ثم صبر . فماله اليوم إلا الصبر على عصية خالفوه حتى
غدا بهم في محنة ، تورث الهم ، وتأكل العزم ، وتكشف منه لأعين عدوه رمية
لا تخطئها رمية ... كطعام إسرائيل قبلهم فعملوا . أمرهم « فبدل الدين ظلموا
قولا غير الذي قيل لهم » فباتوا على ضميرهم ...

وينظر الإمام فإذا القوم على الأفق كالجراد ، يهطمون من هلع وهم يوشكون

أن يخشوا الظل الذى شيّعهم ، والنقع الثائر فى أعقابهم من أثوابهم ، وحركة الظلف والخف ؛ وخفقة النسيم . . . وأسى لهم . وأسى أيضا لهذه البقية من جيشه التى مستطعم الصاب الذى جناه التمرد . . . الآن ينبو مقامه ، وتضطرب خطوطه وخططه ، ويرى الأمن فى التحول مليا عن مواقعه ليلاً الصدع فى صفوفه الذى نهأ عن الانسحاب . . .

كم من الخواطر اليوم طاف بياله ، وهو محزون ، من وراء هذه الهزيمة التى أصابته ولا جراح ، وضربته بلا سلاح . . كم من هواجس وريب ، وكم من وساوس وظنوف . . ليس هو الوهن الذى نال من خطوط قواته ما يثير شجته ، ولا تقدم عدوه إلى الموقع ، ولا الخدعة الفاجرة ، بل التمرد الذى لطخت به نفوس فئة كان يظنها أسبق الناس إليه طاعة ، وأسممهم له . وأسرعهم إلى الفداء فى سبيله . فثمذا يدربه أنه ان يتجدد فى كل صباح ، ويتكرر فى كل مساء ، وتتعاقب عليه أمثاله مع تعاقب الليل والنهار ؟ . .

واسكنه يرد نفسه أن تطير ، أو تعبت بها الشكوك . فإن هم إلا أناس كأنا ، ونفوس كنفوس ، قد غلبهم حرصهم على الحياة إذ هم نفس يلقفه الصدر ويلقيه ، كما غلب إخوة لهم وأباء ولدات ، إذ هم مغنم ومطمع وأسلاب . . . قلن عقه اليوم صحبه فقد عقى غيرهم قبلهم محمدا حتى انفرجت بهم عنه الصفوف المرصوة ، فدانت الخيل . وطالته النبل ، وسال بدمه عياه . . .

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق ، كأنها صورة تعددت حيالها مرايا الأيام . . . محنة كمحنة ، ويوم كيوم ، وموطن كموطن تلك التى تطالع المرء من عهد محمد إن أرجع إليه البصر ، وحملته الذكرى فذكر . . فلولا أن ها هنا الماء والظل وهنالك الجذب والحل ، وهنا الحاضر وثمة الغابر ، لكانتا محنة ومرآة . . .

إذ ذاك مد الرسول عينه إلى الجموع الكثيفة التى أتت لتأثر . . . لقد قهرها بظلمها منذ عام ، وأنزل بها على ماء بدر نكبة قاصمة صدقت بها رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب ، فإذا السادة من قريش يتقصفون كاتقصب الجاف . وإذا بيوت مكة مزار للموت ، لم يدع منها بيتا إلا اقتنص من شبابه أو من شبیه . وإذا العزة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين . . .

وبهت الشرك الذي كان مستعزا بنفروه . وراح من بعد يلحق جراحه ، ويكتم أساء ... إن يكن يستعيد الفجيعة فلتحفزه على التأهب للانتقام . وها قد مضى على بدر الحول ، وأملى الزمان لقريش وأفسح . فأعدت ، وشعدت ، وصقلت الأسياف . ثم أجلبت بقضها على محمد ، عند أحد ، فيها المقاتلة ، وفيها النساء ، وفيها الأقيان . وما من فرد في جموعها إلا أقبل وهو يرجو أن يعينها « هبل » على الله . . .

وإذ تراءى الجمع ، خرج الرسول في رجاله غطط لهم موقعهم ، وصف منهم خمسين على الجبل من ورأهم ، بأيديهم الأقواس ، ايعموا ظهورهم أن يأتيا عدوهم بغتة ، فتذهب ريح الإسلام :

« قوموا على مصافكم هذه . انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا . فإن رأيتمونا قد غنمنا ، فلا تشركونا ... وإن رأيتمونا قد تخطفنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم ... وإن رأيتمونا هزمنا القوم ، وظهرنا عليهم ، وأوطأناهم ، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم » .

خالفوه . . . خلفوا الجبل — أولئك الرماة — حين لاحت لهم بارقة ظفر ورأوا قريشا تهجر الميدان خوف المنية ... وما لهم يثبتون ، وقد تعاورت عدوهم حراب محمد وأصحابه فأثمنت فيهم ، وفرت ، وصرعت ، حق ذهل أهل الشرك عن نفوسهم فتخطفهم الخوف ، كما يتخطف الطير الجيفة . . . الآن أسفر النصر . الآن بانث الهزيمة . الآن تلعع الغنيمة على أرض الواقعة تدعو من طلبها : « هبت لك ! » فهي حرم مباح .

ولبوا العرض . . . نسوا في هذه اللحظة ما أمرهم به الرسول فزايلاوا الجبل ، يندفعون إلى السبي والأسلاب كالذئاب المنهومة . . . ولكنها نشوة عمرها قصير ، وفرحة ما برقت في أخيلتهم حتى خدو هجها فعلتهم الخيل من المكان الذي زايلاوه ، وطالهم النبل ، واضطرب عسكر المسلمين كله وحصدته أسنة العدو حتى ظن أن محمد مات ...

وصاح حيذاك أنس بن مالك لمن هدم نبأ مقتل النبي فأذهلهم عن اليأس وأوطأهم اليأس :

« مات ؟ .. فما تصنعون بالحياة بعده ؟ .. انهضوا فموتوا على ما مات

عليه . . . »

محنة أطلعت خطمها ، وحركت زبانياها تضرب بهما في عينين وشمال بين
أهل الإيمان حتى طحنت بينهم خلاصة فرسانه ... كفى بها من محنة أن أكلت
حمزة بن عبد المطلب ، وطرحته به في يدي هند فريسة هامة ، لا تستطيع
دفعاً قهشتها المرأة ، ولا كت منها ، واتخذت بعض مزقها قلادة . . . وحين
ارتوى زوجها من شماته ، وطابت نفسه بالصيدية ، وقف تهزه عاطفته المجنونة
فيهتف وهو نشوان :

« أنعمت فعال ! يوم بيوم بدر ... اعل هبل . . . اعل هبل . . . »

ولم يعل هبل . . . وما كان ، فآله أعلى وأقدر . . .

ولم يمت محمد . وما كان ، فقد استأخره ربه لساعة نصر تأتي إليه بهند ،
وبأبي سفيان ، وبالملا كاه من أهل الشرك قماة صاغرين ..

ولم تضق أيضاً نفسه السكرية عن الصفح عمن أوقفه نهمهم ، واختلافهم على
أمره ، هذا الموقف الضنك ، بهذا الوطن ، في هذا اليوم الذي دى فيه قلب
الإسلام وتفجر الحزن من جراحه كالينابيع ... إنا صفا لهم . مسح غضبه عليهم
حين مسح دماءه عن محياه . فالتصر قدر . والفشل قدر . ولن يخزي الله حزبه
وإن بهت — حيناً — الأمل ، وإن شمت ذو غل ، وإن امتدت الرقبة
وطال الأجل ...

وصفح على الليلة كصفح هاديه . لم يضق قلبه عن الصبر ، ولا عن الأمل ،
ولا عن المغفرة .. فإن هي إلا نار مطهرة — هذه المحنة — تخلص فيها نفوس
قومه من شوائبها ثم ترتد مجلوة . فالذي اكتنفه الظلام يهفو للنور . والذي
شرد به القفر يحن للظل . وإن ربه لمجنب رجاله العثرة من بعد ، ومسدد خطوهم
إلى رشاد ، وجامع قلوبهم على تعزيزه فهم بقية الخير ...

وعندما وعت عيناه كتائب مقدماته ، والتأمها وجيشه المنزل الجديد ، لم يكن
انسحابهم ما يهيج خشيته ، ويدفع به إلى الجزع ... إنا يحز في فؤاده اللحظة

أن تنسج الهوة بينه وبين صاحب الشام سعة تنذر ولا تبشر . فليس معاوية بعصخ إليه ، ولا حائداً عن مجافاته ، ولا خائفاً جناحه لدعوة السلام وهذه أزمة الأمر كله في يمينه ، لو شاء غدر أو شاء صبر ... بانت الحرب وحدها هي المركب — القتال ، دون الحسنى ، وسيلة الوحدة للنشودة ...

وابتسم حينذاك صاحب الشام ...
ساعة كساعة . وموطن كموطن . وصل كأفعوان ...

« هذا والله أول الظفر ! » ...

وفرك كفيه من غرور ... وانتفخ نحره ولعت عيناه ...

إن مشاهد الزمن تتكرر ، وتتواتر على اتفاق كأنها صورة تعددت حيالها مرايا الأيام . . . كأيّيه قبله عند أحد ، وقف الابن مستعزاً بصلفه ، وبشجرة خدعة ، وبنصر ساعة أورثته إياه فرقة قوم على وليهم واختلافهم من جهالة وغفلة . على الماء وقف ، ذلك اليوم ، يتجبر ويعلو ويديه ، كأن هذه القناة الجارية قناة مسنونة صلبة في ذؤابتها القضاء والفناء ، ركزها رهبة ، وهزها غلبة . . . ثم مضى وما بدأه من الوعيد :

« يا أهل الشام ! ... لا سقاني الله ولا سقي أبا سفيان إن شربوا منه أبداً ،

حتى يقتلوا يجمعهم عليه ! » ...

٤

التيه والصلف والزهو عاشوا ليلة في خبائه . . . كانوا ضيفاته لم يكونوا أعوانه . ولم يكونوا كذلك مواليه ... وعندما أشرق النهار ، وملاً ضوء الأفق ، وابتدرت الشمس في الفرات ساعة الغروب ، كان رحيلها مؤذناً بأفول كبريائه . . .

لم يعمر الظفر ... في البدء ظنه حليفه . توأم خطاه . مطية له إلى غاياته فوطى به ظمأ خصمه ، وعتا عتوا كبيراً كأنما الأقدار في يمينه ، والأعمار ، وهذه الأهداف التي غالبوا عليها الحياة والموت ... فح كالأفعوان ، وصلب كالرمح ، واستطار أشرا في سماء زهوه كالعقاب ! . . لم يرده عن التجبر أن

السلم لم تكن تقطعت بها الأسباب . وأن الحرب لم ينشق عنها الحجاب ...
لم يلوه عن عناده واعتداده أن الإمام لم يبدأه بعدوان ، ورائه غاية الريث عسى
أن يتذكر ويدع لده فتتعد الكلمة بين شطري الأمة ، وتبعد المحنة عن
الإسلام ... لم يكفه أنه مدغل مبطل ، جانح لإثم ، متجانف لعصية يسوقه إليها
هواه ... لم يرح الله !

حق الذين جاوروه وناصروه ، بنوا حينذاك باستكباره . ففي التراب أحيانا
تبر ، ومن الوحل قد ينمو خير ! . . . أفرت له طائفة بظلمه وأنكرت طائفة .
هلل فريق وأسف فريق . وحينما حلت له الشهادة ، وراح غروره يحرك لسانه :
« هذا والله أول الظفر » ... انبرى له من رجاله من يجيبه :
« هذا والله أول الجور ! . . . »

فعجب له ... لكن هذا العائب عليه كان زاهدا تبعه بجهالة لم يتبعه طامعا
في دنياه ، ولم يسر مسيره في صفوفه وهو يرمو لعرض ، أو يطمح إلى جاء ...
ثم زاد دهشة . ثم غضب . ثم هزت الجراءة كيانه والرجل يعضى غير آبه
في عتابه أو في عابه :

« يا معاوية . . . سبعان الله .. الآن سبقتهم القوم إلى الفرات تمنعونهم
عنه ؟ . . . تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ . . .
أما والله لو سبقوكم إليه لسقوكم منه ! . . . »

فبهت العاهل المفتون من خزي . فلما تاب ، ووسعه أن يستجمع نثار عنته ،
ثار ، وسارع يردع الرجل ، ويكبت إنكراه أن يذيع في الناس :
« اكفني نفسك . ما أنت عندي بذى رأى ! . . . »

لكنه أخطأ الرمية ... فلقد راجعه الناس ككرة أخرى بالعب واللوم ،
وراح يقذف إليه بحممه :

« هذا والله أول الجور ! . . . لقد هجعت الجبان ، وبصرت المرتاب ،
وحملت من لا يريد قتالك على كتفك »

وصدق . كأنما ستر الغيب — هذه اللحظة — قد انتزاح عن مكنونه فبلغ
برمق عينيه خفاياه . . .

كان هو على شبهة من الأمر الذي جاء فيه ، فأبصر ، وولى بيقية دينه يفر

إلى المسكر الآخر ، لينضح هناك عن حق الإمام ، ويضرب باطل عدوه بملك
يمينه ، وبكل إيمانه ...

وكان الحذر بالأمس في صفوف مقدمة الأشر هو علم الفشة التي آثرت
الانسحاب . فلما اجتنبت الفرق الموهوم إلى صدى محتوم ، تلاومت ، وثابت ،
واستردت العزيمة .

وكانت طائفة من الناس معتزلة ، تشهد الخلاف الناشب بين الجمعين وهي تأمل
أن يرأب الله بها الصدع حين تمكنها فرصة وإن احتشدت الجيوش وشرعت
الرياح ونزعت لنجاز ... فجاء عنت معاوية ، وعتوه ، وعدوانه الجديد بغير
ذريعة للعدوان ، يفتح لها ثغرة للنيل منه ، والانحراف عنه ، والإعجال إلى
مجازاته ...

حق ابن العاص لم يرتض الغدر من وليه ، ولم يرفيه وسيلة إلى انتصاره . فلما
عرف منه العزم على حرمان خصمه الماء ولما تنتشب حرب ، راح يعظه أن يدع
غروره ، ويخلى بين عدوه وبين الشريعة بغير جور ولا تحيف ، يردون
ويصدرون ما طاب ورد وصدر :

« خل بينهم وبين الماء ، فإن عليا لم يكن ليظماً وأنت ريان — وفي يده
أعنة الخيل — وهو ينظر إلى الفرات حتى يشرب أو يموت ... »
فنفخ الماهل وزفر :

« ألا تدعى ، أبا عبد الله ؟ . . »

« إنك تعلم أنه الشجاع للطرق ، ومعه أهل العراق وأهل الحجاز ... ولقد
سمعت ، أنا وأنت ، وهو يقول : لو استمكنك من أربمين رجلا . »
أجل قد قال :

معاوية يذكر ، وابن العاص ، وفئة أخرى ممن شهدوا ذلك اليوم ، الغائب
في الغابر ، للمائل الآن بذكره المفجعة في الحاضر ، كيف كانت ثورة الغضب
ونار الحزن تلتهبان على وجهه على ، وتأكلان منه حله وصبره ... حينذاك لم يكن
للعلم موضع بصدرة ، ولا للأناة عليه سلطان . كاللث إذ يداس عرينه
ويعشى على ذماره للسكين ثلث ؟ ... فقد غمطوه . أنكروا عليه حقه وقدره

وصهره . تواثبوا في جموعهم ، وهو معتزل ، يعصفون بداره ، ويقصفونها .
ويبشون حولها النار ...

ذلك يوم خالد في الزمان بغله وضغنه ، بحيفه وجوره ، بحسده وشأنه ،
ترب الظلمة مغبر الجبين . . . ما كان عمرو لينساء ، أو معاوية ، أو هذه البقية
التي بقيت اليوم من قريش ، ثم من بني عبد مناف . ثم من بني هاشم الذين سلبوا
حقهم في تراث الرسول ، وودحقد قومهم لو تخطفتهم المصارع ، ووطئهم الأقدام
وهم تتأثر وأشلاء . . . من خلال كل هذه السنين السوالف تشق أحداثه أطباق
الزمن إلى الخواطر ، كالغيبس في الظلمة . كألجنة النار التي أوشكت أن تندلع
حول البيت تهم بحصده وتدميره . كالصرخة المدوية التي أطلقتها حينذاك فاطمة
تجأر فيها بشكواها إلى رسول الله ! ...

ولم يكن محمد ، وهم يعدون هذه العدو على دار زهرائه ، قد عزب ذكره
من الأذهان . قبره ندى بدمعهم .. جسده رطيب كأنما لم تفارقه كل الحياة ...
شبعه حاضر علاء عليهم الفضاء ، كالشذى للماطر ، يغيب الطيب وهو مائل
لا يغيب . . . ومع ذلك فلم يكادوا يشيعونه إلى الجدت ، حتى استرفهم مس ،
وملكهم هوس ، فانطلقوا إلى دار ابنته كمردة الشياطين ! . . . معهم الشعل .
في أيديهم الحطب والحراب . ظلالهم دمار ونار . . .

الموجدة على علي ، والحسد لقدره ، والخشية أن يفسد اعتزاله هذه البيعة التي
أدلوا بها إلى أبي بكر بغرة من آل بيت الرسول ، قد حركتهم جميعاً على حرد
نهاية اللطاف فيه احتلاب صفي محمد تراث ابن عمه ، وإخراج الأمر من عينه فلا
تجتمع الرسالة والخلافة في هذه الدار من هاشم ، التي نبت قريش كلها بشرفها ،
وسؤدها ، وعزها إبان حقبة الجاهلية وبعد مولد الإسلام . . . كرهوا لها أن
تطولهم بالأمر بعد سموها بالنبوة ، وأن يقوم منها سيد بعد موت سيد . وأن
يستأثر رجالها بالحكم ، ويستأسروا بأقدارهم ومزايام هذه الجزيرة الفسيحة التي
تعج بالقبائل كأنما عجمت عن إنجاب أمثالهم سائر البطون . . .

وعلى ضياء شعلة مما طرق الدار ، ولون الأفق ، وأشاع في الجو حره ، لاح
عمر وقد تغير وجهه بمخمة ، وتبلل بمرقه . وتخلل الدخان لحيته ، ولمع حسامه
في عينه بكذوة النار . . . إنه أحسن شديد في دينه ، أحسن شديد في عدله ،

ولكنه اللحظة أحسن شديد في عنفه واندفاعه وهو يم الباب ... إنه ليشير الجمهور ويهيج الفتنة ، ويهيئ الخطب ليؤثر الحريق

واستأسد وتنمر . وتصايح وزار . ثم اندفع من خلال الجموع كالشرر ، يدق البيت على ساكنيه ليس هذا بعمر ! . . . ما هو بابن الخطاب ! . . . الذي جرى بقدميه إعصار . . . الذي انفجر بصدرة بركان . . . الذي استوى على لبه مارد إنه الآن مخمور الأمس ، عاد سيرته الأولى كحاله من بضع سنين ، حين أعماه شركه ، وأضله هواه ، وختله عن الهدى غروره فسل حسامه وانطلق على درب مكة ينشد النبي ، ولسانه إذ ذاك يجري بكفره وخمره :

« لأقتلن محمدا بسيفي هذا ! — هذا الصابي الذي فرق أمر قريش ، وعاب دينها ، وسفه أحلامها ، وشتت مجالسها وضيع بهارجها »

واليوم أيضا ختله اندفاعه ، وبقية بنفسه لا تزال راسبة من حسد الجذود وبغضاء الأجيال . . . هوى كهوى يعضى به ، ويحميد بخطور الثابت ، فيغدو ويروح على لهيب المشاعل ، يوسوس لنفسه ، ويهتف بالعصبة التي توازره على هجم الدار :

« والذي نفس عمر بيده ، ليخرجن أو لأحرقنها على من فيها ! » . .

قالت له طائفة خافت الله ، ورعت الرسول في عقبه :

« يا أبا حفص ، إن فيها فاطمة . . . »

فصاح لا يبالي :

« وإن ! . . »

واقرب . وقرع الباب . ثم ضربه واقتحمه . . .

وبدا له على ...

ورن حينذاك صوت الزهراء عند مدخل الدار ..

فإن هي إلا رنة استغاثة أطلقتها « يا أبت رسول الله .. » تستعدي بها الراقد

بقربها في رضوان ربه على عسف صاحبه ، حتى تبدل العاني الدل غير إهابه ، فتبدد على الأثر جبروته ، وذاب عنفه وعنفوانه ، وود من خزي لو يحز صعقا تبتلعه مواطئ قدميه قبل ارتداد هديه إليه ...

وعندما نكص الجمع ، وراح يفر كنوافر الأطباء المفزوعة أمام صيحة الزهراء ، كان على قلب عينيه من حسرة وقد غاض حلمه ، وثقل همه ، وتقبضت أصابع

يُحِينَهُ عَلَى مَقْبَضِ سَيْفِهِ تَهْمٌ مِنْ غِيْظِهِ أَنْ تَفْرُصَ فِيهِ ... أَ كَذَاكَ يَنْتَهَبُونَ حَقَّهُ ،
وَتَرَاثَ هَادِيهِ ، ثُمَّ يَلُودُونَ عَلَى انْتِهَابِ عَمْرِهِ وَعَمْرُ أَهْلِهِ : الْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَّةُ لِلرَّسُولِ ؟ ...
أ كَذَاكَ الْهَوَى يَضِلُّ ؟ ... الْأَنْ ظَهِيرُهُ قُلْ يَسْتَيْحِبُّونَ مِنْهُ مَا لَا يَبَاحُ فِخْرُهُ لَهُمْ
حُلْ ، وَأَمْنُهُ عَلَيْهِ حَرَامٌ . . .

وَمَدَّ طَرَفَهُ نَحْوَ قَبْرِ مُحَمَّدٍ يَنَاجِيهِ :

« يَا ابْنَ أُمِّ ... إِنْ الْقَوْمُ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ... »

وَتَقَلَّصَتْ شَفَتَاهُ . وَعَضَتْ رَاحَتَهُ كَرَّةً أُخْرَى عَلَى حَسَامِهِ مِنْ أَسَى وَحَقِّقِ
وَحْسَرَةٍ ... ثُمَّ أَغْضَتْ عَيْنَهُ ...

لَا حِيلَةَ . . .

فَإِنَّ الزَّمَانَ ...

بَيْتُ الْقَوْمِ أَمْرُهُمْ بَلِيلٌ ... هَذِهِ الْفُرُوعُ وَالْأَصُولُ فِي الْجَزِيرَةِ أَزْهَرَ الْيَوْمِ
نَجْمُهَا فَقَدَتْ تَعْدُ الْأَعْنَاقُ مَسْتَطِيلَةً تَحْتَالُ . أَصَابَتْ ثَأْرَهَا . بَلَغَتْ وَطَرَهَا مِنْ
هَاشِمٍ . فَضَلَّتْهُ بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الْأَعْصَرِ الطَّوِيلَةِ . . .

الْآنَ عَزَتْ قَرِيْشٌ . عَلَتْ تَيْمٌ بِابْنِ أَبِي قَحَافَةٍ وَقَدْ انْتَهَتْ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ . زَهَتْ
عَدَى بِابْنِ الْخَطَّابِ إِذْ هُوَ صَاحِبُ الْمَشُورَةِ وَالْوِزَارَةِ فِي الدَّوْلَةِ الْجَدِيدَةِ . طَابَتْ
نَفْسُ زَهْرَةٍ وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْبَطُونِ وَالْأَيَّامِ وَقَدْ نَالَتْ جَمِيعَهَا مَبْتَغَاهَا مِنْ هَذِهِ
الدَّارِ الَّتِي سَمَتْ عَلَيْهَا فِي الْغَابِرِ حَتَّى أَمَسَ بِالْكَرْفِ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ إِلَى ذُرْوَةِ كَانَتْ
عَزِيْزَةً عَنْ تَطْلُعِ الْعَيُونِ ، وَتَصَوُّرِ الْأَخْيَلَةِ ، وَشَطْحَةِ الْأَحْلَامِ وَالظُّنُونِ . . .

كُلُّهُمْ عَقَدُوا النِّيَّةَ ، وَتَنَاصَرَتْ حَفَائِظُهُمُ الْقَدِيمَةُ عَلَى عَلَى فَنَازَعُوهُ سُلْطَانَ
رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى انْتَزَعُوهُ وَهُوَ حِينَئِذٍ فِي غَفْلَةٍ مِنَ الْأَمْرِ ، مَشْغُولٌ عَنْهُمْ ، وَعَنْ
تَدْبِيرِهِمْ وَتَأْمَرِهِمْ ، بِالْجُثْمَانِ الطَّاهِرِ الْمَسْجِي يَجْهَزُهُ لِيَرْحَلَ الرَّحْلَةَ الْآخِرَةَ . . .
مَضَى مُحَمَّدٌ لَغَيْرِ أَوْبَةٍ . فَرَغَتْ الدُّنْيَا مِنْ نَوْرِهِ . غَابَ فِي قَبْرِهِ وَغَابَ مَعَهُ وِلَاءُ طَائِلَا
تَسَابَقُوا بِهِ يُولُونَهُ آلَ بَيْتِهِ ، قُرْبَانًا وَزَلْفَى وَفَرِيضَةً ... وَعِنْدَمَا انْجَابَ ظِلُّهُمْ عَنْ
بَابِ قَاطِمَةٍ ، وَانْتَشَعَ جَمْعُهُمُ الْعَادِي ، وَخَلَصَتْ سَاحَةُ الدَّارِ مِنْ مُوَاجِدِهِمْ وَحَسَدِهِمْ
إِلَى حَيْنٍ ، تَلَفَّتْ عَلَى يَرُودٍ يَبْصُرُهُ الْمَسْكَانُ ، يَنْشُدُ الْعَوْنَ ، وَيُبْعِثُ عَنِ النَّصِيرِ ...
وَكُنْ يَمُصِّرُ الْمَاءَ مِنْ صَخْرَةٍ ، وَمَنْ يَطْلُبُ الْجَنَى مِنْ سَرَابٍ ، وَمَنْ يَحَاوِلُ
مَلَأَ رَاحَتِيهِ بِالرَّيْحِ ؛ هَمْسٌ فِي حَسْرَةٍ وَقَدْ ارْتَدَّ بَصَرُهُ إِلَيْهِ وَهُوَ حَسِيرٌ :

« لو استمكنك من أربعين رجلاً . . . »

عمرو يذكر . . . ومعاوية . فما كان له من سبيل إلى النسيان وأبوه قد تصدى إذ ذاك يعرض العون على آل بيت رسول الله ، ويعينهم النصرة لو أطاعوه فأثاروها فتنة على الصديق ، تشرد به ، وتنزل الميز من عليائه . . . ومع ذلك فالابن اليوم لا يجري على سنن أبيه . أحلامه تدره وتقصيه . تحضه أن يشاق . تهم به تراوده وتغويه . . .

ومال يجيده عن صاحبه ، وعن الذكرى ، وعن مياه الشريعة وقد وقفت دونها شراذم رجاله تمنع روايا الإمام أن تبلغها أو تبيل بقطرها الأوام . ولقد أوشك الناس أن يقتلوا عليها . بل تسرع فوارس من فوارس على صوبها إلى ناحية معسكر معاوية فوزعهم أمير المؤمنين عن القتال حتى يأخذ عدوه مصافه ، فيحاجه بالحسنى ، ويعذر إليه . . .

لكن معاوية لم تسكبه هذه الأريحية النادرة من غريم ، فمضى وما اعتزم من عدوانه . . . إن حوله الآن جمعا من آله لم ترات تحرك فيهم مكان الضغينة ، راحوا كالأبالسة ، ينفثون في روعه وينفخون في غروره ؛ وكالسياج ، يضربون أكنة على فؤاده فلا يرى الزشاد . . . إن جراح أسلافه نكأتها أطباعه فسال قيعها ودمها وعقنها تلبس الهدى بالضلالة . إنه مفتون . البأس والظفر والغلبة الآن أعلامه . . . الظمأ والصدى من جنوده . . . بيده الآجال . وإليه المآل . وعندما أتاه حارس من رجاله يعلن قدوم واقد ، تلفت اختيالا وكبرا ، ثم عقص قرنه ، وألقى بنظرة متفضلة على مدخل الحباء . . .

وقال له صمصمة بن صوحان دون أن يستقر به المجلس :

« يا معاوية . . . إن أمير المؤمنين يقول لك » .

فسأله بغير اكتراث :

« رسول . . . »

« نعم . . . إنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الإعذار إليكم . قاتلنا قبل أن تقاتلك ، ونحن من رأينا الكف حق ندعوك ونحتج عليك . . . وهذه أخرى قد فعلتموها : حلت بين الناس وبين الماء . . . نخل يا معاوية بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له وقدمتم . . . »

فقد المتجبر طرفا ساخرا يقتحم الوافد ، ثم يعيل عنه إلى من حصره من
شياطينه وفيه من الشهادة شعاع . .

وأكمل الرسول في طمأنينة ونبرات صوته المهادنة تقتنم برنة وعيد :
« . . إن كان أحب إليك أن تدع ما جئنا له ، وتدع الناس يقتتلون على
الماء حتى يكون الغالب هو الشارب ، فعلنا . . » .

وصمت برهة يذرع الجمع بنظره ، ويلم في نهاية طوافه بسيدهم الذي ناشه
الفكر وعقد ما بين حاجبيه . . . ثم عاد يسأل :

« ما ترد على . . ؟ »

قال معاوية وبصره على أعوانه :

« ما ترون ؟ . . »

فتحدثت الأحقاد . .

انفلت منهم الوليد بن عقبة ، يمصف :

« امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان : حصروه أربعين يوما ، يمنعونه برد الماء

ولين الطعام . . اقتلهم عطشا . . »

فجهد عمرو ليتقى مغبة الدفعة ، ومضى يراجع بنصحه :

« بل خل بينهم وبين الماء ، فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان ، ولكن لغير

الماء فانظر فيما بينك وبينهم . . »

وثار يزيد بن أسد القسري :

« كلا والله . . لنقتلهم عطشا كما قتلوا أمير المؤمنين . . »

وهاج الوليد ثانية :

« اقتلهم عطشا ، قتلهم الله . . »

وقفى ابن أبي سرح على آثاره ، وهو يحاول أن يبدو من خلال حقه في

ثياب القائد الماهر الذي يهدف للغلبة :

« امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن لم يقدرُوا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم

هزيعتهم . . امنعهم الماء ، منعهم الله يوم القيامة . . »

عندئذ نبا بصمعة حله ، ولم يطق صبرا على سفههم فهتف بلا مبالاة :

«-إنا ينعنه الله يوم القيامة الكفرة ، الفجرة ، شريرة الخمر ضربك وضرب
هذا الفاسق ! . . . »
ثم نهض يحدث أميرهم :
« ما ترد على ؟ . . . »
« سيأتيكم رأيي . . . »
وقد أتاها ، ولما يبلغ الرسول مأمنه . . .
دعا إليه أبا الأعور فأمره :
« ياسفيان . . . امنعهم الماء ! . . . »

٥

الشريعة حرم . نأت الآن عن اللسان اللاهث ، وعن الحلق الجاف ، وعن
الشفاه التي شققها حرق الأجواف . . . لا واردة . لا راوية . لا شريرة ولا زاد
ماء . . . الآن لا يتربص الرجل للرجل من خصومه ، ولا الفارس للفارس
تربص الأمس الذي أملته حينذاك الخصومة أو توازع اللدد والسخيمة . بل تجيش
الجمع . اعتد وتأهب كما تحتم طبيعة الصراع . . . هذه عدة وعدد وعتاد . جنود
على تعبئة . أداة حرب على أهبة وحرب على الباب ! . . .
استوت الصفوف . تسرعت الأسنة . جرت الرصدة خفية تشم الأنباء . . .
على طول المجرى انتشرت قوات الشام في نظام . فيهم الراجل والفارس . عليهم
الدرق والدروع . بأيديهم السيوف والنبل كأنهم سور من السلاح واليقظة دون
اقتحامه . المنايا الحاصدة ، واللوت القاصف ، والجراح والدم . . .
وعلى كثر منهم في الجانب الآخر يحثم الصدى والهم . واللوم والحسرة .
والنوى القعيدة التي تمد عينها إلى سراب ! . . . الدواب تلهث . والأناسى تشرق
ببقية الريق . رغاء كبكاء وصهيل كمويل . ورنين كأنين . . . كلما مضت
بالإمام بينهم قدم سمع الزفرة في النبرة . وجرس الندم في آهة الألم . . . من ديار
مذحج . من منازل كندة . من ألوية الأنصار ، ورايات الأزد ، وخيام بجيلة

كلهم أسيف مغموم ، الرثاء خفقه القلب . والدمع طرفة العين . والأسى والحسرة
اختلاجة اللسان . . . فقيم مكثهم هنا على الرمل الجاف يمتص جلودهم بقية مياه
الحياة ويعتصرها قطرة قطرة ، ثم يدعهم لقي ضائعا تنهيه السباع والعقبان ؟ . .
لموتة على الضفة هناك ، عند حد الأفق ، ييلها الدم أشرف وخير . . . إن
يكن الصدى يحفهم ، ويشف منهم الحلوq والألسن ، وينش أجوافهم بحرقه .
فالقنا الآن في أكنهم ظماء . . . إنهم ليرجون مناجزة . يحنون إلى قتال .
يشتفون لو انطلقت بهم إلى الغاية القدم والظلف والحافر تحمل النصال الحديدية ،
والمزائم الصليبية الشديدة إلى هذا السور الذي حمى الفرات دونهم كالحرم ،
تعال منه ، وتشفر فيه ، وتخط على جدرانها الحية — بأحرف حمراء — عقي
أخدوة . . .

ورن في الفضاء ، تحت هدأة الليل الساكن صوت وجيمة ولوم ودعوة :
« فما بالنا أمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاء النجف . . . »
من ديار مذحج انطلق النداء . من قوم الأشتر . من بين الفئة الذين عاج
صاحبهم بالارتداد عن مواقع الماء إلى القفر حين تبين الخور في جنوده يذهب
اللب ، ويأاة كل القلب ، ويهد عزيمة الأبى المصابر . . . فكيف اليوم أمنهم ؟ . .
كيف هجرة لم كانت في الله ؟ . .

وهمس الإمام ، مع رجمة الصدى الحزينة ، بسمع رفيقه :

« ألم تغلبني على رأي ، أنت والأشعث ؟ . فدوناك . . . »

فارتج الأشتر . . .

ولو كان يسهه الفرار من هذه الملامة الساخرة ، كما وسعه أمس التفهقر ،
لبذل من عمره سلحة ليهرب من النبرة الزارية . . . ولكنه يصبر على هذا
اللوم ، ويثبت له ، ثم ينضى الجبين وهو يقبل على نفسه يحاسبها وإنه لحزبان . .
فلقد غلبه . بلى غلبه وهو حينذاك مغلوب على ركوب ما يكره ، ويكره الإمام
منه . . . غير أنه لم يتحرد . حاشاه ! ما كان ليعصى أمير المؤمنين في أمر أمره وإن
علم الطاعة ستقتضيه أجله وتبترزه الحياة . إنما هذه الظروف التي ألت به ، قد جرت
بخطوه ، على غير رغبة منه ، وفي حين غفلة ، إلى وجهة ظن فيها السلامة . . .

كان قد حاز نصرا مرموقا في حساب الاعتبار الحربي وطهر الأرض أمام القوة الرئيسية لجيش الإمام عندما دق شراذم أبي الأعور السلى ودفع بها مهرولة إلى ما وراء قنسرين ، لكن الفتنة لم تطعمه ثمرة نصره ، ولم تمل له في البقاء بالموقع الجديد إلا زهاء ليلة طلع صبحها ومعاوية يدب في فيالقه على الطريق . فعندئذ لزمه التدبر ، وغدا حقا عليه أن يستعصر في تقديره طاقة جنده وجهده . . إن هو بقى حيث أقام ثم ثار به خور أمحايه تقسمه وإياهم آلاف ، وشردت بهم أجمعين مخاوفهم الموهومة . وإن هو ظهر على تخاذلهم . فصبر وثبتوا معه بوقوفهم وقعوا إذن بين مثل الرحى الطاحنة من جحافل الشام : مقدمتهم التي تراجعت أمس فرارة ، وحشودهم المقبلة اليوم تزحف نحوها زحفها السريع . فلقد سبق معاوية جيش الإمام عند صفين ، ونزل منزلا وسطا بينه وبين الأشتر ، يشطرهما ، ويتر المقدمة الظافرة عن جيشها المتخلف حتى لتوشك أن تغدو بمنزل هي فيه فريسة مفلولة الحيلة ، مفلولة الوسيلة ، حيال جمعه الوفير ذى الحول التام على المصاف بكل دفاع ، والبدء بأى هجوم .

هذا الوضع الذى أصبحت فيه فرقة الأشتر هو الذى أمل على قائدها حركة التقهقر على غير رغبة الإمام . ومع ذلك فلم تكن بالحركة اللازمة التى لا حيلة دونها لختال ، ولا محيص عنها فى ضرورات فن القتال غيرها كفيل بالغبلة . ونهبها سرف من الأشتر فى التطير والحذر ، وفى التماس مسارب الفرار والنجاة حينما يجدر الصبر الضمين بالظفر . ولئن كانت الظواهر البادية حتمتها مرة ، فحكمة الحرب حرية بأن تنكرها مرات . فالواقع المهجور جدار يحتمى به الجيش ويمنعه أن يلتف حوله عدوه من سيل مأمّن . وهو مشرب الجند والدواب . وهو معبر الزاد والمدد والعتاد . وهو منفذ الرجعة . وهو بعد هذا كله شق رحى يرهب هذه الفياق السكيفة العادية ، التى قدر عليها أن يسلمها زحفها السريع إلى الوقوع فيها يشبه الكمين ، بين معسكر الإمام عند صفين ، وبين الشقة الممتدة إلى الشمال من الرقة ، إلى سور الروم ، إلى قنسرين التى سيطرت عليها المقدمات المنصورة . . .

كانت خطة لاشك مكفولة لها عناصر النجاح لو أحسن العمل على نسقها ،

واستمسك الأشتر وأصحابه بالتزامها ، والصبر جهدهم على بلوغ حدها المقدر وما ينبیح هنا الادعاء بأنها اختطت من قبل أو رسمها على قبيل مخرجه أو إبان مسيره إلى الشام قبل نزوله منزله المعلوم . ولكنها انبثقت له ، فيما يبدو ، عندما قرب به وبغريته القرار . وهي ثم عن بديهة فيه لمحة ، وتبصر بالأمور غير منكور ، نراه من خلالها على خير ما يجب أن يكون قائد ماهر ، ومحارب قادر مداور ، يستطيع أن يفيد من جماع الظروف والغير والمفاجآت التي تجد — دون توقع — على حلبة القتال . . . فلقد كانت مجموعة جيوشه ، قبل الانسحاب ، تستند بظهرها إلى الفرات ، وتؤلف في انتشارها من معبر الرقة مثل القوس ، طرفها البعيد في قنسرين ، وطرفها القريب عند صفين . وكانت فيالق معاوية المبتورة المقدمات ، في موقع وسط بطن القوس ، مخوفة بالعدو من جهاتها الثلاث . حتى لرسم حولها حشود العراق والحجاز مثل منجل الحصاد . . . منى الشرق والشمال والجنوب حصرها على وأغلق عليها المسالك . لامنفلها إلى النهر ، إلا أن تقتحم دونه الشقة على كتاب زياد وشريح ، المنبثة على طول مجراه ، والمتخذة لها قاعدة حربية في سور الروم . ولامهرب لها صوب حلب ، إن أرادت الاتصال في مشارفها بفرقة أبي الأعور المبتورة ، لأن الأشتر كان يسيطر على منفذ المدينة . وحتى إذا وسعها التسلل إلى شريعة الماء شرق صفين من الفضاء الواقع بين معسكر على ومراكز مقدماته ، فسوف تجابه حينذاك فرقا أخرى من كتاب الإمام ، قد خلفها خلفه على أهبة ، عند المعبر ، لتؤمن خطوطه ، وتكون ردها يدفع عنه أيما هجوم مفاجيء قد يشنه عدوه ذات يوم ، فيقطع صلته بالعراق . . .

لم يكن إذن معاوية من خلاص ، إن هو آثر الفرار من مأزقه ، إلا فتحة عند المغرب ، تسلم جنده إلى البادية — اجتيازها تحقيق بأن يوقع جيشه في هلكة ، أو يقوده إلى ضياع فما مغامرة بانقلات من ثغرة يترصد له الخطر على كلا جانبيها ، خيرها قنال وشرها وبال وسوء مآل ، وعقباها هزيمة أو استسلام على أية حال ؟ . . . ليوشك أن يقبدي له مصيره الرهيب وهو حينئذ يستقره الضنك فلا تطالعه من قتاعة الأفق إشماعه سلامة . . . الحلقة عليه محكة . الإمام

عن يساره ، والأشتر عن يمينه ، والحائط المسلح على الفرات من وراء ظهره
تصب كلها الويل ، وترميه بالموت والمصارع حين ينجح إلى المشاقة أو إلى الانسحاب
أم يحسب غريمه عند ذاك تاركه يحوز الثغرة فلا يسدها ، ولا يهزم منجل
الخصم ؟ . . .

هو في شرك . غدا العنف لا يجديه ، فالحلاك والمغامرة سواء ، وشق الطريق
عنوة قضاء عليه بالفناء . . . هذه محنة . أحبولة لا يبرحها إلا بالحيلة . وعندما
تطبق عليه الأمور ، وتشبك خيوطها ، وتضيق رحبة الفضاء ، فالإقدام نائلة ،
والإحجام هو الفرض ، والسلامة الغاية . . . إنه فيما علمنا أريب ، وفيما يحسب
على دهاء . . . وله أسوة في الفحص اللدن الذي يثنى إذا عصفت الرياح . . .

لهذه الساعة كان يرنو الإمام وهو عندئذ يستقره قرب صفين يبعث الرسول
بعد الرسول ليحمل الأشتر على الثبات . فقد خيله النصر . وشم رائحة القهر
تنطلق من لدن معاوية وهو كالثعلب في حباله الصياد ، إنه صبر ساعة ، أو سويحات
أو بضمة أيام تعدها الأصابع إن امتد بصاحب الشام أجل كفاحه ولم يعل من أول
لحظة إلى المبادرة للنجاة عن طريق التسليم . وما كان ليستمسك حينذاك بعناد
يورثه هلاكاً لا مرء فيه ، تجمعت فوقه غيومه ، وقطر قطره فأذر بوبل هطال
ما كان ليلوى جيده كما هو الآن يلويه ، ولا ليعقص قرنه ، ويتفخ بخره نفخة المدل
الفرير . ولكنه كان حرياً بأن يروض من شماس نفسه . ويعلك من جماعها قيدع
أحلامه وأوهامه ، ويعيل إلى الوادعة ، ويقبل وهو كظيم بهادن الإمام فيرتفع
الدم ، ويخمد الخصام ، وتنعكس كلمة الإسلام . . .

غير أنها فرصة ولت . ذهب أوانها فلا معاد . وعندما أدرك القوم قدرها ،
وأبصروا مزاياها ، كانوا كالصائد ، أفلت الطير وفرغت الشراك . . . فلقد قضى
عليها الخور ، وتقهقر الأشتر ، وانساب الأشعث على آثاره حتى أصبح الجيش
وهو فصائل مقطعة ، ووحدات بلا عصابة . ولولا أن يادر على فصده ملياً بمن معه
ليلتقى بالخالفين ، لما استوت صفوفه ، ولبقيت جموعها بقضها وحشدها تهددها
هذه الثغرات التي خلفها بينها الاضطراب وفتحتها فوضى الانسحاب . . .

وأقبل الأضحت يحدث الإمام :

« يا أمير المؤمنين ، أينعنا القوم ماء الفرات ، وأنت فينا ومعنا السيوف ؟ ..
خل عنا وعن القوم ، فوالله لا ترجع حتى نرده أو نموت . . . »

وضح له الآن خطل ما أعان عليه ، وعقبى خلافة ، والنتيجة التي أسلمته
العوبة في يدى معاوية ، لو شاء عابث ، ولو شاء حطم وهو حينذاك غير مدافع
ولا مردود . . .

وعاود حديثه ثانية . هذه المرة لم ينكر الوزر الذي به في طريق الانتصار
المضيق كغرسه الشوك والمواسج تحت أقدام طمل غريب :
« . . . سأداوى ما أفسدت اليوم من ذلك . . . »
ولم ينم على وعده . . .

الموت الآن هو مجاز الحياة : الفداء ، والبذل ، وإنكار الذات . إنه امرؤ
جسور . لا تعوزه الشجاعة ، ولا يتردد اللحظة الواحدة في التقدم ورأسه على يمينه
إلى اقتحام الأهوال . . . ليس بخوار . ما هو الذي يفرق أو تهتز تحته أو صاله
إن حمى البأس ولاح الحين ، وامتلأت المعجاج والمفاوز عليه بالمصارع . فالسلاح
ملهاته ، والحرب رياسته ، وهذه الحياة البدوية التي عاشها عمره الطويل زودته
بزاد من الخشونة ، والجلد ، والحية راص نفسه على الكفاح . . .

ويعضى يؤذن الناس بالتأهب للصراع المقدر :

« من كان يريد الماء ، أو الموت ، فليعاده الصبح ! . فإني ناهض إلى الماء . . . »
ثم ينثنى إلى أهله يقوى فيهم اللحم ويشد المزائم :

« يا معشر كندة . . . لا تفضحوني اليوم ولا تخزوني . إنما أقارع بكم
أهل الشام . . . »

حتى في هذا الوطن ، لا يذسى الرجل تلسم الخيلاء التي أفعمت فؤاده ،
ووضعت وقيله ، في عيني نفسه على رءوس غيرهم من المعاشر عندما يشين اللقاء ،
وتدعو الدواعى إلى الصبر في البلاء . . . فلقد علم أنه ليس وحده المناهض
في حرب ، الناهد اليوم إلى مناجزة عدو مدل بأقداره ، مترصد لهم على شريعة
الماء . . . ليس وحده السائر إلى الختوف الرواصد ، والنايا الحواصد . فحين

رفع صوته بالنداء يدعو الناس للأهبة ، كان موقناً غاية اليقين أنه غير مغن
فتيلاً في الوقعة المرقوبة ، إلى أن يعينه عليها معين ، ورفيق جهاد ، وعدة أجناد :
فوارس على خيول كأنها الأعاصير ، تنطلق أمامه فتحشى على وجار خصمه العنيد
بالدمار . . .

يقول حينذاك للإمام ، يستأذنه ويستمدده المعونة :
« يا أمير المؤمنين . . . أنا أ كفيك . قرر الأشر فليعل بخيله فيقف
حيث تأمره . . . »
فيجيئه الإذن :
« ذاك إليكم . . . »

لكنه امرؤ فخور ! . . . يود لو يتعلق به الفضل حين يأزف الفصل ،
وتنتهى إليه الأسباب عندما يشرق النصر ، بعد التقاء النصال والحراب ، وتقضب
الجدوع والرقاب . . . إنه محتال ، ذو سرف في كبره وخيلائه . مزهو ، له غلو
في علوه وازدهائه . ولقد يأنف الموبقة ، ولقد يأنى السقطة ، ولقد يأنى
المكرمات . ولكنه في فعله ، يكاد لا يصدر عن سليقة مستقيمة أو طبيعة سخية
كريمة : بل بقية من نخوة الجاهلية أو حمية البداوة هي التي تسدد خطاه . . .
السيرة المستطيرة ، والذكر ، والأحدوث مأمولة . . . أن يلغظ باسمه الساحر .
أن يتحدث الندى . أن يبديت ثم يصبح وهو مذاق الشفاء ورواية الرواة . . .
ودعه ينطلق في الحومة ، يهجم ويكر ، ويندو على شلو ويروح على شلو ،
وتتصنف أمامه المقاتلة كالأعواد — أيما محنة جازها ، وأيما خطر دهم ، وأيما
بلايا وأرزاء لا تذهله لحظة عن الوفاء لنفسه وجنسه وإن ندى ، في كلا الأمن
والغمة ، الوفاء لمن حق له عليه الوفاء . . .

. . . يرى الأشر يبلى بخير ما يؤمل من مثله ، ويضرب بسيفه جموعاً تتدفق
عليه كالطوفان حتى يكشفها عن الماء ، فلا تهزه هذه الشجاعة النادرة بالرضا
بقدر ما تزلزله بالغيرة ، فيصرخ هاتفا بمجامل لوائه :
« لله أنت ! . . . ايس النخع بخير من كندة . قدم لواءك . فإن الحظ لمن
سبق . . . »

... ويلتقي بمعمرو بن العاص قبيل التعام الأسنة ، فيزجره ، ويخوفه أنفة
قومه البدو الأباة ذوى النخوة :

« ويحك يا عمرو ! .. أترانا نخليك والماء ؟ .. تربت يداك وفمك ! ..
أما علمت أنا معشر عرب — لقد رمت أمرا عظيما ! .. »

.. : وتدور دائرة الواقعة فى النهاية على البغاة ، فلا يرى النصر ، الذى أسهم
هو فيه بحظ وافر ، كفاء لبعض حق وليه أمير المؤمنين ، ولا لبنة فى بناء الهدف
العظيم الذى أفبلوا من أجله ... إنه ليبدو على ريبة كمن لا يدرى ما هى الغاية ،
وفيم القدوم . أو لا ، فإيمانه بحق على — أن يكن آمن به — تسليم ، وولاؤه لثله
ونواياه ولاء مريض سقيم ... يقوم غب انجلاء الواقعة عن الظفر :

« ... والله إن كنت لكارها قتال أهل الصلاة ! .. ولكن ممي من هو
أقدم ممي فى الإسلام ، وأعلم بالكتاب والسنة ... »

ولكنه امرؤ — كما رأينا — غفور . هدفه السيرة المستطيرة ، وتذاكر
السمار ، ورواية الرواة . وحافزه الغيرة ، والحمية ... حتى عندما انتدب نفسه
للقتال على الماء ، لم يكن الندم ما دفعه ، ولا شموره بخطأ ارتداده ، ولا الرغبة
الخالصة فى مظاهر غاية الإمام . إنما تحركت نفسه بزهوها وكبرها وتلك الخيلاء
حينما سمع من دياره هاتفا يحثه على حمل السيف ، ويدعو للنجدة ، ويشير فيه
مكامن الفرور :

لئن لم يحل الأشعث اليوم كربة	من الموت فيها للنفوس تعنت
فنشرب من ماء القرات بسيفه	فهبنا أناسا قبيل كانوا فموتوا
فإن أنت لم تجمع لنا اليوم أمرنا ،	وتلقى التى فيها عليك التشتت
فمن ذا الذى ثنى الحناصر باسمه	سواك ، ومن هذا إليه التلفت ؟ »

٦

وقف الأشتر بين فرسانه ، على فرس له أشرف ، محذوف ، أدهم كلك الغراب ،
يرنو إليهم بعين ، وإلى الفرات البعيد بعين . ثم أقبل يحثهم ويحرضهم ، وقد حان
وقت اللقاء :

« فدتكم نفسى . . . شدوا شدة المخرج الراجى الفرج . فإذا نالكم الرماح
فالتوا فيها ، وإذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه فإنه أشد لشؤون
الرأس . . . »

وهتف الأشعث بن قيس ب رجاله :

« بأبى أتم وأمى . . : تقدموا قاب رعى هذا . . »

وراح يلقي برعته ويتبعه ، والقوم على آثاره ، سيوفهم على عواتقهم ، والحمية
تلتمع بثل ومضة الغضب فى لحظ الأعين . . .

تقدم الرجالان للحومة وما فى الحاطر إلا العنف والقتال والشهادة . كل جهد
بذلاء للإبقاء على السلم عبث ، وكل سبيل فتحاء للموادعة على الماء دون لقاء ، سده
معاوية وصحبه . . . اليوم لا مهادنة . لا فرجة لصلح وإن يكن هذا الماء غير
ما اختلفوا فيه ، وقدموا له ، وتذرع العسكران بالصبر والسلاح والجموع الكثيفة
لبلوغ مداه . . .

فى غمرة هذه المحنة التى طوقت بعلى ، وأحاق شرها بأجناده ، نسى صاحب
الشام والذين معه تلك الذريعة التى اتخذها لجيشهم راية ، ورفعوا على رؤوسهم
ديباجتها المصبغة بلون الدماء . نسوا ثأر عثمان الذى احتجوا به ، وجاءوا فيه ،
وحركوا القلوب والألسن لتقيم عمرها على اللغظ به وترديده . إنما أمس لفقوا
الحجة ليبلغوا من الدنيا جاهها وسطوتها ، فأتهم اليوم فرصة خير من حجة ،
وسانحة دونها كل ذريعة ، إذا أرادوا التوصل إلى هدفهم بالسبل الموطأة دون
الأسباب المصنوعة . . .

الآن لم تعد لهم إلى التعلات حاجة . . . بلغ طموحهم مأمنه ، غدوا على قيد
خطوة من هذا المجد الذى سبقوا إليه الزمان والقدرة والزاياء الخلقية التى يجب

أن تتوفر لكل طامع سلطان . القوة في ملاكهم . العدة أعدت والحشود حشدت . اليد الطولى يدم في موقف أصبح غريمهم فيه كمن شد وثاقه وكبلته الأغلال . فما لهم اليوم والمطل ، وقد كان اللطل أمس مركبهم حين كان البدار حريا بأن يقودهم للدمار . . .

بل يبادرون لحظتهم هذه إلى اهتبال الفرصة التي لم تجدهم بعثها الأيام ، ولم تنهأهم بصنوها أضغاث الأحلام . فلقد مات الآن عثمان في خواطرهم فلا تفكير فيه . ومات أيضا تأره فلا حديث عنه ولا محاجة ولا ادعاء . ومات كذلك كل جدال كانوا يزعمونه وسيلة فيهم إلى الجماعة ، والدخول في رحبة الإمام ، ونبد الانقسام .

لم يدع منهم داعية بدعواهم القديعة : أن ينال قتلة الخليفة الشيخ الجزاء ، أو يسلمهم على عن يد وهو صاغر لسيد الشام ، أو ترجع الأمور شوري في الناس فيؤمر للملا من يشاء . . . كلا ، فما هذه كلها — الساعة — مطلب . لا أرب لهم فيها . لا غاية يأمنون أن يبلغوها من ورائها ، وهي تميلات ، كهذه الغاية المؤكدة المضمونة التي خايلت عيونهم ، وخالجت ألبابهم ، وأوشكت أن تطولها أكفهم ، وهم بموقفهم الحريز المنيع على ضفة الفرات . . .

ويهتف الأشتر بابن العاص وقد توافقا عن كذب ، يتهيان للنزال :
« . . . يا ابن العاص والله لقد نزلنا هذه الفرضة والناس تريد القتال على البصائر والدين . وما قتالنا سائر اليوم إلا حمية . . . »

أجل حمية . فلغير الهدف الذي أقبلوا جميعا ، من هنا ومن هناك ، من أجله يقاتلون . . . لغير الاحتجاج بدم عثمان . لغير شق الطاعة على جماعة الإسلام . لغير الوحدة المشدودة . إنما انتهز رعيهم ابن أبي سفيان ، هذا الموقف الضنك الذي أصبح فيه خصمه ، فهزه سلاحا باترا ليفتح به ثغرة تنفذ من خلالها مآربه ، فيسقط دولة ، ويقيم دولة على أنقاضها لنفسه طالما غازلت فيه عرائس الخيال . وينادي الأشعث حينما يقارب القوم ، وهو يحسر لهم عن رأسه ليروا شعته فيعرفوه :

« أنا الأشعث بن قيس . . . خلوا عن الماء . . . »

فيبادره أبو الأعور :

« أما والله لا ، حق تأخذنا وإياكم السيوف »

« قد والله أظنها دنت منا . . . »

وبمثلها أجابه عمرو :

« والله لا نخلى عنه حتى تأخذنا السيوف وإياكم ، فيعلم ربنا أينما اليوم أصبر . . . »

وعلم ربهم صبرهم ، بل خورهم ، ذلك اليوم على النهر . . . فما أن بلغ عنهم

غايته ، وأبوا المشرب على عدوهم ، وحسبوا موقعهم الحصين مانعهم ، حتى أرسل الأشعث إلى صاحبه :

« أقعم الخيل . . . »

عندئذ انطلق الأشتر بفرسانه كأنهم مرده أطلقوا من عقال طال فيه احتباسهم

منذ عهد سليمان ! جاءهم الفرج بعد ضيق . تنسموا الحرية في ربح الموت .

وما الموت ، وهم يرونه اليوم في الوثوب ، كما رأوه في التقاعد ؟ . . . وما غاية حياة

يحفها الضيم ، ويحدها الحسف ، وتباعدها الكرامة ؟ . وفيهم ذلتهم الآن لدليل ،

رقيق طليق ، استرقه أمس كفره حتى حطم محمد هبل والعزى ومناة ، وغيرها

من مسوخ مؤلمة ، فأكره حينذاك وأبوه وأهله على الخلاص من قيود الضلالة ،

وشرك الشرك ، وأغلال الجهالة العمياء ؟ . . .

لود الأشتر لو تعبد له طريق الاستشهاد ، أثناء هذا الصراع ، عسى أن تغسل

دماؤه حوبته ، وتمحو خطاه عند ما خالف الإمام . . . لكن أجله أمهله .

لم ينؤبته . ظل ثابتا تحت كفره لأدمم الأسهم ، يقفز به على مهاوى الردى ،

ويحمل معه من غبارها الفاتك ، الذي يتناثر من حوافر جواده ، ما يبته على

ردوس مناوئيه . . . بقية الأجل كانت درعه ، وذلك الفرس الكريم المنطلق به

في النهار كقطعة من الليل كان مركبه . والإيمان في فؤاده هو الذي كان يحمل

ويشد ويقصف بمن عارضوه من صفوف المقاتلة ، فيجرعهم الحمام في الخوف قبل

أن يذوقوه في قذفة الرمح وضربة السيف . . . كان شيطانا على شيطان . . .

وكان جواده نذير شؤم للذين يستقبلونه ، إن ثبتوا عصف ، وإن التوا عن مهبه

انعطف كأنما حينهم كان يشده إليها بخيط موصول . . . هو كاللوت ، له سواده

ولونه الحزين ، وله رهبته ، وعلى ديب خييه ، وركضه ، وكانت تتراقص

أبالسة المنايا المنهومة . . .

ومضى يحمل الشكل واليتم والفواجع . . . يقط ويقطد الأجسام والهام وسيفه
غير ناب في كفه ، وفرسه الحالك بلون الغراب ، كغراب ، أو عقاب ، يطير به
فوق نصال السيوف وأسنة الحرب . . . في البدء كانت الخاصة أهدافه . الفوارس
الأجناد . الأبطال الذين سرت لهم سيرة في الشام يحل مثلها عن شطحة الأساطير . .
فما أن عثر بابل فيروز ، صاحب البأس فيهم ، وسمه يرتجز وهو يناديه :
« يا صاحب الطرف الحصان الأدم . . . أقدم . . . » حتى أقدم يلبيه ، ودم ،
فلم يدعه إلا شقين ، قد فلق ظهره برمحه ، وبعت بروحه وذكره على للسواء ،
إلى حيث لا معاد في خاطر مقتون . . .

ثم قفى بدمه بغيره : فئة كثيرة لها بلاء وبسالة ، من الفرسان الأشدة
الأعلام ، فيهم زامل حامل اللواء ، وفيهم مالك بن أدم فارس الشام ، وفيهم
الأجلك الذي عدوه فيمن ذكرت العرب من أبطالها القساورة . لكنهم تخطفتهم
عينه ، وكان الموت يتأرجح فوقهم وفوقه حتى ليوشك أن ينثني عنهم إليه ، ثم
يميل صوبهم دونه ، كأنما اجتلى فيه رهبة تروده وتفسر شبحه على القرار ؟ . . .
شد عليه ابن أدم وهما راكبان حتى غشيته ، وظن الناس أنه قاتله . فلما
اندفع نحوه الرمح مال عنه إلى بطن فرسه فرى عور . وأخطأته الضربة بعثل
شجرة ، وغريته حينذاك مبهوت . . . وإن هي إلا لحظة حتى التوى ، ثم استوى ،
ثم ثبت على ظهر أدمه ، وهو يصيح كالساخر :
« خانك رمح لم يكن خوانا . . . »

وعاجله ، فجندله . . .

وانبرى له زامل يود لو أصابه بأصحابه الصرعى ، فينال ثأر قومه فيه . يعشى
إليه على حذر ، على جواد مدرب أصيل . ويلقى إليه كل عينه ، وكل ذهنه .
ويتربص به غرة يجوزها إليه القضاء . . . فلما أسرع ما احتبست الانفاس ،
والنواظر عند ذاك عاتقة بجسد الأشتر قد أطاحت به الطعنة الصارعة بين القوائم
السود . . .

ولكن قبره لم يكن هناك . . . درأ الطعنة درعه . انثنى عنه رداه . . .
وقبل أن تطرف عين ، هز سيفه مرة وهو راجل فقط قوائم جواد خصمه ،
ثم هزه أخرى فإذا زامل صريع . . .

ولم يكن للأجلح عنده نصيب يفضل مصاب صاحبيه ، وإن أصاب ذكرا في موته سطرته الدامع ، ورددته المجامع ، وسار في الناس مثلا يعز شبيهه في الوفاء . . . فلقد ضاقت أخته بعده بدنياها ، وأكلها الحزن ، وبرى البكاء عينها إذ غدا لها دمعها المزاء ، وحزنها الشراب والغذاء ! . إنها لا تنساء . لا تطيق أن تصير نفسها على الفجعة فيه . لاتفى الليلة بعد الليلة ، والنهار بعد النهار ، تربيته بذوب الروح ومن شؤون الفؤاد حتى قضت حسرة عليه . . .

ويسمع الإمام ذات يوم من رثائها الحزين :

« ألا فابكى أخا ثقة فقد والله أبكىنا

أنا اليوم مقتله فقد جزت نواصينا

كريم ما جد الجدي بن يشفى من أعادينا »

فلا ينضح لها بغير التوجع لـنـكبتها ، والأسى عليها . حتى إذا بلغ الرواية من نظيمها :

« شفانا الله من أهل الـ عراق فقد أبادونا . . . »

دار بوجهه في أصحابه يهون عليهم من دعوتها ، ثم رفعه إلى السماء :

« أما إنهن ليس يملكن ما رأيتم من الجزع . أما إنهم قد أضروا بنسائهم

فتركوهن أيامى حزانى بائسات ، من قبل ابن آكلة الأكباد ... اللهم حملة

آثاءهم وأوزارهم ، وأثقالا مع أثقالهم ؟ ... »

وكم تركوا اليوم وراءهم من أيامى ويتامى — أولئك الذين أبوا إلا أن

يشعلوها فتنة كنار الجعيم اصطلوا حرها من أجل جاء الحياة ! . . طاش عن

الهدى صوابهم ، وصل فيها حسابهم ولم يجدهم الأمل للأمول . ولا عتوم

بما امتلكوا اليوم من بأس الحرب ومنعة الموقع قد أغنى عنهم ، إنما غدوا وقودا

للنار ، تمتد لها السنة نقادة تتخير منهم الجياد ، وتأكل الفوارس ، وتحرق

لأبطال لأجلاء . . . الأشر يضرب ويصرع ، والأشعث يضرب ويصرع .

والمنجل يحصد والرحى تدور ...

ولا يطول صبر ولا كـر . بل هي حملة ثم أختها يخلص بها القائدان من خاصة

خصمهم إلى جمهوره . فإذا الأول بفرسانه يشد في ناحية ، وإذا الآخر برجله

يشد في أخرى . فما يشور النقع حتى تنهاوى صفوف العدو المدل وتفتل ، وتنفرج

عن زعيمها الذي حسب زمانه آتية الساعة بالمجد والنصر والوصول إلى أسارى
أذلاء يرغبون الجلاء في تراب قدميه . . .

وعندما بانتهز الفرصة لمعاوية ، وتنازلت أمام عينيه سوداء مغبرة ، كهذا الأدهم
الذي أركضه إليه الأشر فوق هام عصيته ، لم ير صاحب الشام في الصبر نجاء ...
إنما مال عن موقفه ، ولاذ عن خصمه بالقرار ينحاز بقومه ثلاثة فراسخ ، ثم
ينأى ، ثم يعمى وسمعه عسى المكيدة في غد تنيله ما لم ينل بسيفه . . .

وبعث إلى البقية من أصحابه التي استمسكت بالدفاع :

« لا تقاتلوا ... خلوا بينهم وبينه ... » .

وهل كان ثمة مجال لقتال ؟ . . بل المجال كله وسيع فحسب لمن يؤثر الحياة
في ضيم ، ويلتقط أجله وهو مبصر على الأديم الندي بالدم ، بين تثار الأبدان
ومزق الأجساد ثم لا يكاد . . . فلقد ظفر من باع نفسه لله ، وخسر من باع
حظه من آخرته بشهوة الحياة . علا الحق فهو سماء ، وزهق الباطل فهو جفاء ...

وعندما غمست خيل على منابكها في مياه الفرات . وفر معاوية وجنوده
مقهورين بلاذهم البعيد الجديد ، انفلت إليه صاحبه عمرو ، على ثغره مع قتره
القهر بسمة صفراء ساخرة :

« يا معاوية . . . ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء اليوم ، كما منعهم أمس .

أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه ؟ . . . » .

فأشاح عنه وهو يهمس عن كمد وغيظ :

« دع عنك ما مضى منه . . . » .

ثم ألقى بعينه إلى الماء ، تسبح هناك هنية بين الحشود المظفرة ، إلى غاية
نظره ومداه . إلى مناط فكره . إلى الدخيلة الصافية للإمام ، والطبيعة النقية
الكريمة . . . فإن هي إلا برهة تقضت عليه وهو يفكر ، ويقدر ، ويستخلص
عواقب الأمور حق شاع الرضا على محياه . . .

وقال بعد هذا لصاحبه :

« ما ظنك بعلي يا ابن العاص ؟ . . . » .

فأجابه وقد حدس مرماه :

« على ؟ . . ظني أنه لا يستعمل منك ما استعملت منه . وأن الذي جاء

له غير الماء . . . »

V

طلع ذو الحجة بالأمل في سلم ترد عليهم جميعا الوحدة ، وتنزع من القلوب الغل ، وتدع الناس وهم على جادة سواء ، لا تلتوى الطرق بهم ولا تشعب المذاهب . بدت غرته كوضاء البدر في الليل ، كالجبين الأبلج ، كالشامة البيضاء في جبهة الأدهم . لها من إشراقة الرجاء شعاع . فيها أمن ، عليها طمأنينة ودعة . حق الذين نالت منهم الجراح ، وخضبهم الدم ، طابت نفوسهم بولده . . .

كلا الفتيين هدا منهم الروح . لاح قرارهم في بشار صباحه . . . الآن يتقسمون الأمان حاضرهم عليه سكينه ، غدهم القابل مأمول ، يوشك ملائمتهم أن يتخيل فيه عروة غير مقصومة توثق بين الحزبين فتعيد الأمة ، كأسمها القريب ، مؤتلفة ، تجمع النازل الداني والنازح الغريب . . . وما لهم لا يأملون وشهرهم هذا يعلمهم الألفة ؟ . . . وهو موعد التواصي بالتعاضب ولأم الصدوع ، وهو موسم خير ، تهوى فيه أفئدة كل مسلم ومسلمة ، وعيونهم وأبدانهم ، إلى بقعة ذات أمن ويعن ، بأرض مكة قد طهرها الله ، وأقام فيها قواعد بيته الحرام بيد أبيهم إبراهيم . . .

ومضوا على صفاء . . . يومان كاملان مرا قبل هذه الغرة وهم إخوة ، نأت عنهم المواجد وخلفهم الأحقاد . المحنة التي باعدت بينهم ، ولوت زمانا بأجيادهم عن الوفاق ، وأرسلتهم يترامقون بالموت على مشافر الأسنة غدت الآن في ظل الغابر . توارى وجهها بعد وقعة الفرات كأنما أغرقنها إحدى لججه حين اقتحمه جند على بخيله ورجله وغمسوا فيه القائمة والساق . . . فلما أملى لهم أمير المؤمنين في الشماتة . ولا أعانهم على البطش . ولا أمكن لهم في الثأر من عدوه الذي منعه شربة الماء . . . وعندما جاءه الأشعث بن قيس ، وعليه رهج القتال ، يدل بالنصرة : « أرضيتك يا أمير المؤمنين . . . قد غلب الله لك على الماء » .

قال للناس :

« خذوا من الماء حاجتكم ، وارجعوا إلى عسكريكم » .

فلما سمعهم يزأرون :

« لا والله لا نسقيهموه ! » .

أبي عليهم ما أرادوه :

« أيها الناس . . . إن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم . . . إن

الخطب أعظم من منع الماء . . . »

ثم بحث إلى معاوية يهدي جأشه ويبت في نواحي نفسه الأمان :

« إنا لا نكافيك بصنعك ، هلم إلى الماء فنحن وأتم فيه سواء . . . » .

وكذلك شاء أن يخلص لمثله الكريهة ، وطبيعته النبيلة السمحة فلم يبادر خصمه

بمثل عدوته ، ولم يسل عليه سيف الصدى الذي ابتزه إياه . وكذلك اختلفت الروايا

من الطائفتين إلى الشريعة ، والحيل والدواب ، ترد وتصدر على طمأنينة . . .

يومان كاملان انقضا لم تهز كف رجحا ، ولم ينطلق من قرابه حسام . فلم يكن

الخطب في الحقيقة شربة تبل عطش الظامى وتنقع غلة الصديان . بك هو خطب

هذه الأمة التي جمعها في الزمان عهد ، وفرقها الآن عهد ، وأخذت تنوشها

الآهواء الجامحة والمقاصد المفتونة بما ينذر بالندهور والانهار . . . إنه خطب

الحرب . خطب الإسلام الذي توشك الحوادث الدامية أن تعصف بأعواده ، فتقصف

فروعه الطرية النضر ، وتجتث جذوره الفتية الحضر ولا تشب بمد دوحته وتصلب

على الأيام . . . فلقد أجلبت العرب : نصفها على نصفها . بأسها بينها شديد ،

فقالها خاسر ومفلوحيها خاسر . . .

وأحضر الإمام بعض صحبه إليه :

« اثنوا هذا الرجل فادعوه إلى الله عز وجل ، وإلى الطاعة والجماعة ، وإلى

أمر الله تعالى . . . » .

كأنما نعى أن يرعى معاوية ربه ، في قومه وأمته — إن لم يرعه في دينه —

فيادر وهو على شفا الويل حينذاك بإلقاء سلاحه ، ضنا بالدم ، وإبقاء على الناس .

عسى أن يرشد من بعد غواية . عسى أن تعطفه الرحمة على عشيرته أن تناولها

للمصارح . عسى أن تستميله هذه الساحة والنبيل والرفق من على بعد وقعة الفرات

فيقابل إحسانه بإحسان . . .

وساءله منهم سائل :

و ألا نطمعه ، يا أمير المؤمنين ، في سلطان توليه إياه ، ومنزلة تكون بها له
أثرة عندك إن هو بايعك ؟ . . . » .

فأبى أن يرضخ له الرضاخ ، أو يساومه في الحق :

« اثنوه فآلقوه ، واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه . . . » .

فلم يجهم معاوية بجديد . إنما عنت وعناد وإصرار . يأتونه من آخرته
فينأى ويحميد ، من أطباعه فيسرف ويزيد ، كأن قد عقد النية على أمر ، ومضى
إلى غاية له على مزالق ، كالهوى مع جرف السيل ما تقدمه من ثبات . . .
قال له أحدهم :

« يا معاوية . إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة . . . فأنشدك
بالله أن تفرق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها . . . » .

فأجاب كالساخر :

« فهلا أوصيت صاحبك ؟ . . » .

« صاحبى أحق البرية في هذا الأمر ، في الفضل والدين والسابقة والإسلام
والقربة من رسول الله . . . وإني أدعوك إلى تقوى ربك ، وإجابة ابن عمك
إلى ما يدعوك إليه من الحق — » .

« ويطل دم عثمان ؟ . . لا والرحمن لا أفعل . . . » .

وعندئذ انبرى له شيث بن ربعى . لم يطق أن يسمعه يلوك حجة مردودة
عليه ، هو يعلم وهو يلوكها أنها زيف ، ومنطق باطل ، ودعوى منقوضة . . .
« لا يخفى علينا يا معاوية ما تقرب وما تطلب . . . إنك لا تجد شيئاً
تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا أن قلت
لهم : (قتل إمامكم مظلوماً فهللوا نطلب بدمه) . . . فاستجاب لك سفهاء
طغام رذال . وقد علمنا أنك قد أبطأت عنه بالنصر ، وأجبت له القتل بهذه
المنزلة التى تطلب — ورب مبتع أمراً يحول الله دونه . . . والله لئن أخطأك
ما أرجو إنك لشر العرب حالاً . ولئن أصبت ما تتعناه لاتصيه حتى تستحق
صلى النار . . . » .

فجبهته صراحة شيث حتى أخرجته عن طوقه من هدوء الطباع ، فثار به
وبأسبابه :

« كذبت ولويت أيها الأعرابي الجلف الجاني ! ... انصرفوا من عندي ، فليس بيني وبينكم إلا السيف ... » .

ولم تكن هذه أول مرة ركب فيها معاوية عناده ، وأسرف سرفه في المشاقة حق تهديد وتوعد وأوشك أن يسيل الحسام في وجه دعوة السلام . ولم تكن هي الأخيرة ، فلقد سبقها كثير وتلاها كثير . ولكنه في كل مرة كان يعين في عنته وإن بدا هو أمام أناس كالساعي إلى الوحدة ، العامل على الوفاق ...

... كان همه ، إذ لعل في النفوس قداسة ، أن يشغل عنه قلوب القراء فلا يلوذ به لائذ منهم ، ولا يظاھره على ابن هند ظهير . لما أن ضاق خلافه بأبي الدرداء وأبي أمامة الباهلي ، وهما حينذاك عنده بالشام ، ووجدتهما يراجمانه : « يا معاوية . علام تقاتل هذا الرجل ؟ ... فوالله لو أقدم منك مسلما ، وأحق بهذا الأمر ، وأقرب إلى النبي » .

لوى بهم :

« أقاتله على دم عثمان ، وأنه آوى قتلته ... فقولوا له فليقدنا من قتلته وأنا أول من يبايعه من أهل الشام ... » .

وفعل بالسادجين مكره ، وقد فانهما أن القصاص حق ولي الأمر في المسلمين وحده أو يضطرب حبل النظام . وما لمعاوية إذن والقود وهو فرد من الرعية ؟ . وفيه دخوله في هذا الأمر إلا أن وجدته مطية تحتمله إلى سواء ؟ ... وأين هذه الساعة دماء عثمان وهي هدر وكانت أمسها حرما يوشك أن يستمضي على صارعيه لو سارع إليه معاوية بنصره حين عزت النصر له إلا من الإمام ؟ ...

وخرج الرجلان يظلمان بهذه الحجة المفلوكة إلى صفوف على وفي ظنهما أن معيها سيثمر الوفاق . فكيف لقيتهما حينذاك الجموع ؟ ...

دخلا على أمير المؤمنين يسألانه مطلب يعتسف الشام ، فلم تغب عنه المكيدة المسترة ، والطلبية المستحيلة التي دونتها ندور الهام ؟ ... ولكنه أخذها معه إلى صفوفه ، ثم أشار :

« هم الذين ترون ... » .

فما أن جالا في القوم ، وسرى فيهم نبأ ما قدما فيه ، حتى انبرى لها قرابة

عشرين ألفاً من المقاتلة مسربلين في الحديد ، لا يرى منهم سوى الحدق ،
يهتفون بمثل قصف الرعود :

« كلنا قتلة عثمان ! . . . » .

... .. وأخرى أيضاً . . .

أخرى من هذه الحيل التي تواترت تكشف لنا عن عنت معاوية ، واعتسافه
الذرائع والتعلات التي تدنيه من بلوغ أربه ثم تنثيه عن شبهة المشاقة والاعتساف !
إنه ها هنا ليبدو كمن يعيد للخواطر خرافة الذئب الذي اشتبهى الحمل فراح يتذرع
إلى افتراسه بمشق التلغيق وصوغ صنوف من الأسباب والمعاذير تخفي منه عنت
المتحيف وتظهر منه هيئة المنصف أو هو في الحق تلك القدوة التي
تأثرت خطاها الملتوية فيما بعد كافة الذئاب . . . تأتية من القراء ، مرة ، طائفة
ودت لو ترده عن عزمه ، وتميل به عن سبيل العناد الذي يوشك أن ينتهي
بالأمة الإسلامية إلى محنة حازبة مآلها إلى بوار ، فلا يكاد يشم منهم اللوم حتى
يمضي به طريقه الدائر : بحلقة من تعلاته تسلم من حجة إلى حجة ، ومن ذريعة
إلى ذريعة كلها مغتولة مصنوعة . . . فإذا صدموه ببيان ، أو جبهوه ببرهان ،
فمعين زعمه لا يغيض . . . :

يحيثهم بدعواه . ثم يقف بعدها على آثارها بسلسلة طويلة مبطلات ، حلقة
حلقة . كلما راجعوه أنام المرة بمخئل جديد :

« أطلب بدم عثمان ، من على . . . هو قتله وآوى قاتليه . . . » .

« إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالاً . . . » .

« إن لم يكن فعل هذا فليمكننا من قتلة عثمان ، فإنهم في عسكره وجنده

وأصحابه وعضده . . . » .

« فما له ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ؟ . . . » .

« الناس تبع المهاجرين والأنصار ؟ . . فما بال من ها هنا منهم لم يدخلوا

في هذا الأمر فبؤسوه . . . » .

علة وراء علة ، وذريعة وراء ذريعة تدنيه من بلوغ أربه ثم تنثيه عن شبهة

المشاقة والاعتساف ! . ولكنهما معاذير منقوضة ، وحجج منقوضة لا ثبات لها

أمام منطق الحوادث ، ولا في سبيل الحقائق الدافق الذي لا يحتاج لبرهان .
فما كان عثمان ضحية ثأر ، ولا صريع نقمة فردية نضعت بها نفس رجل من
الناس . ولكنه حاكم ضاقت بحكمه رعيته ، وملكها غضبها عليه حتى ثارت به
ثورة عامة انتظمت الكبير والصغير ، والخاصة والختالة ، والدأى والقاصى من
سكان المدينة إلى أهل الأمصار والأقاليم . . .

ويقول على للذين أرادوه على القصاص من أولئك الثوار وقد علمهم
يمدون بالألوف :

« تأول القوم عليه القرآن ، ووقعت الفرقة . وقتلوه في سلطانه وليس
على ضربهم قود . . . » .

ويراجعه من أذئاب معاوية من يقول :

« أتشهد أن عثمان قتل مظلوما ؟ . . . » .

فلا يتوانى عن الجواب :

« إني لا أقول إنه قتل مظلوما ، ولا إنه قتل ظالما . . . »

وقيل الفتنة كان يحذر عثمان :

« الناس إلى عدلك أخرج منهم إلى قتلك . . . »

فلما أساء فيهم السيرة وقتلوه ، طالعهم الإمام برأيه في القتل ، ورأيه

في القاتل ، بغير إخفاء :

« استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع . . . » والله حكم واقع

في المستأثر والجازع . . . »

غير أن معاوية كان لا ينى ، كلما توطأت له مناهج المعارضة والخلاف ، يلوح

بهذه الراية الدامية أمام الأبصار ، عسى أن يلف رmqها إليه ، ويحتوى برقعنها

المصبغة غوافل العقول في أحضانه . . . فالناس عبيد الحمية . والعرب عامة أمة

يفتنها الثأر . والشام من بينهم درجت على طاعته ، وشبت تحت ظل سلطانه ،

فليس فيها من يقابله بغير التسليم برأيه والامتناع لأمره ونهيه . . . حتى في هذا

اليوم الذى طعم فيه وجنوده ذلة الهزيمة ، لم يراجع من قومه مراجع ، ولم يحملوه

أو يعظوه أن يلين جانبه فيسمع لدعوة الوفاق القى دعا بها الإمام .

وعندما أقبل الليل ، وغابت غرة الشهر الحرام في الظلمة ، كانت أمانى السلم قد توارت كذلك عن النفوس الراجية إلى وهدنة من اليأس بعيدة المهوى عميقة القاع . . .

ودخل عليه حينذاك ، والمساء يرسم ظلال غسقه على السحب البيض حمراء كالدم ، عبيد الله بن عمر بن الخطاب . . . فما أن شهد الإمام يزلف إليه في مشية المعجب ، حق هتف به بما يهد كبريائه :

« أنت قاتل الهرمزان ! . . لقد كان أبوك فرض له الديوان وأدخله في الإسلام . . . »

فأسعف الفقى صلفه :

« الحمد لله الذى جعلك تطلبنى بدم الهرمزان ، وأطلبك بدم عثمان ! . . »

وعندئذ تبين الإمام عنت أخصامه ، وعزمهم الثابت الذى لن يلين ، فقال

للمفتون بصوته الوثيد الرزين :

« لا عليك . . . سيجمعنى وإياك الحرب غدا . . . »

وفى غد تسير العزائم ! . . .

٨

بدت صفين كالإهاب المرقش . بجلد الحية : به سواد وبياض . . . كانت رقعة من السلم خرقتها العنت ، أو ديباجة من الحرب خرقتها الأناة . . . كانت هدنة هفا إليها دائماً على ، وسعى سعيه لتسكون مجازة إلى سلام دائم يؤمن سرب أمته ، ويهبها الأمن والحياة . . .

لم تكن سلماً كالسلم . ولا هدنة كالهدنة . ولا حرباً كال حرب . إنما أخذت من أولئك كله بطرف حق ضاع وجهها بين ألناف هذه العوامل المضطربة الخطوط ، والمختلطة الظلال والألوان . فيها عداوة وفيها صفاء . فيها قرار وفيها دم . فيها رقبة للخير وفيها تربص بالأحيان . . . الحياة تصطرع آنا تذود عن مقوماتها فتغلب الموت . واللوت يصطرع آونة يدافع عن خرابه فيقهر الحياة .

وفي كل هذه الأثناء كان الناس في هم من رجاء يخطف مناه ، وقنوط يدهم سواده . على شبهة من يومهم ومن غدهم ، فلا يدرون أنومهم على طمأنينة أم إصباحهم على قتال . . .

على هذه الهيئة انطلقت الأيام . سلم ولا سلم ، وحرب ولا حرب ، كأنما أمانهم حلم حالم طالت الرقدة به فلم تنفتح عينه على حقائق الصباح . . . وكان الإمام دائماً حليف الحياة . وكان ابن هند دائماً حليف الموت ، يمدد بالزاد بعد الزاد من الوقعة والعنت والعناد . ويلوى جيده عن الوحدة المنشودة إلا أن يفتكس عليه تقديره ، وتشتبك أسوره فيخفض حينذاك جناحه ساعة أو بعضها لدعوة الوفاق . إذا خيله الظفر تجبر ، وإذا لاحت الهزيمة صانع وخادع حتى بلغت من أنيابها بحيلة تدنيه في الأعين العاشية من الله ، وتبعد به عن الملامة . .

لكن المواجهة والمخادعة كليهما لم ينجيا القوم من قدر لازم حق عليهما قبل أن تتحرك بهم الأقدام . فالحق بين والباطل بين ، والمطل إن جاز مرة على المطول فإنها أناة ترث وتزول ، وفترة من الزمن لا تطول . وعند ما يفيض بالنفوس صبرها لا تمسكها حيلة . وعندما تطفح الكأس تسيل . ولقد اغط الناس : ضجت طائفة ، وشكت طائفة ، وهم يرون عدوهم أمامهم مدلاً لاهياً لا تزعه دعوة ولا يناله حسام . الماذل تقبضه عيبة وتبسطه عيبة . والشاك تنشره ريبة وتطويه ريبة . والإمام بينهم غرض تقاذفه نثار الظنون التي حسبت صبره على غريره مرة شكا منه في لزوم القتال ، ومرة كراهة الموت . فلما أن نيا به اللعط ، وساءه الهمس الساري من الشفاء للمسامع . لم يعد له معدى عن مصارحتهم بخافية ما اختلفوا فيه :

« . . . أما قولكم : أكل ذلك كراهية الموت ؟ — فوالله ما أبالي أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى . . . وأما قولكم : شكا في أهل الشام — فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهدى بي وتعشو إلى ضوئي ، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوء بآثامها . . . »

وقديماً كان يقول مثل هذا القول ، ويسير على نهجه ، ولا يني يتريث عسى الله أن يمد عدوه بالهداية ، ويجنبه غواية إبليس . وهو اليوم أيضاً يصبر ليفسح لأمله . وهو في غد يطاول معاوية وما أبه بحوله وطوله ، ولا بخيله ورجله . . .

لقد كان إبان القتال الذي حمى من بعد يأسه ، وفارت سعره ، بحث أصحابه على الثبات أمام هبة الهلاك العاصفة ، ويهون عليهم الصير ، فيتلو لهم :
« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذن لا تتمون إلا قليلاً . . . »

وكان يهتف بالذين يثنون عندما تضيق عليهم حلقة الأُسنة يسرعون من فوجها إلى النجاة :

« ابن فراركم من الموت الذي ان تهجزوه إلى الحياة القى ان تبقى لكم . . . »
وكان ينطلق في الصفوف التريصة به - بين احتدام الوغى ونوران رهجه ، حاسراً بلا عصابة ، عاطلاً بلا درع . فإذا خاف صحبه عليه مغبة إقدامه ، ابتسم وقال بغير مبالاة :

« أبا الموت تخوفوني ؟ . . إن على من الله جنة حصينة ، فإذا جاء يومى انفرجت عني وأسلمتني . فحينئذ لا يطيش السهم ، ولا يبرأ السكهم . . . »
كلام لم ترده عن قتال أعدائه خشية الموت ، والموت على الحلائق لزام ، وعلى المؤمن صلاة وقيام . . إنما كان يستأنى بأهل العناد طاقة جهده واصطباره لعل أحلامهم تصيب من بعد جهالة ، أو تؤوب للهدى من ضلالة . فالتضية تضية الكافة . قضية الإسلام . لا معاوية ولا الإمام . وحين يتهياً للنجل ، ويهتز للحصاد ، لن يتخير من الثمار . . .

ومضت صفين . مضت على وجهها إلى غايتها في طريق أين من الأمن قد اعترضته صنوف كثيرة من صخر الحرب ، ومن حفر الموت ، ومن جداول الدم المسفوك . . عاشت من عمر الدنيا نحواً من مائة يوم ، ومن أجل القتل نحواً من تسعين وقعة . ولكنه قتال — في أعظم حالاته — كائن أدنى إلى المناوشة والغارة . لا حسم فيه ولا فصل ، ولا تجيش بالعدة كلها وبالعدد كله . إنما كان على يأمر الرجل من أصحابه ، فيخرج في جماعة من المقاتلة تاتي جماعة من عدوه ، فيقتتلان في اليوم مرة ، وفي اليوم مرتين ، ثم تؤوب كل فرقة إلى جيشها عند ما يغرب النهار . يخرج الأشر آونة ، ويخرج قيس آونة ، ويخرج غير هذا وذلك ، كل في يوم ، من أعوان الإمام الأتابة ، أبطال يناجزون من جنود معاوية النظائر الأمثال . . .

مناجزات أوشكت أن تكون فردية . حرب ولا حرب . صراع مائع استغرق كل ذى الحجة كأعما خشي كلا الفريقين أن يتقدم بكل جمعه إلى القتال مخافة الهلكة والاستئصال . فدعوة الصلح آسرة . والرجاء فى السلام لم يغض م عينه . ودعاة النوفيق من أهل الورع والقراء لا يزالون يحرثون النفوس ليغرسوا السكينة — النية خالصة ، أو حسبها جلهم كذاك . . .

وحين أفبل المحرم ، أغمد السيف ، وجف الدم ، وانبرى اللسان والقلم . . . الشهر الحرام فاء بالناس الموادعة . حنهم أمنه على تلمس الأمن . دفعهم عرفه لطفى الضغينة . . . فلما استهل الهلال جرت الرسل كرة أخرى تلوح براية السلم ، وتعمل لحقن الدماء ومنع البلاء . . .

حتى معاوية بدا فى قومه كالساعى للوحدة . ما كان ليحجم ، والملا أوشكوا أن يعتقدوا الأمل على صلح لمع بريقه فى الخواطر ، وتجاوبت ببشرائه الأنفوس حتى خاليل العيون النواظر . . . إنه لم يرم وحدة ، ولم يجد لألفة ، ولم يتطلع إلى وثام يجيئه على حساب أطماعه وأنقاض طموحه ومراميه . ولكنه شهد الناس قد هفوا إلى الحياة الرخية فى ظلال الإخاء والطعمأنينة ، فشق عليه أن تذوب أحلامه العريضة كما تذوب الظلال فى سطعة النور : وأن يخالف جمعهم فيكشفوه داعية شقاق وعدو وفاق . لم تكن له حيلة إلا التظاهر بالسير فى غمار هذه الرغبات التى انبثقت عينها من قلوب المجموع . . . وإنه ليفكر . وإنه ليدير أمره ويشحذ حرصه وحذره فلا يعيبه أن يصطنع الوسيلة التى تبديه مسهما فى الهدف العام ، ثم ندينه من أحلامه . . .

يبعث برسل إلى على ، ظاهر دعوتهم ألفة وخبيثها خلاف برددون عنده ثانية ما أسلف به صاحبهم ، ويطلبون منه المحال ، وهم يعلمون أنه محال ؟ . . . يقول قائلهم :

« . . . إن عثمان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ، وينيب إلى أمر الله . فاستقلتم حياته ، واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه فقتلتموه . . . فادفع إلينا قتلة عثمان تقتلهم به . فإن قلت إنك لم تقتله ، فاعتزل أمر الناس فيكون أمرهم هذا شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . . . »

فكم من ذريعة مصنوعة . وكم من حديث مثله معاد . . .
ويتلهب بينهم وبين الإمام النقاش . هم على إفسكهم ، وهو على حقه ،
لا ينصرفون شعرة عن عنادهم وغيبهم ، وإن أتاهم بالحجة الواضحة ، والبينة المسفرة
الوضيئة كإشراقه النهار . فما لهم من سبيل سوى خلافه ولا من غاية إلا نزعه
من حيث نصبه الناس وحق عند ما يحاول أن يشير فيهم عاطفة الولاء التي
يكنها كل مسلم غيرهم للرسول الكريم ، بعد أن غلفوا قلوبهم عن براهينه ،
بيدون كأنهم في غير واديه . أفندتهم صخر . آذانهم بها وقر . أبصارهم عليها
غشاء . . . لا يكادون يفقهون قوله أو تهزم دعوته وهو يعظمهم وينشدهم الله :
« ... عجبنا لكم ، ولإجلابكم معه ، وانقيادكم له ، وتدعون أهل بيت نبيكم
الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ، ولا أن تعدلوا بهم أحدا من الناس ...
إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيكم ، وإمانة الباطل ، وإحياء معالم
الدين . . . أقول قولي هذا وأستغفر الله لنا ، ولكل مؤمن ومؤمنة ، ومسلم
ومسلمة » .

غير أنها دعوة إن أقيمت اليوم منهم الصمم وهي وسيلة إلى رآب الصدع ،
فسوف تكون في غد صرختهم وهي وسيلة لبذر الفتنة فالله ليس غايتهم :
لكنه — علا وجل — سيلاحون باسمه راية لهم قد لونوا أديعها النقي بالبهتان .
وعندما يضطرب أمرهم بينهم ، ويأكلهم الوهن ، وتستشري في صفوفهم حريق
الهمزية ، سيحملون الكتاب ، ويهتفون بالله ، ويتنادى شياطينهم بدعوة حق
سخروها لباطل ، ولو ثوا وجهها بالضلال .

وكذلك تظاهر معاوية بالرغبة الجادة في تلمس وسائل الوثام والسلام وهو
ينفخ غير وان في نيران الفتنة ويعمل جاهدا للانقسام وما كانت رسله
إلا غشاوة تخفي غرضه عن نظرة الغافل ، وفهم الجاهل ، وإدراك الفتنة للفتونة
من عصبته الذين يشدهم هوامم إليه ، ونشب دنياهم ، ومواجد قلوبهم كما يقاد
البعير القيرير لنصل الجزار وما كان دعاؤه سوى تقاق ، أريد به لي الأعين
عن حقيقة آرايه التي شف عنها كدحه الحثيث لاحتلاب السلطة ، وامتلاك أعنة
الأمر في الإسلام . فلقد علم ولما يبعث برسله هؤلاء ، ومن قبل علم ، ومن بعد
علم ، ألا رأى له في بيعة أبرمها من لهم وحدهم حيثذاك حق الإبرام — وهم خلاصة

المهاجرين والأنصار بالمدينة — إلا أن يوافق فتنتظمه الجماعة وتلزمه الطاعة ، أو يخالف فيخرج على النظام . ولكنه أباح نفسه ما لا يباح ، وأحقها غير حقه وموضع

فشل وفده ، وعادوا إليه يبنثونه بما هو به عليم وفشل قبله وبعده غيره من الوفود . لكن ابن هند كان دائماً يتصيد من الفشل كل نهزة قد قدنيه هونا من هدفه ، يعز بها عند رجاله ، ويشر بسنها في صفوف خصمه وأسواره ما وسعه تحين الظروف . فلم يكن يدع الوعيد ، يلوح به كلما جاءه من على رسول يحدثه ، إن حسب وعيده مبلغه من نفس الوافد بعض ما يرتجيه . ولا كان يكتف المصانعة واكتساء الرياء حين يظن في التملق الشفاء . ولا قدم مرة عن إثارة طمع الأنفس إذا قدر أنها تسترقها الشهوة وتستذلها العروض ، أيعا باب ولجه وأيعا محراب اعتلاه وهو في هذا كله كان دائماً على خلط المداجاة بالوقعة : عب وقعه الماء ، يأتيه بشير وشبث وسعيد ، بعثة من لدن أمير المؤمنين ، يدعونه إلى الطاعة . فما يكاد هبث يتقدم رفيقه سعيد بن قيس إلى الكلام ، حتى يلقف العامل المرائي هذه البادرة ، فيدع الأمر الذي جاءوا فيه ، ويحاول أن يتفذ بين الصاحبين بدسه الرخيص

يقبل على شبث معنفا يلومه وهو يظهر الغضب عليه من أجل سعيد :
« . . . إن أول ما عرفت به سفهك وخفة حلمك : قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقته — ! » .

لكنها وقعة رمى بها الرفيقان دبر الآذان
وفي المحرم . حين يعود شبث وعدى ويزيد وزياد ، وفدا آخر من لدن على ، لا يكاد الرجل يلتقي باله إلى دعوة السلام إلا بقدر ما يبيعه إياه حرصه على الظهور كالوادع المسالم . فإذا صك سمعه من الدعوة نبأ نكبة الزبير وطلعة ، استأسد وثار

يقول له عدى بن حاتم :
« إنا أتيناك تدعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ، ويحقق الله به دماء المسلمين إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقة . وأحسنها في الإسلام آثارا . وقد اجتمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فأتوا ، فلم يبق أحد

غيرك وغير من معك . . . فانت يا معاوية من قبل أن يصيبك الله وأصحابك بمثل يوم الجمل .

عند هذا يشور . لاتنفعه الذكرى ، ولا يصغى للعبرة . ولكنه يسرع — كأنما رأى في هذه الإشارة الخلاص — فيزوق الكلام وعيدا حافلا برشاش زئيره ، يتهددهم به :

« كأنك جئت متهددا ولم تأت مصلحا . . . هيهات يا عدى . . . كلا والله ، إني لابن حرب ، ما يقعق لي بالشنان ! . . . »

ثم لا يشوب به إلى في الهدأة أن يقطع علقته زياد بن خصفة جنوحه إلى تلمس الأسباب للمشاقة .

« أتيتك فيها يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب الأمثال لنا . . . دع ما لا ينفع من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمننا وإياك نفعه . . . »

لا تشوب به هذه الملاينة إلى الهدى ، ثم لاتحمله إلى السكون إلا هنية يعد فيها دعاواه واقتراه . فإذا أعد وهياً فقد آتى كرة أخرى — وكم من كرة ! — بأباطيله التي جهد زمانا لتثير الشبهة حول مسلك الإمام . فهو عنده قاتل وائر ، أو محرض مؤامر ، أو منافح عن الجنة ناصر . ما لابن هند وسيلة يفلت بها من تقبل الدعوة الجامعة إلا هذا التيه من الجدل والإفك يلف فيه ويدور . ولا غاية له يرنو إليها بروحه إلا إفساد كل سعى هدفه الأمن وانتظام الأمور . . فلما أن فشلت الوفادة كبتغاه ، وخرج الرسل من خبائه ، راح يدعو إليه خدعه يستنهضها أن تعدد بالدسيسة .

وعندما يدهم الليل ، وتغفل الأعين إلا عين دساس خاتل ، يبعث الرجل إلى زياد من دون أصحابه الآخر يدعوه . . .

حينئذ فحسب يلبس الأسد جلد هرة . . . يبرد إرعاده ، ويحتفى وعيده وتهديده ، وتتوارى فيه عزة المدل بنفسه وبأبيه خلف ستر من الملق والرياء ، نسجه كيده ، ورقشه وعده ، وزر كشه ثقته وعقده . . .

يقول لزياد بصوت لين تسيل منه الضراعة :

« يا أخا ريعة . . . إن عليا قطع أرحامنا ، وتخل إمامنا ، وآوى قتلة

صاحبنا . وإني أسألك النصره عليه بأسرتك وعشيرتك ، ولك على عهد الله وميثاقه إذا ظهرت أن أوليك أى المصرين أحبت . . . » .

حسب كل النفوس سلعة يشتريها الجاه . حسب كل القلوب بضاعة مزجاة في سوق الحياة . حسب هذا التيجي مستجيبا لنفثه وتأليه ثأرا لدم طلحة ابن أسرته الذى أراقه على على ترى البصرة . . .

ثم يتربص . إنه ليرمق بطرف حي — ما هو بحي — آثار تحريضه وعهده على محيا الرسول . يخالسه النظرة ، وينتظر الثغرة ، ويتبين الثغرة أقد أغارت عميقة في ضميره فهان أم هو جل عن الهوان . . .

ورنا نحوه زياد بطرف ثابت ، جمدت أجفانه ، وقر إنسانه ، وبرق وميضه كوهج النار . . . هذه عين لا يعميها نشب . بصيرة لا يطمسها ذهب . هذا ذهن لا تقتله الحيلة إن بالعطية الشهية وإن بحمى الحمية وإثارة الغضب للدم . هذا رجل يسير في النور . .

وفي هدوء وسكينة تنفرج شفتا زياد عن كليات ، قاطعة كالسيف ، لاسعة كالجذوة ، فيها عزة وكبرياء :

« يا معاوية . . . إني لعلى بينة من ربى ، وبما أنعم على ، فلن أكون ظهيرا للمجرمين . . . » .

٩

تلا الإمام :

« إن ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » .
فلقد جف الصبر . ذبل الرجاء والأمل . ذهبت الأيام والليالي السوائف جفاء لا غناء فيه ، ولا جنى أطلعته مع جهد الغرس ، ونصب السقيا ، وحرص الرعاية . فمن يطلب النبع في سراب ؟ ومن ينشد الثمر في صخر ؟ — الأنفس الموات لا تنضح بخير . . .

ولم يندم على الزمان الذي تسرب من بين يديه تسرب القطرة في الرمل
بقدر ما أسي للمصير القدر ، والحنة المقبلة ، والدم المضيع بثري صفين بهم أن
يسطر بسن الموت على أمته الشكل والوهن والخراب . . . فهو أسيف . وهو
واله محزون . وهو جو براه شجته ، يكاد دمه ييل صدره لولا أن بكى القلب
ففاض النبع في مآقي العيون . . . فما هذه إلا معركة — هذا الجهاد السلي
الذي شمر له قرابة العام ، ولهج به ، ودعا إليه ليعلى كلمة الإسلام ، وهو الوقعة
الكبرى التي ود بروحه ولبه وعصبه لو حاز النصر من غمارها ونال لقومه
الأمّن والإخاء والعزة . . . لكن حملة السلام التي أعدها . ثم قادها ، أقيمت
المهزبة . . . كسرهما الجشع والهوى والأحقاد . وعندما يظهر ذات يوم عدوه ،
ويطأ الأمة المنكوبة بقدميه ، وينشر فوق ربوعها الحزينة حكمه كالظلال السوداء
التي تبسطها الظلمة ، فلن يكون نصر ذلك الغريم صدى لخطره وقدره ، ولا نتيجة
لجلده وصبره ، ولا وليد نصيره ونفوره ، بل النهاية الطبيعية لهذه الدبرة التي أصابت
عليا وهو يكافح كفاحه المرير في وقعة السلام . . .

فلولا أن قد علم المبغضون للإمام نيته ، وسبروا غوره وسره ونجواه ، لجنى
الناس على الحقيقة فظلموه . . . وكم ظلمه إلى الساعة أناس ، وقد ألزموه هذه
النتيجة التي أنجلت عنها في البدء صفين ، ثم من بعد الخدعة الضالة المضلة التي
انفجرت عنها مهزلة التحكيم . . . تترفق طائفة فتراه غفل . وتغلو طائفة فتراه
ضل . ثم يوشك الذين يقيسون الأمور بالخواتيم ، ويحكمون على الخطوة بعقبها
دون تدبر الظروف الطارئة والعوامل الدخيلة التي تنكث الخيوط وتمحو الخطوط ،
أن يصروا ابن أبي طالب قد مد يده عن غير تبصر فصاغ بنفسه المصير المؤسف
الذي آل إليه عهده المقلقل القصير . . .

هذه المصابرة التي طاول بها على خصمه الشهور الطويلة كانت الحجة القائمة
عليه من كل ناقد ألصق به مغبة انتكاث الأمور وألزمه بوار نضاله وسعيه :
« فلو أنه عاجل غريمه ! » « فلو اقتحم على معاوية الشام غداة
ظفروه العزيز في البصرة » « فلو حرمه وجنده شربة الماء ثم أباحهم
الظماً والسيف عقيب وقعة الفرات ! » ولكنها ومثلها فروض

معتسفة ، تهاوت جميعا تحت طرقات الواقع الذى هدمها بعموله ، وأقام الإمام على انتفاضها وخرائها ، رافع الرأس ، متبجج الجانب عندما انتزع النصر من برأس عصابة عاتية ، مثل ضعفين من جنوده . جمعها الجشع فأدلت ، ثم أكلها الفزع فتولت تنشد السلامة فى الحرب يجلدها من ميدان صفين . . .

كلا ، لم تضاره المصابرة ، لم تنل من عزمه ، ولم تفل حده المشحوذ للقتال . لم تعد خصمه المتربص بأى عامل من عوامل الفوز والتفوق . ما من علة أزجها ناقد . وما من فرض ساقه عاذل ، كانت له أصبع فى النتيجة الحربية التى انجباب عنها غبار المعركة . بل هى كلها ، فيما أحسب ، ذرائع مصنوعة أريد بها بعد الواقعة النيل من تبصر على ، ومن قدره السياسى إن لم تكن ستاراً حاجزاً يخفى خلفه هذه الحياة التى قارفها دعاة التحكيم فإنما ضاره رفاقه . حفة منهم لها حول ، وفيها تزغ ، ومن مواضعها القديمة انبثقت الإحن والشكوك والغيرة ، ونظائرها من النوازع النفسية ، انبثاق القيق من القروح . وما كان للامامة فى جيشه عند ذلك إلا أن يتابعوا خاصتهم وقد رأوهم اللحظة — والأسنة حواصد — يدعونهم إلى كتاب الله كما طالما ردد الإمام . . .

فكأنى بهلى قد شفت له الأنفس المغشوشة عن دخالها ، فسبق بذهنه ضعفها وتردها ، حينما حث قومه على الصدق عند اللقاء ، والجد فى المناجزة ، والتشبث بحقهم أن ينقرط منهم عقده إذا مسهم ضرر . أو جنحت طائفة من النفوس المستريية لحور . . . يحضهم وقد مارى معاوية ورجاله ، وحادوا حيادا عن دعاء السلام :

« لا يكون هؤلاء بأولى فى الجد فى ضلالتهم منكم فى حقكم وطاعة إمامكم »
ثم يتلو عليهم :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، إن الله مع الصابرين . »
فإن يكونوا تنازعوا من بعد وهان أمرهم عليهم ، حتى غدوا وقد أضلهم عنادهم ، لا يعرفون الحق كعرفتهم الباطل ، ولا يیطلون الباطل كباطلهم الحق .
وحق بلغ من جحودهم ومن كنودهم أن بات على وهو الغرض الذى أوشكوا أن

يرموه بالنواصل ، ويطأوه بالناسم . . . وحق ذلوا كذلة الساعة فود لو صارفه
بهم معاوية واحدا من رجاله بكل عشرة منهم — إن يكونوا قد لجوا في العمى
والجهالة ، وأخذتهم الغفلة — وهم الأعلون — فمسم الوهن ، وحصبتهم
الفرقة ، وتداعى اجتماعهم تداعى الرداء الخلق مزقته الحروق ، فما انفراجهم
حينذاك عنه إلى رجوع نزعات أنفس مريضة مال بها عن الجادة خيال ذهن ،
أو ضيق عطن ، أو غرور حق ، صورت لهم جهلهم معرفة ، وغفلتهم حكمة ،
وعماهم بصيرة . . .

وندع الذى يكنه الزمن فى ضميره إلى ساعاته . . . فالحوادث وشيكة أن تسير
فى طريقها المقدور . والحن تهم أن تتلاحق بأخذ بعضها بذيل بعض كإبل
القافلة . . . فإن هى إلا أيام ثم يسفر الصبح الذى ننتظر إقباله — وما ارتجينا —
كثيب الطلعة ، على غبرة أعلته فى الأعصر . . .

* * *

ومضى المحرم . .

مضى بالأمل والرجاء وحلم هانىء رلود الخواطر وخالج القلوب ببشره حتى
أوشك السلام أن يكون بعض خفقها الرتيب . . .
وحل صفر . . .

لمع هلاله فى سمائه ، والنفوس مشحونة بآسها وهمها وشكها بلى ليليه ، حتى
رأته كالجدوة الكفيلة بإرسال شررها على الأنام ، وملء الدنيا بسحب الدخان
ولظى الحريق . . .

النهار ينسلخ من نورهِ . الشمس تنحدر نحو العتمة بقايا الضياء القرمزى
الذى يسكبه الشفق يغمر جانب الأفق بألسن حمراء متقدة تشيع فى القوم العرق
والفتور . . . فالصيف فى أوجه ، وحره يلفح الحضرة فتذبل ، ويلس القطرة
فتجف ، ويلوح البدن بمثل سمرة السنابل . . . حتى فى هذه اللحظة التى سرحت
خلالها ظلال الغروب ، واف ثوبها الأغبر الساحة ، وخطر الجند فى غواشيها
كالأشباح لا تتبين الأعين منها خطوط اللامع ، كان الهواء أنفاس تسمى
محزونة . . .

ومن بين أطياف العتمة الوليدة . انطلق مرثد بن الحارث الجشمي ، تراحت على رداءه الناصع غبرة العسق ، وحمرة الشفق ، وتقع الرمال الذي نثرته نسمة الليل ، يوسع الخطا وهو ساكن الجأش جامد القسبات ، كأنما يسرهمه عن عياه . . . فلما غدا على مسمع من معسكر عدوه ، تحدث شجوه على ملاعقه ، وعلا صوته يعلأ الفضاء والسماء :

« يا أهل الشام ! . »

وكان الصدى يردد وراءه :

« يا أهل الشام ! . . »

إن أمير المؤمنين يقول لكم : إني قد استدمتكم ، واستأنيت بكم ، لتراجعوا الحق وتنبؤوا إليه . واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ، فلم تتناهاوا عن طغيان ، ولم تهبوا إلى حق . . . والله ما كففتنا عنكم شكافى أمركم ! ولا بقياً عليكم . . . وإنا كففتنا عنكم لخروج المهرم — ثم انسلخ . . .

يا أهل الشام ! . .

« إني قد نبذت إليكم على سواء . . . إن الله لا يحب الخائنين . »

وترك فيهم نذيراً راعدا رددته الفلاة ، هز القفر ، وحرك الماء ، ورج دويه السمع والفؤاد . مضى جمعهم يقلبه بين جد وحيرة ، وبين وجل وأمل ، وبين ندم على الوعد الداهب ، ورهبة للوعيد القريب . . .

وعند ما آب مرثد إلى معسكره ، كان الإمام قد قام في رجاله يدور عليهم بمنازلهم : يحثهم ، ويهيئ صفوفهم ، ويمقد الألوية والرايات . . . الليلة بطولها لم يزرهم النوم . إنا أعزوا لأمره وهو ينطلق بينهم كالنسمة السارية ، من جانب إلى جانب ، ومن قوم لآخر ، لا تكل حركته . . . حتى إذا بدا لهم خيط القجر في ناحية المشرق ، كانوا كتائب مرصوفة ، تخفق أعلامهم ، ويلتمع سلاحهم في ضياء النهار . . .

ووقف بينهم يبصرهم . . . ما من مرة مثلها تواقفوا والسيوف شرع ، والحتوف دائية ، وإلا أخذهم فيها بمنأجه ، وحشم أن يستمسكوا بسنة الفروسية ، وشريمة النبل والمروءة :

« لا تقتلوا القوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى لكم عليهم . . . »

فإذا قاتلتموهم فهزمتهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تسكشفوا عورة ، ولا تعثوا بقتيل . . .

فإذا وصلتكم إلى رحل القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دار إلا بإذنى ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضماف القوى والأنفس والعقول » .

غير أن القتال لم تتأجج ناره وتعلو هجيره عقب هذا النذير . انتهى حقاً ترفق الناس بالناس ، وسياسة المواجهة واللين ، والاعتذار بالرجاء والألفة . ولكن صفر شهدهم مرة أخرى ، كما شهدهم قبله ذو الحجة ، يقدمون الحذر ، ويؤخرون الشدة ، ويجعلون على نفوسهم رقيباً أن تغلو في خصومتها غلوا ينبغي الفناء ويبحث منهم الأصول والجذور . إنما حركوا الألسنة في أكفهم بمقدار ، يجترئون بهذه الفرقة لهذه الفرقة ، وبذلك اللواء لذلك اللواء . لم يصطرعوا كافة ، لم يحركوا الرحى الحاصدة كوحى هواها لتطحن الثمر والزهر والبراعم . . . عشرة أيام تقضت عليهم وهم بهذه الحال . من ثانى أشهر العام السابع والثلاثين للهجرة ، من صبح غرته ، فى ذات الأربعاء . . . وكان العراق فى الحلية نصف الشام . هان دونها عدة ، وإن لم يكن عليها قدرة وشدة . وكان أجناده قد استووا على القدم والأهبة . صفوفاً متراسة : أحد عشر ، تقابل مثيلاتها من كتائب العدو ، ويواجه الصف منها قرينا يضم من أهل بطنه أو قبيله أو عشيرته من دفعته الخصومة إلى اللياذ بمعاوية . فإذا تنادوا بينهم بالنجاز ، انبرى الصف للصف ، فالتقى الأهل . يحارب الولد أباه ، والأب ابنه ، والأخ أخاه . . . الجياد تجارل . والفوارس تصاول . ولرجال تنازل ما وسعهم صبر اليوم ، ثم لا يكاد يحمزم البأس وتحفزهم الوقعة حتى يتراجع الجمعان : كل فرقة إلى صفوفها ولما يقاربوا النصر أو تقارعهم الهزيمة . . .

فكأن النفوس كانت ما تزال تخزن — حثف لديها — بقية من حرص على الدم ، وطمع فى السلم ، فى كلا العسكرين كانت الرغبة فى تلمس الأمن والأمان

كالجذوة الحراء تحت الرماد . . . حق الأشر عندما قاد أولى الكتاب .
في أول وقعة ، في أول يوم لم يغض بمنقه إلى مداه أو إلى عتمة الليل . . .
وحق هاشم بن عتبة بن أبي وقاص . . . وحق ابن عباس أيضا طاول جهده
إلى الظهيرة . . .

ولم يكن هذا منهم شكا في هدف . ولا قعودا عن غاية . ولكنها كانت
حينذاك طبيعة القتال الذي يسكه الحرص على الدم ، وتغمة الخشية من الهلكة
أن تجمع أداته إلى صراع موصول يأكل الناس بغير رخصة أو تحرز . وهي
كذلك حال المارك في ذلك الزمن ، تسير بمقدار ، هيئة رخوة ، أولها شرار ،
وآخرها دمار ونار . . . ومع هذا فلم تكن كلها مناوشات تجتلد فيها السيوف
ساعة ثم تسكن . بل قد غلبت على بعضها سمات الوقائع الجادة التي يبدوها اللقاء
والكر وتحتمها الهزيمة والنصر . . . وها هو عمار . حينما تثنى نوبته ، يندفع
إلى الغمرة وهو على بيته ، ويخوضها على متن عزمه ، فلا يكاد حسامه يشرع
في عينه ، وصفوفه تستوى أمامه ، ورجاله وفرسانه ينصتون له ، حق يراها
حرجة للجهاد ، ليست غارة موقونة المصاولة والجلاد . . .

ويهتف الرجل بجمعه ، وإن شوقه إلى السكفاح ليتأق على ملامح وجهه
الهضيم المعروق :

« يا أهل الإسلام . . . أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله ؟ —
ألا إنه معاوية ! . . . فالعنوه لعنة الله . وقاتلوه فإنه بمن يظني نوز الله . ويظهر
أعداء الله ! . . . »

وعندئذ يهمس له امرؤ من رجاله :

« يا أبا اليقظان . . . ألم يقل رسول الله : قاتلوا الناس حتى يسلّموا فإذا
أسلموا عصموا مني دماءهم وأموالهم . . . »

فيجيبه حازم الرأي قاطع النبرة بغير إهمال :

« بلى ! . . . والله ما أسلموا ، ولكن استسلموا ، وأسروا الكفر حتى
وجدوا عليه أعوانا . . . »

ثم يشد بفريقه شدة الواثق المظمن على صف عمرو بن العاص . لا رخصة
ترده ولا رهبة تننيه . كطفرة النمر ينطلق . كثورة السيل . كهبة العاصفة . . .
فلا يزال يخوض المنايا إلى عدوه — والمنايا حيرة . . . — حق يحصد ، فيقتل
ويشخن وتتداعى أمامه المقاتلة كالبناء المنهار ، تنفرج عن صاحبها ، وتكشف عنه
كشف الرداء الخلق عن عورة . . .

ويتلف عمرو . . . الصبر مزق ونثار . المنعة نسيج عنكبوت . المنافذ إلى
الحياة مسدودة . . . وفي غيروني أو تردد يستجمع الثعلب المغلوب بقايا أجله ،
ويصوغ من فزعه جناحين ، ثم يروغ — فالفرار أمن ، والهرب سلامة . . .

١٠

ليست هجمة ابن ياسر وقعة فصل كتبت الخاتمة أو حسمت النزاع . كانت
غارة بدأها كمر ، وختمها نصر ، وتلتها بعد ذلك معارك جادة ، إن لم تكن قضت
في الأيام القلائل الباقية على خصمه القضاء الأخير ، فقد صاغت الحروف التي تؤلف
الهزيمة . . . كانت ضربة عنيفة سدتها إلى العدو دعوة حارة إلى الله ، وغضبة
دوت لدينه ، وتهمة ألصقت الكفر والضلالة — دون ريث ولا تخرج —
بصاحب الشام . . .

كانت حملة صدق وصبر ، لم يقف بها عن بلوغ غايتها نصب المقاتلة ، أو حذر
المصرع . أو انحراف النهار . وكانت أيضا معركة دعوة ، سل فيها عمار سلاح
العقيدة يلوح به ، ويهزه مشعوذا قاطما في وجه غريمه ، كهزه القناة والرمح
فما معاوية بخصم سياسي حين يرد الخلاف إلى المبادئ لا إلى الأهداف . ما هو
بمسلم وإن استسلم . ما هو أليف إيمان . إنما قهره على الهدى — بل الطاعة —
خوف الختف وشفرة السيف ، والجزيرة حينذاك تجشو على ركبتها طوعا وكرها
أمام شوكة محمد ، وتخضع الجباه لله . . . وما حزيه الدين يظاهرونه اليوم
إلا على نهجه ، لنهم بنزغهم ، وطوامم كطيك السجل للكتاب في غلاف زيفه
وزيفه . إن أصلتهم الغفلة فمعدرة لا تسعها مغفرة ، وإن فتنهم الدنيا عن الآخرة
(١٤ — الإمام)

فمنعة إلى حين ، ظلها زائل ، وعهدا حائل ، ومجدها خيال . . . والنفوس التي عنت له ، لم تغض منها كلها ينابيع الخير . فيها بقية ترعى الله . فيها قلوب تقشمت أكنثها ، كما انجباب الغيم — من هبة الريح — عن صفاء السماء . فيها أعين كشف الحق عنها غشاوتها فأبصرت النور . . . وعندما تسلك شمر بن أبرهة من معسكر معاوية ، في طائفة من قراء أهل الشام ، فلمحقوا به على ، كان ندمهم نذيرا زلزل على العاهل العاصي غروره ، وأوشك أن يذيقه التخاذل . . وقال له عمرو :

« يا معاوية . . . إنك تريد أن تقاتل بأهل الشام رجلا له من محمد قرابة قريبة ، ورحم ماسة ، وقدم في الإسلام لا يمتد أحد بمثله . . . إنه قد سار إليك بأصحاب محمد العدودين ، وفرسانهم وقرائهم وأشرفهم ، ولهم في النفوس مهابة . قبادر بأهل الشام مخاضن الوعر ، ومضايق الغيظ . واحملهم على الجهد ، وأتهم من باب الطمع . . ومهما نسيت فلا تنس أنك على باطل ! . . »

لكن معاوية كان أقدر من خديعة على معالجة الموقف ، ومما جلته بما يصلحه . فليس الجاه هو الذي يرد وحده إليه النفوس الشوارد ، والقلوب التي غدت تتذاب اليوم بين دعوة باطل ، وإن تكن مجزية فهي مخزية ، وبين دعوة حق تطيب لها الضمائر النقية ، وإن تأجل لها عن الحياة الجزاء . . ليست الدنيا هي التي تفان المتشبهت بآخرته . . ليست المنافع سبيل أصحاب الأنفس التي عليها من خشية ربهم حارس ومن إيمانها الخالص رقيب . إنما الدين وحده السبيل . التلويح به طلاؤه يعمو ويستر الأباطيل . .

وكذلك وقف معاوية في أجناده ، على لسانه منطلق التقي الخاشع ، وفي دخيلته نزغة المضل المخادع ، يقول بفيه ما ليس بقلبه :

« أيها الناس . . أعيرونا أنفسكم وجماجمكم . . لا تفشلوا ولا تتخاذلوا ، فإن اليوم يوم خطر ، ويوم حقيقة وحفاظ . . إنكم على حق ، وبأيديكم حجة . إنما تقاتلون من نكث البيعة ، وصفك الدم الحرام ، فليس له في السماء عازر . . »

حق ابن العاص قد ذهب أيضا يحاول امتشاق نفس السلاح الذي سله عليهم عمار . إنه خشي فتنة قومه ، ورجا فتنة عدوه ، فترادى للناس بين الجمعين وقد

رفع رقعة سوداء في رأس رمح كانت لواء عقده له ذات يوم رسول الله . فلما امتدت إليها الأعين . ولغظت بأمرها الألسن ، وحسبت فتنة أنها علامة أدنت الرجل إلى الهدى . وبعدت به عن الريب فيه ، بادرهم الإمام يحذرهم الفتنة :
« هل تدرون ما أمر هذا اللواء ؟ . . »
قلوا له :

« هذا لواء عقده له رسول الله . . »

فأجابهم على :

« إن عدو الله عمرو بن العاص أخرج له رسول الله هذه الشقة فقال :
(من يأخذها بما فيها ؟ ...) فقال عمرو : (وما فيها يا رسول الله ؟) . . .
قال : (فيها ألا تقاتل بها مسلما ، ولا تقربها من كافر) . . . فأخذها . فقد والله
قربها من المشركين . وقاتل بها المسلمين . . . »

ثم رفع وجهه إلى السماء ، وأصبعه توى إلى قبة العاهل المتمرد المشاق ،
وجأر بقسمه ودعواه :

« ... والذي فلق الحبة . وبرأ النسمة ما أسلموا ولكن استسلموا ،
وأسروا الكفر ، فلما وجدوا أعوانا رجعوا إلى عداوتهم منا — إلا أنهم لم
يدعوا الصلاة ! . »

واهتزت أنفس وترنحت خواطر ... الرأي ينقلب لنقيضه . الثقة تنزلزل
وتنهار . الشكوك التي راودت في معسكر الشام فتنة ممن لم يبيعوا بمدقلوبهم
للشيطان ، غدت يقينا باسق الفروع ، ثابت الأصل بجذور الدوحة . . . وكان عمار
هو الذي حرك البركة الراكدة ، ورج ماءها الآسن الثقيل . وكان عزمه وصدقه
وإصراره على الثبات في الميدان حتى ينتزع النصر من عدوه ويثيبه عليه الهزيمة ،
هي النواة التي أطلعت في نفوس أقرانه من رجال الإمام زهرة الصبر ! ... فلما
مسح عن جبينه عرق الحرب ورهق النصب عندما غرب يومه ، حتى نشط
أصحابه مثله إلى مواطن اللقاء يطلبون التزال ، ويتعجلون الآجال ، وينشد
الرجل منهم الغلبة أو الشهادة ...

وحيت الوقدة . كل واحد من رفاق الإمام وخلصائه كان له فيها دور ،
وله حملة ، وله جولة أدته ساعة من الظفر وساعة من الموت ... حتى ابن عباس

قد خرج إلى القتال مخرجه .. وحى ابن على : محمد بن الحنفية . فلقد غدا القتال دولة بينهم يتركه كابر ليلقغه كابر ، كأنما القوم يحرسون على اقتسام شرفه بقسطنطين ! ... بل الإمام أيضاً أوشك أن تدفعه النجدة إلى الغمار ، يقتحم عليه حرمة ولما يلتق الجيشان في وقعة جامعة . فما هو أن قام عبيد الله بن عمر يتحدى محمدا ويدعوه : « أن اخرج إلى ! » حتى أخذه شفقه القديم بالمناجزة ، فنخس دابته إلى الدل المغتزون :

« أنا أبارزك فهل إلى ! ... »

فبغت الدعوة عبيد الله ، وبددت شجاعته ، وغاض على الأثر ماء اعتداده وزهوه . فإذا عياه يصعب . وإذا فرسه تستدير لتدبر . وإذا رمح في يمينه يسترخى كالسوط ! ...

وهمس الفتي وهو ينأى بعمره :

« ليس لي في مبارزتك حاجة .. »

وعتب محمد على أبيه :

« منعتني من مبارزته ! ... فوالله لو تركتني لرجوت أن أقتله . . . »

فابتسم على بسمة نضحت بحنانه وقال له :

« لو بارزته أنا لقتلته . ولو بارزته أنت لرجوت أن تقتله ، وما كنت

آمن أن يقتلك ... »

لكن الحسرة لإفلات الفريسة الفارة دعت محمدا أن يراجعه :

« أتبرز بنفسك إلى هذا الفاسق اللئيم عدو الله ! ... والله لو أبوه يسألك

المبارزة لرغبت بك عنه ! ... »

وعندئذ زجره الإمام ونهاه :

« يا بني لا تذكر أباء ولا تقل فيه إلا خيراً ! ... برحم الله أباه ... »

* * *

غير أنها — فترت أو استعرت — كانت كلها مناوشات لم تل بأى الفريقين عن مواقفه ، ولم تنل منه إلى الغاية التي تكتب عليه الخذلان ... كانت تجربة ! ... حكما يشهد المهمة ! ... فارا تصقل الصبر والعزم ! ... وحين لاحت الثمرة المريرة

جنية ، لم يكن هناك معدى عن اقتطائها ، ولوك لها وقشرتها ثم انتطار كلمة
القدر ا ...

وغدا الناس — ذلك اليوم الذى استنهض فيه معاوية أوليائه باسم الدين —
والإمام بين أصحابه ، قد غلبت على عياله عبسته ، وتحدث الجد فى جبينه
وعينه ... فأصفوا له :

« حتى متى لا نناهض القوم بأجمعنا ؟ ... »
ولم تبارحهم الشمس ، أصيل يومهم وفى أدنى غروبه ، حتى راوه متوكثراً
على قومه ، محيطة به الصفوة الباقية من أصحاب الرسول ، وهو يخاطب جموع
المقاتلة والفرسان من جنوده :

« أيها الناس ... »

اسمعوا مقالتي ، وعوا كلامي ا

إن الخيلاء من التجبر . وإن النخوة من التكبر . وإن الشيطان عدو حاضر
يعدكم الباطل ... شرايع الدين واحدة . وسبله قاصدة . من أخذ بها لحق ،
ومن تركها مرق ، ومن فارقها محق ...

ليس المسلم بالخائن إذا أوّمن ، ولا بالخلف إذا وعد ، ولا بالكذاب إذا
نطق . ونحن أهل بيت الرحمة ، وقولنا الصدق ، وفعلنا الفضل . منا خاتم
النبين ، وفينا قادة الإسلام ...

ألا وإن من أعجب العجائب أن معاوية بن أبي سفيان الأموى وعمرو
ابن العاص السهمى أصبحا يحرضان الناس على طاب الدين بزعمهما . . . وقد
علمت أنى لم أخالف رسول الله قط ، ولم أعصه فى أمر قط . أقيه بنفسى
فى المواطن التى ينكص فيها الأبطال ، وترعد فيها الفرائض : نجدة أكرم فى الله
بها ، فله الحمد ...

أيها الناس ..

وايم الله ما اختلفت أمة قط بعد نبيها إلا ظهر أهل باطلها على أهل حقها
إلا ما شاء الله . . .
فرجف عمار ...

لقد كان الشيخ الجليل ذا بصيرة نفاذة تستطيع أن تبلغ من اللفظ مدلوله
الحق الذي يتسلل إلى اللب ولا يطرق السامع . فلما انتهى الإمام من قوله ، زلزه
ختامه وأحزنه ، وخذ في وجهه الهزيل خطوطا أعمق مما حفرت أصابع
التسمين

وهمس الرجل للذين حوله وهو مهموم :
« أما أمير المؤمنين فقد أعلمكم أن الأمة إن تستقيم عليه أولا ، ولن تستقيم
عليه آخرا . . . »
وسجل القدر

١١

في معسكر معاوية ، ساد الهرج ، وشاع الحمس ، واضطربت النفوس
والأنفاس حين حملت إليه نسمة الصبح نذير الحرب ينادى به عليهم منادى الإمام :
« يا أهل الشام . . . اغدوا على مصافكم . . . »
ومضت الصيحة . وكان صباح كالليل

كان اليوم غرة الأربعاء . . . الشمس تدرج في مهدها البعيد عند حد
المشرق . خطاها وسنانة . نهارها يحبو على خيوط الأعمدة . سناها تصبغ الكون
أطيافه . . . وكان دفتها رطيبا كريحا الشمال . رفيقا كقطرة الطل . رقيقا
كأوراق الزهرة ليس فيه من وقدة حامية تلجئ بهذه الشعلة التي مستعجاجة
للموقع عندما ينتهي البكور . . . وكان أفقها من عسجد ولازورد ولجين ، نقي
الصفحة كقلب الوليد . لم تشبه الحمرة القانية التي لن يلبث أن يعكسها على صفائه
مكان الحومة حينما يله الدم . . . السلام على الأرض ، والهلاك في الخاطر . وهذه
الهدأة التي لفت الميدان ساعة البكرة بستر السكينة ، كانت غشاء خادعا ، كسطح
للألم في المحيط ، يخفي تحته اضطراع الحياة والموت ، العسف والقوة ، جواهر
الحقيقة وأصداف الزيف . . . فإمن سنة الطبيعة أن يتوافق ضدان ، ويأتلف
تقيضان . . .

ظهرت المنايا وبرزت الأحياء . . . الآن توشك الرحى أن تدور . الوغى الحاصدة تتربص وتشعد الظفر والناب . الأرواح توافقت على مخارج الجروح . والمفاتيح : رؤوس الأسنة ومشافر السيوف ، في يد القدر ، تم أعدها فتفتح بها محابس الدم ، ثم تدعه والانطلاق

عشية أمس خطب على رجاله :

« الحمد لله الذى لا يرم ما نقض . ولا ينقض ما أبرم . . لو شاء ما اختلف اثنان من هذه الأمة ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر فى شيء من أمره ، ولا جحد الفضول ذا الفضل فضله . . ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة عنده دار الجزاء والقرار ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . . . »

ثم مزق رقعة البقيا وأعلن الجد فى الشدة :

« . . . ألا إنكم لاقوا العدو غدا . . . اسألوا الله الصبر والنصر ، وألقوهم بالجد والحزم ، وكونوا صادقين . . . »

ومضى يهيمهم . طوال ساعات تلك الليلة الفاصلة راح يعدهم للصراع الخطير الذى سيسفر النهار عنه ، فيكتبهم ، ويسوى صفوفهم ، ويقدم دارعهم على حاسرهم ، ويعدهم للقاء ربهم بالشهادة فيحصن نفوسهم بذكره ، ويطيل وإياهم القيام ، ويتلو القرآن . . .

وعندما برح الليل . وانتشع سواده انتشاع الغمامة ، وأقبلت من المشرق طليعة النور ، دعا عدوه للنزال ، فليس يرضى أن يأتهم من غرة ، وما من طليعة مباغثة غافل . . .

وعندما صاح داعيه ، ودوى فى الهدأة نذيره ، أصبح معاوية وجنوده على بيئته . . .

ومع ذلك فقد شاع فيها المهرج ، وسرى الهمس ، واضطراب نفس وأشفت نفس . . . الأفتدة فى صدورهم توائمت . والقلوب فى مقارها ارتجت . لا بقيا بعد ، لا هوادة اليوم فقد مضت فترة النجاة الرخى القى حسبوها موصولة على

النهر والليالى ، ومطوها جهدهم ليسأم على مقامه ، ويثلم سيفه ، وتفتر عزائم
رفاقه عن القتال ...

* * *

وهتف صاحب الشام فى عجلة ، ولما تنفض النوم أهدا به :

« أين الجند المقدم ؟ ... »

فخرج له أبو الأعور السلى على كتيبة

ثم هتف ثانية ، وقد ثبت قليلا لحظ عينيه :

« أين أهل الأردن ؟ . »

فجاءوا يسمعون . . .

ثم هتف ثالثة ، وقلبه ركين كالصخرة :

« ... وجند الأمير ؟ . . »

وما فتئ يهتف والكتائب تأتيه ، كتيبة كتيبة ، وفرقة فرقة ، فى سلاحها
وأدراعها ، وعلى ألويتها وراياتها : جموعا غفيرة تشد عزمه وحمته يفوق نصفها
كل أعدائه ...

وحينما غدوا على أهبة ، وجال بين الصفوف ينظر ، ويمجم القدر ويسبر
الغور ، لم تهزه فيهم بادرة من بواذر الحور والتخاذل . . . فقد ذهب عنهم
الروع ، وانجباب الهرج الذى أشاعته بغتة الدعوة . الثقة فى القلوب ، والعزيمة
على الملامح . فما بهم هيب . ولا هم بأحلاف جبن ، وإن شططت بهم منازع
الهوى وحملتهم بعيدا عن الجادة . وعندما بان الجد ، انبرت فرقة إلى معاوية
فبايعته على الموت ، وأخذت نفسها بالدود عنه ، أو تتخطف رؤوسها المصارع .
فإذا بهم يطيفون به ، ويبنون حوله سياجا ساترا : خمسة صفوف كأنها قلعة
حصينة ذات أسوار ، إن اثلمت فى سور ثغره . سارعت صدور من الذى يليه
تسدها بالقلوب والجحاجم ! . . فهو بها فى جنة غير مخروقة . عزيزة على الهجمة
والقارة . منيعة على الإقدام والجسارة ، لا تنفرج عنه إلا أن تشقها جميعا
المنية ... وعندما تواقف المقاتلة ، وتهياؤوا لخوض الحومة أقبلت « عك »
تهزها حميتها فتعاقد رجالها على الصبر كالأوتاد فوق أرض الموقع . وجاءوا بحجر
قوضوه بينهم ، ثم تهاثفوا بلسانهم الذى كان يبدل الكاف بالجيم :

« لا نفر حق يفر هذا الحكر . . . »

وقد صدقوا وعدهم وكانوا رجال صبر ، لهم في سجل البطولة أقدار مسطورة
وصحائف مسجورة ، يعصف الفناء بهم فلا يريعون ، ويعي فينثى ولا ينثون .
كأنما سمروا أقدامهم في مواطئها ، وحالفوا الموت والثبات . . .

على أن هذه العزائم الجبارة لم تسكن بالقي تلهي معاوية ورفيقه عن تلمس
الحرص والتشبث بأسباب الحذر والحيلة . فما إن تواقف الجمعان على أهبة تهفو
قلوبهم إلى التحايز قبل اشتباك الأسنة ، حتى تذاكر الرجلان الأمر ساعة أفضت
بهما إلى وجوب تنظيم الجيش على أسلوب مغاير ...

وقال العاهل لصاحبه :

« فما الرأي ؟ .. »

قال عمرو بن العاص :

« قد عرفت ما بيننا من العهد والعقد ، فاعصب هذا الأمر برأسي »

« إني أفعل »

« وأرسل إلى أبي الأعور فتحه عنى ودعنى والقوم ... »

فسرح معاوية صاحب مقدمته عن موقع ابن العاص إلى غير بعيد ، على تل :
« يا سفيان . إن لأبي عبد الله رأيا وتجربة ليست لي ولا لك . وقد وليته أعنة
الحيل فسر ... ودعه والقوم ... »

وأقبل عمرو بعد ذلك على واجبه ، ينظم ويغير ويرتب صفوف المقاتلة من
فرسان ورجالة ، حسب رأي بنظرة القائد الذي صقلته تجربته ومرسته الحروب ...
وكان يعينه على أمره ابنه : عبد الله ومحمد . فالعدو للائل حيله عنيد ، على الذكر
في مجالى الطمان ، يرمى عن القدر والمنية . . . والجنود الذين يظلمهم لواؤه ،
أقدموا لأمر أقصاه شهادة وأدناه نصر . . . وعند ما تركوا خلفهم ديارهم التي
نأت عن الضواير الجرد والرواحل الشديدة ، كانوا قد ادرعوا بالإيمان ،
وتحصنوا بالخطوة ، وإن قل نفرهم وناصرهم . فليست تغنى في لقاءهم ساعة الحومة
حشود ككسف الليل لا ينتظمها نهج محكم يسدد خطوها في القتال ...

وقال عمرو لوالديه :

« إن هؤلاء قد جاءوا بخطة بلغت السماء .. قدما لي هذه الدرع ،
وأخرا عني هذه الحسرة ... »
فمضيا ينفذان ...

ثم راح يمشي بنفسه بين الزمر ، فغير وبدل ، وأفر وعدل ... فلما أحسن
الصف والتسوية ، وطاب خاطرا بما فعله ، أقام لنفسه منبرا بين جيشه في موقع
يشرف منه على المكان ، ويحرك وهو فيه أجناده إلى خطوطهم عندما يدوى
النفير . ويتسمر السعير ... وإنه ليأمر فتطيف به جحافل من اليمن ليكون في جنة
مانعة . ويكونوا حوله كأسوار القلعة ، لا يخلص من خلاصهم إليه حاسر أو دارع ،
ولا يستطيع امرؤ أن يروعه بشر :

« لا يقربن هذا المنبر أحد إلا قتلتموه كائناً من كان .. »

كذلك دبر ، وكذلك فعل . غير أنها حيلة لم تكن كلها لوجه التزال .
ولا بدافع من حرصه على التفوق واحتلاب راية النصر من ابن أبي طالب
الرابض لهم على قيد الخطوة كأنه الليث يترصده الفريسة .. فما هو بغافل عن
حقائق الحال : لغيره الظفر إن هو ظنر . ولغيره الثمرة إن هو غرس ، ثم سقى ،
ثم اقتطفها وهي جنية شهية من سياج الأشواك ... إنه عبد طبعه .. إنه عمرو .
وحين بنى فليس وفاؤه وليد شغفه بالخلال الكريئة ، ولا صدى لطبيعة نقية قوية
أو سجية سوية سليمة ... كلا ، لا يهزه النبيل ، ولا يهيم بالأريحية ، بل النفع
وحدة هدفه وممرماه . الوفاء عنده له شرطه ، وكل جهد على قدر ثمنه ، والحامد
كلها مطايا لغايته ، كأنها في جعبته سلعة يبيع منها بمقدار ..

هكذا بدا ذلك النهار ، وأمسه أيضا ، وبقية عمره على السواء . لم يتحيف
على طبعه ، ولم ينصرف عن طريقه المرسوم الذي شقته نفسه المنهومة أبدا بجاء
الحياة وزخرف السطوة ، فما همس برأى . ولا أدلى لصاحبه بعشورة ، ولا أشار
بكلمة تكشف فرجة يستطيع معاوية من خلالها أن يستقبل القتال وهو آمن
على مصيره إلا بعد أن أمن هو قبله على غايته التي رنت إليها أطباعه .. فلهذه
الغاية قد جاء . ومن أجلها خاصم الحق ، وعنا للباطل ، ومال راضيا عن الجادة
السواء ... من أجل النسب والنفع والمأرب ! إنه ليصغى إلى معاوية فيميل

نحوره بكل سمعه ، ويشهد قلقه حين يفتته دعوة الحرب فيقلق له ، وينظر معه إلى جيشه وفيه ما فيه من اضطراب الخطوط وخلل المنازل فيهم همه — ولكنه مع هذا كله يكتم الرأي عنه إلا بشمن ! ..

يشترط وقد استمانه معاوية :

« على أن لي حكى ! ... »

فيدهش العاهل :

« حكك ؟ ... »

« نعم — إن قتل الله ابن أبي طالب ، واستوسقت لك الأمور ... »

« أليس حكك في مصر ؟ . . »

وعندئذ تنفجر شفتا المساوم عن بسمة أينة صفراء ، فيها تعلق وجشع وسخرية :

« وهل مصر تكون عوضا عن الجنة ؟ ... وقتل ابن أبي طالب ثمنا

لعذاب النار ؟ ... »

فلا يراجعه صاحب الشام ، إنما يحذره نقلة القالة إلى الآذان المتربصة للماخذ ،

ثم يمينه :

« رويدا لا يسمع الناس كلامك ! ... ولك حكك أبا عبد الله ... »

وما راه أسرف حين مفي ، ولا مولاه شط عندما تمفي ، فأعما هي حلبة

بمحلبة ، وعطية بجهد ، وصلة بدينار أو دنائير ! ... ومن يطلب الحسنة

يرتخص المهر ! ... »

أما على فقد صف على الأهبة رجاله ، كلهم راغب في القتال مشوق له ، يكاد

يسبق إليه أجله . فلما أن توطأت لهم مواقعهم ، وحشدت الكتائب ، وخفقت

البنود ، صر بهم يحرضهم :

« ... إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص .

فسدوا صفوفكم كالبيضان ... قدموا الدارع ، وأخروا الحاسر ... أميتوا

الأصوات فإنه أطرده للفشل . وانتووا في أطراف الرماح فإنه أمور للأسنة .

وراياتكم فلا تملوها ، ولا تزيوها ، ولا تجعلوها إلا في أيدي شجعانكم ، اللانعي

الدمار ، الصبر عند نزول الحقائق ، أهل الحفاظ ... »

لكن أرفع راية وأمنعها كانت في عين صاحب ميحنته : عبد الله بن بديل
ابن ورقاء . ولم تكن في يد راعدة هيابة . ولم تكن رقعة من قماش ...
وعند ما خطا القائد بين الصفوف في رجاله ، يخاطب منهم الروح والقلب
والبصيرة ، علقت الأعين بذلك العلم الذي نسجه الله ، وابن بديل قد رفعه إلى
مدى ذراعه ...

وسمعه يقول :

« أنتم والله على نور من ربكم ، وبرهان مبين ... قاتلوا الطغام الجفاسة ،
ولا تخشونهم . وكيف تخشونهم وفي أيديكم كتاب من ربكم طاهر مبرور ؟ »
وهز في عينه رايته : كتاب الله ، ثم زار ، ونظره يرمى إلى عدوه بنار :
« قوموا إلى عدو الله ! . أنخشونهم ؟ ... فالله أحق أن تخشوه إن كنتم
مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور
قوم مؤمنين »

١٢

غلبته الرحمة ! . . .

الجحافل التي استقبلت في الوغى جنوده لم تنل من عزمه . حشودها التي
غشت الأرض كالضباب ، وانتشرت عليها كأرجال الجراد ، وأخفت معالم البقعة
عن الأعين ، لم تمس قلبه برهة ... كانت الثقة موطنه ، والطمأنينة ملاذه ،
والإيمان بالنصر هو السلاح الذي تهزه يمينه . وعندما دفعه النهار على موجة ،
ورده الليل على موجة ، وراحت حركة القتال في مداها وجزرها ، تقبل به حيناً
وتدبر به حيناً على متون أمواج تليها أمواج ، لم يطف بباله أن يدرأ الهزيمة
الخوفة بالصلح إذ الهزيمة لم تدرله مطلقاً ببال ، ولكنه كان ينظر إلى حمية أعدائه ،
وإلى اندفاعهم في غمرة الموت اندفاعاً السهم عن قوسه . وإلى جموعهم الكثيفة
كسحب الشتاء ، فيحميه عن الرهبة إيمانه ، وعن الفرق يقينه ، ثم يغنيه عن
الكثرة المدلة بوفرتها روح له رقى أمامه ستر المجهول حتى ليراه ! . . إنما ذاق
من مرارة القلق والوجعة حيناً كسرت قلبه هذه الحرب التي أخذت تأكل وهي

منهومة كل مقدس من الصلوات يحمله البشر ، وتهدم كل آصرة ، وتستريح كل حرمة للنسب والقرابة . فلقد مضى اليوم كله ، وبقي من الليل أقله ، والناس كافة ، من فريقه ومن مناوئيه ، في حلبة كأنها غاب وكأنهم ذئاب ! .. حكمت بينهم شريعة القرون الأولى ، وطبيعة النسر والضيغم . يقتتلون كالوحش ، فينهب الرجل لحم ولده ، ويقطع الأخ جوارح أخيه ، وتسيل بينهم دماؤهم كالدماء ! .. وكان هو إيان الحومة يهتف برجاله كلما لاحت له من جانب العدو طائفة رفعت الأعلام وشدت القسي وهزت النبال وهي تبتدر للقتال :

« من هذه القبيلة ؟ .. »

فيقال :

« الأزد ... »

فيدعو إليه أزده ، وبأمرهم :

« أكفوني الأزد ؟ »

نم يسأل :

« من القبيلة ؟ ... »

فيخبره قومه :

« خشم ... »

فيقول لخشم التي معه :

« أكفونيهم ! »

فأكلت العرب نفسها ! .. جزت عنقها بيمنها وهي تنقاد للحمية ، ودعوة

الدم ، ذلك اليوم من صفر في صفين ، وقد حمزها الطعان ...

ولم يكن عليه في هذا حرج ، فليس في الحرب حريجة . ولم يعد به طوره

كقائد ، ككل قائد قدير راشد ، يستقبل الأ كفاء بالأ كفاء ، ويوفر الأهبة

للغلبة قبل أن يحين اللقاء ... فعن قوسه يرمى السهم . وآفة الشيء من جنسه .

وليس أعرف بهذه الفئة أو بتلك من بليها ، الذين جمعتها وإياهم وحدة الطبع ،

وحد الاحتمال ، واتفاق حيل القتال ...

غير أنه لم يصغ فيهم لدعوة الخصومة بكل الإصغاء . فالضغن داء داوى نفسه

من بلائه . والصبر اليوم على الأسته قناء ، والسلام بقاء . . فكأنه اطلع من

مكانه ذلك بصفيين على الدخائل المكنونة فأشفق أن تبذر محنة الحرب بكل قلب بذرة ، ثمرتها مرة ، سوف يجنيها على الزمان قومه فتطعمهم الصاب وتشريهم العذاب . . . إنه الغد ، أو بعضه ، أو سويغات قلائل من الذي يليه ، ثم يلتهب ثأر بكل صدر ، وينشق قبر بكل دار ، وتنمقد على الرءوس سحب الأحزان . . . وخاف على قومه الهلكة . وخاف القلة والذلة بعد الوفرة وعزة الجذاب . وخاف أيضا على هذه الصلوات ذات القداسة ، التي خاقتها الأصلاب . وربطتها الأنساب ، وجعلها الله كالحرمة أن تضطرب بها زلازل المواجد ، ثم تنهاوى على الثرى صريعة . . .

عندئذ غلبته الرحمة ! . . .

وكانت نتيجة القتال في أصحابه ، ذلك اليوم ، عدل عقباء في عدوه ، لم تمل كفة النصر بأولئك ، ولم تشل كفة الهزيمة بهؤلاء . ومع ذلك فقد أهاب بأعدائه الذين خضبهم العرق ، وملكهم الحمية ، وهاجمهم لون الدم يدعو فيهم ، ونفسه تسيل رقة ، بدعوة السلام :

« من يذهب بهذا المصحف إلى هؤلاء القوم ، فيدعوهم إلى ما فيه ؟ . . . »
فبهت الناس . وأرسلوا نحوه عيوننا محمقة جامدة الجفون والأهداب ، تفرسته مليا دون أن تطرف أو تريم كأنها خواء . . . سلبها قوله الحركة وصل منهم اللسان والبيان . ولولا مكانة له في نفوسهم عليه رفيعة ، تجل عن الريبة لأنكروه . . .

ولكنه على عهده . على سجية السخى الكريم ، وطبيعة السمع الذي يتقدر فيغفر ، ويعلمك فيصفيح ، ويدين فيصفيح . على شريعة القلب الذي فيضه حب ، وغيضه حب ، ووقمه صفاء ، ورجمه صفاء ، ووسمه يحتوى البعيد والقريب ، والبيض والحبيب سواء . . .

وأعاد الدعوة . . . أولئك الذين كانوا معه في أرض البصرة ، من بضعة أشهر ، شهدوا له موقفا كهذا قبل أن يحرق الجمل ويذريه في الريح . كرت الذكرى بهم إلى الموقع ، وإلى عدة وأجناد ، وصلف وعناد ، وجنوح إلى الهوى صرف عدوه هناك أن يصغوا إليه وهو يدعوهم إلى كلمة الله فأبى نفوسهم إلا النفي

حق تكفنوا بالعرء ا .. وإنه الآن لكأمنه ، طى نفس دأبه وخطته ، يشاء
أن على لخصمه الجديد ، ليقبس العظة من عقى المصيان ...
ونهض إليه من بين صحبه غلام ، غص العمر كالزهرة ، وقد هزه النداء
فاستجاب :

« أنا صاحبه ، يا أمير المؤمنين ... »

ولم يلبه من الجمع سواه .

فلعلمهم إذن قد خشوا غيرة العدو . أو لعلمهم قدروا تأييه وعناده . أو لعلمهم
أحيوا الأمس فى خواطرهم فآمنوا أنها قضية السلام الدييح ا .. فما ينفع رفيق ،
ولا تجدى هواة ، ولات حين اتفاق ...

ونقل بينهم عينه وبين الغلام ، فلم تتحرك لأحدهم جارحة ، ولم يهمس فم ،
ولم تنم عن حياتهم إلا الأنفاس ...

ثم ألحف الفقى الطرى العود ، الصليب العزيرة :

« أنا صاحبه .. »

« فدونك ا »

وخلاه وقصده إلى صفوف الأعداء ...

لم يعد الراحل . كصاحب له قبله فتك به جنود البهيمة الذين كانت تقودهم
عائشة ، ذهب هو الآخر إلى قدره ا .. كفه التى رفعت المصحف بترها البغاة .
ونفسه التى هفت للسلام لفظتها جراحه . وعوده الأخضر قصفه الموت
وما اكتمل ، وألقى به فى الرغام يجفة ا ..

وعندما أصبح الصباح ، وغابت عن المشرف الخطوط الدكناء ، وصحا
السكون الذى ضاق ذرعه بحقق البشر ، طريت صحيفة ونشرت صحيفة ، فغلا
الأمن ونام ، وطفرت الحرب إلى غايتها الجراء ، شمواء مستعرة . تظأ الرحمة
والرحم ، وتبذر الحزن والوجيمة ، وتحصد الحقد والتأرا .

ونحى الإمام عنه بغله الذى كان يمتطيه ، ثم صاح :

« اتئونى بفرس ا ... »

فسمعوا الجدم من صيحته ، وقرأوا العزم على عبياه ...
الآن اختفى فيه الأربحي المهاود . رقد أخو السلم الذى يضمن بالدماء أن
تهدر ، وبالحرمان أن تباح ، وبالحياة البشرية أن تتخطف مثلها ، وتهدم تراثها
زبانية الحديد والنار — رصب فى القاع ، وطفا على الأثر آخر ، مارد قوى
جبار ، يفرق الرفق من هيئته ، وتهرب الهوادة ، وتفر الأعمار ؛ ... الفارس
الذى يركب الردى إلى أهدافه ، ويقتم على الهول عرينه ، نفص عن نفسه نومه
وقام كباشق الجبل حينما يطالعه النور ، هز قوادمه ، وحرك خواقبه ، وتأهب
على القمة السامقة يذرع بعينه الأفق حتى تلوح الفريسة ! ..

وأبوء به أدهم كالليل ، له صلابة الرمح ، وخفة الفهد ، وسرعة العاصفة .
أقبل معهم يخب على خيلائه . شديدا يقاد بشطين ، متحفزا لا يطيق عرفه على
جيده ، قلق المنزل يبحث الأرض بقائمتيه كأما يضيق بالقرار ويتوق إلى طي
المراحل وإثارة الريح والغبار ! .. شئن الصدر فى غير ثقل ، ضامر البطن
فى غير هزال ، ضخ العضلة نحيل القوائم . إذا حمحم فجلجلة ، وإذا صهل
فزئير ! ..

وهدأت الدابة حينما لمسها بنانه ، فتلا :

« سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ... »

وما استوى على الظهر ، حتى استقبل القبلة ، ورفع يديه إلى السماء فى ضراعة
وابتهال ، وهو يناجى الله :

« اللهم إليك نقلت الأقدام ، وأأنضت القلوب ، ورفعت الأيدي . وشخصت
الأبصار ... نشكركم إليك غيبة نبينا ، وقلة عددنا ، وكثرة عدونا ، وتشنت
أهوائنا ، وشدة الزمان ... ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير
الفتاحين ... أعنا عليهم بفتح تعجله ، ونصر تعز به سلطان الحق ... »
ثم هتف برجاله :

« سيروا على بركة الله .. »

فإن هى إلى سويمة حتى انطلقت المنايا من العقال ! ..
كان النهار لم يعل للضحوة حين تحرك الإمام ، يتقدم الكتائب المشوقة إلى

اللقاء ، المفتونة بالشهادة ، العالية في إيمانها بنصر الله . يتبختر به فرسه الأدهم وهو يحث الرمل في تهاديه ، ويخط ذيله المترسل الطويل في نقاء ... وكان هو على الظهر كقطعة منه . لا يرتج إن عدا الجواد ، ولا يتمايل إن ثقى وحاد . وجهه الوضوء يكسف النور ، ويكاد يهر غداة الصباح . .. على جبينه هدوء آمن ، وفوق ثغره وميض إيمان ، وطرفه الأدعج ارتخى جفناه ، والتفت أهدابه كأنما الومسن يتاغيه ..

ليست هذه بهيئة حرب ! .. فالأدهم تحته يختال في رقة ، ويتحرك بدلال ، ويرفع الحافر بمقدار ويضعه بمقدار ، كأنه يخطو على زهرا .. ليست هذه بسحنة محارب ! .. فالوجه سكونية ، والعين هدوء ، والثغر صفاء ... الطمأنينة التي نعتت عياه لا تشي بجبروته . ملاحه دعة . لمحاته فيض دافق من السلام عذب الينبوع ! .

غير أن جسده الذي استوى على جواده ، ولصق به لا يريعه ، كان يوحى بالرهبة ... فكالصخرة كان . له جهامة الصوان ، وخشونة الجلد . وهذه المسربة التي امتد شعرها الكثيف الغزير بين بطنه وصدره بدت كأنها شظايا الصخور ! .. وإن كفه لتبسط فتلوح كالرحى الحاصدة . وإن كتفه لتميل حين يتلفت فإذا عظامها مشاس ليث ! .. وما يبين في ذراعه عضد من مساعد ، فسكلاهما استوت ضخامة وتكافأ صلابة ، وأدججا معا وحدة متسقة كاصفاة المنحوتة قدها الله من جبل ! ..

واستقبلت الأعين المتربصة في المعسكر المقابل هذا الفارس الحاسر ، العاطل الرأس من جهة ، ومن لمة ، سوى خفاف كأنه بقية الأثر ، البادي الصدر دون درع ، سوى شعره الكثيف كاللبدة ! .. استقبلوه من خطوطهم ، من بعيد ، فأرهموا الحقد في النواظر ، وهياؤا للنايا على المشافر ... كلهم إليه ساق . أسيانهم يهزها نحوه الحنين ، والنهم ، والظمأ للدم ! .. جموعهم تدافعت صوبه تدافع الجواد للخضرة ، كأنها طوفان . خيالهم مزقه ، وشق له في الفلاة قبره ! .. ليس فيهم من عملوا به حتى يدانهم بهذا الجواد المدل المختال ، الذي راح يقطع الرمل في وني ثقل كمشية السلحفاة : بل قد طفرت بهم مطاياهم . وجرت الأقدام ، وعدت النفوس والشخوص والظلال لتعجل به إلى حينه ! ..

وبقي هو على هدوئه . وعلى سيره الرتيب الوئيد . وعلى هذه الإغفاءة التي بدت تغشى عينيه وما هو بوسنان . لا يزيده قربهم منه سرعة في مشيه ، ولا دنوهم إليه ميلا عن سمته . إنما امتد رفق بصره إليهم من خلال أهدابه ينظر ويرقب ويعد الخطوات ... عن عين وعن يسار يقبل الجناحان . الأرض الحالية يطويها الزحف . الشقة بينه وبينهم تضيق — ولكن الطائر الذي بدا على هيئته جيش الشام قبل التقدم ، التوى قوامه ! .. اختلت وحدته وتضعف انسجامه ! .. ليوشك بدنه أن يكون قد لفظ ريشه أو انفصلت عنه قوادمه وخوافيه وهي منطلقة وحدها إلى أمام ؟ .. أما جسدها فمستأخر ، يثبت بذات مكانه الذي برحه جناحاه فهو عار مكشوف

وتبسم الإمام . لهذه اللحظة كان يدخر الابتسام ! .. لمعت عيناه من وراء أهدابه المرتخية . وشاعت الحركة في كيانه المفتر نشاطا خافيا في دماائه وعزمه وخاطره لم يرسم ظله على محياه ..

إذ ذاك كانت ميسرة عدوه — أدنى الجناحين منه — تنطلق نحوه انطلاقا السهم للهدف . وكانت أختها الليمنة ، من مقرها البعيد ، تقطع الشوط جادة إلى موقعه كأنها تضمن على صاحبها وحدها بفخر مصرعه ! .. أما هو فعلى ذات الصورة : مكينة ووسن وإعان ... صخرة على ظهر ، ومشية على زهر ! ...

ومد عينه ترود الأفق ثم تثقب بلسحها الجحافل المغيرة ، المندفعة إليه في عنف . الهادرة كالعاصفة ، المنحدرة كاللال . من خلالها انسرب نظره على جناح فكره وتقديره ، إلى قبة عظيمة هناك ... إلى سياج من المقاتلة حولها قاموا صفا وراء صف . وحلقة وراء حلقة . إلى غريم تستر عن النية بحصون حية ، بناؤها أجساد ، وملاطها عزائم ! ..

خلف هذه القلاع والأسوار ، أخفى معاوية عمره من أصابع الصراع النابشة كما يوارى البخيل كنزه . كنهه بفسطاطه . ولفه بخمسة صفوف من مقاتلته للعقلين ، الواحد يليه تاليه ، والفرد لاصق بهنوه حتى ليعسر أن تمر من خلالها خفقة الريح ! .. وكان الماهل بقلب جيشه ، ذلك القلب الذي ثبت مكانه إلا قليلا عندما تحرك الجناحان ، وكان حماته من خاصة جنده ، وأخلص قومه

وانصاره له وللغاية التي اطلعتها احلامه . وكانت الجموع تزحف وهم ينظرون .
على أهبة وحذر ، حتى تحين لهم ساعة القداء . فلقد بايعوا أميرهم على الموت
دون أن تنكص بهم قدم . عهدهم ثبات وصبر . هدفهم قناء أو نصر . شعارهم :
« هنا القبر ! » إذ استقاموا على مكانهم كالأوتاد ! ... فلعلهم ، حينما وقفوا ،
جعلوا آجالهم تحت أرجلهم ، فلا تقدم ولا تقهقر ولا ميل ... أو كأنهم نخل
بدت الجذوع والفروع ، وغاصت الجذور في الأغوار ...

ثم تلفت الإمام ..

كانت لفظة مباغته ، على حين غرة من المغيرين الذين قروا لونه وهو جاثم
على فرسة ، رخی الهدب ، مفتر الأوصال ، يحاكي بدنه وأعضاؤه قطعا ضخمة
من الجنادل ! .. كومضة البرق في خطفه . كلمة السيف إذ ينشال ثم ينحط
في انقضاضه . ما بدرت منه حتى قاض من قوامه المربوع زخر الحياة . ثم رجت
في رجاله الساكنين مكان الثورة من القاع . ثم أعدت منهم الميمنة وكانت قبلها
تسير مثل سيرة ، بخطو قصير كأنها لا تسير ! ... فإن هي إلا لحظة كطرفة
العين حتى أسرع القدم والحافر . عدا الرجالة وظهرت الأفراس . برقت الصوارم
وأزت السهام ...

وعلى الأثر اضطرب الميزان ... حين تحركت حشود الشام من قليل ،
كانت الأرض تحتها ثابتة ، والهدف بينا ، والطريق مفتوحة ... أما الأرض
فسهل ميسوط ، قر وطاؤه ونامت حشاؤه ، وأما الطريق ففرجة بين جناحي
الإمام يكاد لا يسدها رجاله الذين أقبلوا الهوينى معه كأنما يشقلهم وقر أو يعيهم
السير . وأما الهدف فراكب على أدهم ، الجواد خائر والفارس نعلان ! ...

كذلك انطلقهم كان ، بدء الهجمة ، والسلاح في أكفهم كالأيون الرواصد ،
أطرافه تشخص إلى الغريم لا تريم . بأعين السيوف رمقوه . وشخصوا إليه .
وطوت ظباهم صوبه المسافة بلا كلال وهي ظمأى إلى دماثة ... ولولا طاقة
للطى محدودة ، وأشفار لحقدم مفلولة مثلومة ، تثلب ولا تجرح ، لجنبوا
النجايب والخيول ، وركبوا دونها عقائل الغل عساها تعجل بهم إليه فيدفتوه
حيث قام ! ...

ولكنها لفظة ثم اضطرب تقديرهم ، وشال ميزانهم ، وتزلزل للميدان تحتهم
زلزاله — أولئك الحالمين بقبر له غير معلم في العراء بجانب صفين ! رمى
إليهم بعين ، والشقة بينه وبينهم لا تطويها الرمية . ورعى إلى ميخته بعين ،
وخطوها إلى جواره حين وثيد ، فإذا السكون ضجة ، وإذا الغبار إعصار ، وإذا
الهجمة التي وجهوها إليه التحام ، ثم تقلقل ، ثم نكول ، ثم تقهقر وفرار ...
ونالت البغلة من الجحافل المغرة — إنها أخفت الحصا ، وغطت الرمل ،
وسترت الأفق عن العين . ولكن المفاجأة التي بادرتها بها ميخته أذهلتها عن
البأس ، ولوت بعمان خيلها وجندها وقادتها إلى وجهة لم تكن يريد . كر عليها
ابن بديل . وركز عنف حملته على أدنى فرقة فيها رامت الإمام بالفارة حتى
انتكث نظامها كالخيوط ، وتداعت ، ثم تهاوت على ماوراءها من صفوف أصحابها
كما تهاوى جدار ...

ولم يعل لها لحظة في التدبر . ولا في التصبر ، وما كان ! ... لم يعهدها هزيمة
لثوب أو تستعيد جأشها المسلوب . إنما انطلق ، بغير وني ، يحرض رجاله :
« أنحشونهم ! ... فإله أحق أن تحشروه ! ... » وهو يتبع الضربة الضربة ،
والشدة الشدة وفي يديه سيفان مختلفان على رقاب أعدائه كأنهما مقص
الأجل ! ...

ثلاث ليال وأيامها سطرت ساعاتها الحاتمة الحزينة للصراع الساح الذي سجلته
صفين . وثلاثة رجال .. والثغرة التي فصلت بين هذا الزمن وهؤلاء الأناس
وسع القدر أن يجتازها على جسر قائم من نزع الأتقس ، وعبت الأهواء ،
واضطراب الجوانح بالغرور والجشع والضعينة ...

وكانت الأقدار ساخرة . فكان تدهور في ناحية ولم تكن هزيلة . وكان
تصبر في أخرى ولم يكن نصر ... معاوية تقوضت خطوطه ، واتسكت عليه
خطوطه وخيوطه ، ولكنه بات يملك الزمام ! والإمام تقدم رجاله ، وأبلى أبطاله
ولم ينل نيله من شراذم الشام ... والذين مدوا له على الأديم من أشلائهم مهادا
لينا يسير فوقه إلى الظفر كان فداؤهم هواء ، وفناؤهم في سييله هباء وجفاء :
تنائت جسومهم على الرمل فكان بذل ولا نيل ، واتضحية كأنها رنين طبل
ضائع الصدى والدوى في عالم فسيح من الصمم والفراغ ... والذين ضنوا من
رجالهم على الحرب بالجراح ، وادخروا الدم ، لم يهنهم بعده في حياتهم عيش ،
ولم يقر لهم في هذه الدنيا قرار حتى باعوا العمر سلعة رخيصة في سوق
الغفلة ...

ولسكنها نهاية محتومة : وغاية في لوحة المصير مسطورة ، مقدورة المقدمات
والخواتيم من قبل أن يرسم البشر من صورتها أول الخطوط ، أو يحددوا من
رقمتها مواقع الظلال والأضواء ... فما الناس إلا همل حينما يشرع القدر سنانه
ويهيء مداده وألوانه . ما هذه الليالي الثلاث وأيامها الحوالك إلا ديباجة النقش
وأديع . وما أولئك الرجال الذين خطوا النتيجة الحزينة إلا أقلام : وما تلكم
الأنفس المفتونة عن الحقائق اللغيبية والأسرار المستورة إلا للادة التي أذاب سيالها
جمد الألوان ، وآلف منها بين الشئب والضرير ، ولثيل والغريب ، حتى جرت
منظرا حافلا بالهدى والحكمة ، بالحسم والتخاذل ، بالموت والحياة فكان
الصورة المحتبأة ! ...

أما الليالى فمن صفر ، رأس العشرة الثانية فيه . وأما الرجال فمن طى ، أئمة نصيره وأرليائه . وأما الأهواء فغرة وغرور وتحاذل ، أخذت سمتها إلى قلوب غلت فى الوفاء له ، والذباد عنه ثم لم يجنبها ولاؤها المفروض سقطه عارضة فجفته بمدى فى أهوايه .. وكان ابن بديل الفاتحة ، وفى عقبه أضاف الأشر خطوطا وعناء ، وعلى الأثر جاء الأشمث فأكمل الصورة الحزينة ...

ودع القدر يذب ، ويعزج ، ويؤلف ، ثم عد إلى الرقعة بأقلامه . دع اللوحة الخالدة على الزمان ، المائلة أبدا أمام أعين الخواطر ولمح الأذهان ، يقترب فيها الضوء من الضوء ، ويلتقى الظل بالظل ، وينفى الخيال فى الأصل ، حتى تبرز مقبلة الهيئة ، قاعة السمات ، شوهاء ... دع هذا كله إلى مقدماته . إلى الخطوط المبكرة فيه ، إلى الخطوط التى تبثت — عندما عطف ابن بديل فى ميعنة على عيسرة الشام — كأنها بشارة الفجر ، لمحة النهار ، طليعة الغلبة والانتصار ، فإذا هى بعد ساعة أو سريعات تستبين : فاتحة ظلمة ، وغسق ليل ، وبداية دبر ، إن تكن حقت الدم ، فقد أكلت الظفر ، وأوهت العزم ، واستذلت المثل والمكارم ! ..

ومع ذلك فليس ابن بديل الخزاعى بالنهم فى إخلاصه ، ولا فى قدرة إمامه ، ولا فى هذه الشجاعة التى أثمر الغلبة وتستقدمها عروسا مليحة تزفها الحرب للجندي الأقدام . ولكنه بدا امرأ تغلبه الدبعة فينسى العقبي ساعة الزهو بالنصر كما يذمها الذى أعلته خمر . . أطاح بجند حبيب بن مسلمة ، وتفرقوا عن كفاحه فلولا منهوكة ، وشراذم نالت منها المفاجأة قبل أن تنال السيوف ، وضاعت عليها الرحاب الوسيمة فى جنبات صفين كضيق المصاف والصفوف . حتى حينما استجاشها معاوية فى محنته ، أذهلها البأس والخوف عنه ، فلم تصنع له وهو يدعوها ، ووضعت صرخاته دبر الأذن مرة ومرتين وثلاث مرات . وإذ ذلك لم يعد لعاهل الشام رده بحميه من عصفة القائد للغامر إلا تلكم المعقلة الذين بايعوه أن يعوتوا دونه ، والتفوا بفسطاطه حلقة بعد حلقة فى خمسة أسوار ، ثابتي الأقدام كالأوتاد المفروسة ، مانصة جسومهم بعزمهم كأحجار جدار . . .

ولم يعنى صبرهم هذا الخزاعى ، ولم يفل من إصراره على بلوغ سيدهم المستتر

عنه بالقبة العظيمة البيضاء ، وبالمفدين والفداء من أمام ومن وراء ... إنما انطلق يضرب بسيفيه جميعا ، وبعنفه وحمزه وصبره جميعا ، ولو كان يسعه لأفقد إليهم الأحيان من كل ثغرة وكل باب وإن كادهمم بالتواجد وأعمل فيهم الأنياب . إنه يروم منهم معاوية ، قدمهم الغالى فى التمرد ، المفرق الأمة ، الصاعد عليها شملها ووحدتها ليسقيه الهلكة فيكفي الناس الانقسام ..

ومضى يهدم الجدار بعد الجدار — يقصف الصف بعد الصف فتهاوى جموع المعقلة تحت أقدام أصحابه ، وتتكسر تكسر الأعواد الجافة ... ولم تكن محاولته أولى الحملات للقضاء على ابن هند وهو بين عسكريه ، بل سبقتها أمس أخرى لم تسارع إليها الجحافل المغيرة والقوى المحشودة الغفيرة . وإنما انطلق بها امرؤ فرد على جواده ، لم يزل يحمل ويقتحم ، وينساب بنفسه بين العدو والسياب ثعبان حق دخل على معاوية خباءه ، ولم ينجه منه إلا الفرار ...

على أن الجراءة فشلت فى ميدان لا مجال فيه للدفة . فحبطت حيلة المقتحم الجسور ، ورقد هامد النفس ، بارد الجوارح والأطراف ، قد ناشه الصخر من كل جانب ، فشدخه ورضخه .. وحبطت أيضا حملة ابن بديل وإن تبدى بدؤها كلمة الفجر بشرت بطلعة النهار .. فأما قشلها فقد ر . وأما هدفها فأمنية حالم ذابت فى الدم . وأما الحافز الذى التوى بقدمى القائد للغامر عن تتبع الميسرة للدحورة إلى اختراق القلب صوب القبة البيضاء فهى الغفلة المسترة من الجراءة الرعناء يستار ..

الغفلة هى التى عدلت لا ريب بابن بديل عن مطاردة جند ابن مسلمة حتى يكف خطرهما عنه ثم عن بقية جيوش العراق . ولكنه تعجل الخاتمة . ودفعت به حماسه ، وذلك النصر السريع الذى اهتبله ، إلى مركب صعب حسبه سيورد معاوية الهلكة ... كان يأمل غير مستريب أن يقضى بحركته على غريم الإمام دون حاجة إلى واقعة جامعة تشببك فيها كتائب العراق وجحافل الشام . وكان الذى قر فى ضميره أن هجمة أخرى خاطفة تنعرف به عن سمته المقرر من ميسرة أعدائه إلى قلب جيشهم المتخلف عن الطعام كفيلة بأن تجرع الدعر معقلة العاهل الأموى ، وتشيع فى صفوفها الفرق والاضطراب فتفرج ذاهلة عن ابن هند

هدفا بين المقاتل ، لينا للمناضل ، هينا على الغوائل . فلو كان أجدى حسابه لجنب المسلمين بهذه الجرأة غمرة فاجعة ، جالت فيها بعد ذلك أبالسة الحرب وهى صديا منهومة تجرع وتبلع فلا تشفيها الدماء المهدرات من أوام ، ولا يشبعها من الروس الطائحات غذاء وطعام ؟ ..

ثم خابت ظنه الجسور .. فى حساب الشجاعة جرت له سيرة هى أمثلة للبطولة . وفى حساب الحروب تنهه الحنكة والدراية بما يجب أن تكون عليه إدارة المارك وقيادة الجيوش . فما على شاكلته يكون قائد يقدر خطوه ، ويقيس أبعاده وآماده ، ويتقبل الخطر وإن هان بالحذر ثم يزنه بعثقال ؟ .. إنما كان ينبغي أن يدبر فى باله كل مقدرات النصر واحتمالات الهزيمة دون أن تفتته الجرأة أو يضلّه التفاؤل ولكنه افتتن . وخف عليه شأن تلك الميسرة الفرارة فلم يهدأ بالطاردة . وعندما حسب نصره الأول عليها مفضيا به إلى نصر ، كانت هى قد نقضت عن قلوبهم أثارة الجزع التى أنجبتها البغته ، واستعدت بالجلد ، واستعانت العزيمة ..

وأثناء حينه من مأمنه ... إنها سوية من النشوة قصيرة ثم ذاق القائد المغامر الصعاب .. شق بين أعدائه طريقه وهو يضرب ويشخن ويقطع هذه الشخوص الثابتة فى مواطنها ثبات الأوتاد . وكان يهتف بصوته العريض : « يالثارات عثمان ! » ... ولم يكن بطبيعة الحال من الذين يفتصرون للخليفة الصريح الذى أشعلت دماؤه نار الحرب الأهلية بين أمة الإسلام . ولم يكن أيضا مخادعا يروم بنداؤه أن يحول العدو عن الثبات له أو الوقوف فى طريقه وهذه دعوتهم يلوكلها لسانه وهذا شعارهم الرامز إلى الثأر شعاره . ولكنه فى الحقيقة إنما منغى يحث نفسه على التصبر بذلك النداء الذى أشكل عليهم مغزاه وهو يطلب منهم دما أهرقوه ، عزيزا عليه . يوم جندلوا أخا له كان يدعى عثمان ! ..

وكانت نفسه الموتورة تسدد خطاه . وكان قلبه الأسيف الحزين يوجه سيفه إلى القبة الكبيرة البيضاء ... للفريسة الآن فى الجو رائحة ! .. لهيكلها الشحيم الجسم طيف يكاد يعلا الفضاء ! .. للقضاء أنشودة وقعتها الحوافر ودقتها الأقدام على طبول الرمال وهى تنطلق للواثر . فليس معلوية يبعد . على مرمى حربة . العين تناله وإن كان الحسام لا يطوله ...

هذه اللحظة الحازبة كانت المنجل المسنون وكان ابن هند سنابل الحصاد ،
إن عوده ليضطرب ، إن عنقه ليتشبث بموضعه . إن عنقه ليزوب ... وعندما
دنا القدر منه استشعر الحياة في ريقه حلوة شهية فبخل بها على الكفاح ! ..

وكذلك أمن العمرة ، وهو يستأخر بعمره وينأى عن مواطن الجراح .
فما بدت له طلعة المادى ، واستيقن الخطر في الثبات حق مال غير وان يندشد الأمان
في الفرار .. تراجع ببقية أجله . ومن بين يديه ومن ورائه اندفع معه قلب
جيشه ميلا آخر عن الفرقة المغيرة والقائد المخاطر العنيد ، وغدا احتمال الظفر ،
تلك اللحظة ، أمام الخزاعي ، كاللمحة البارقة من جانب المين ، يبعثها جفن
ليسترها جفن ! .. أو تخفة الذبالة الجافة أو كومة ضة الحلم في عمر نائم . فلقد
عدلت حركته التمهقر صفوف العاهل المخرفة فعادت سوية قوية . ثم أمدتها خيله ،
ثم كرت إليها فلول حبيب بعد زوال فزعته وهرجها وجأشها الذاهب الشتيت .
ومع ذلك فلم يبدل الموقف من عناد ابن بديل ولم ينل من عزمه وإصراره .
إعاضى وغايته . وظل وهدفه الأول لا يشغله شاغل عن رقبة معاوية . لا يذهله
بأس ، لا ترهبه كثرة ، لا تحمله على التردد أو النكوص خيل ولا نبل ، ولا رده
عن التقدم والافتحام هذه الجحافل المناجزة التي أطبقت عليه كالسوار من عين
ومن يسار ، ومن وراء ومن أمام ..

حتى عندما تساقط رجاله حوله كأوراق شجيرة عبثت بها يد العاصفة لم يكف
لحظة عن غلوائه ، ولم يلتمس مفاوز الأمن والنجاء ، فلموت جاء . للمنية لخصمه
أو لنفسه على السواء ... وإن قوام جمعة لنهذه الحرب ، ويتمزق شلوا شلوا ،
وجارحة جارحة .. وإن النكبة لتلد النكبة ، والخطر يفرخ الخطر ... وإن
الرحى الحاصدة لتنطلق تدور فتكسر وتعصر ، وما هو بعلق باله إلا لذلك العنق
الذى مطه الباطل ، وتفخه الحقد وأتلمته الخبلاء ... فإن يكن فقد جنده فليديه
بقية يشوقها الجلال ويطيب عندها الاستشهاد . وهذه الفتة الصابرة معه حرية
أن تظفر أو تقبر وكلا الأمرين جنة ورضوان ! ..

وتقدم بهم . لايفى حلقه المكدود من نصب القتال وحرقة العطش وحر
الظهيرة يهتف محر ضاهتافه الذى ميمته منذ سوية لحظات نصره : « أنخشونهم ! .. »

فأله أحق أن تخشوه ... « ولاتنى قدمه تشق في الطريق للأمام وسيفه يدق
أو يخرط الهام ... ولاتنى لعزمة تتلألأ في ناظريه تلالؤ البرق في اليوم الماطر
وبل العرق على حاجبيه كقطر الغمامة ... كلما شد عليهم عدوهم شدوا ،
وكما أحكم حولهم حصاره لم نخنهم الحيلة ولم تنقصهم الوسيلة فانفلتوا خفافا من شركه
المحبوك انفلاتة الرقط والأراقم . ولكنهم مضوا في كفاحهم وإن أسلمهم الكفاح
المرير من شرك إلى شرك ، ومن أحبولة لأحبولة ...
ظهرا الظهر ، وكتفا لكتف ، تساند فريقهم وتعامسك كالسور . لا ثغرة
بينهم لا قترام ، ولا فرجة لسن سهم . جلودهم دروعهم . سوقهم مطاياهم ...
كانوا قلعة من البشر ، جراحهم وحدها منافذها وأعينهم الوامضات بالصبر
والبشر والمزعة هن المراقب على أجساد صلب بناؤها وشمخ إباؤها كأنها بروج .
وهذه الدماء المهرقات منهم خد مسيلها مثل الخندق حول القلعة الحصينة ...
وكانو مائة ا ...

٢

لم يطل كثيرا عمر الجهد الذي بذله عبد الله بن بديل لا قطف رأس معاوية
من فوق بدنه ... كان هجمة خاطفة تبعها سريعا ذلك التوقف على أبواب العالم
الآخر الفسيح يدقها الرجل بسيفه ويديه وقدميه ، وبعزمه وصبره ، وبشوقه
وشغفه إلى مبارحة دنيا لا تعيش فيها المكارم إلا كعيش الزهرة الرقيقة في رعاية
زهار ، مبتورة الجذر ، كسيرة العود ، غريبة الدار . فهي مجاز وهي معبر إلى
راحة ، وهي عناء لقرار . وهذا القطر ، من الدموع والعرق والدم ، هو الجدول
الذي تنطلق عليه السفائن الراحلة للأجلة ، دراكا خفافا ، تحمل الأرواح العانية
والموصوبة والضائقة بذلة الحياة ...

وكانت الحياة في قم الرجل كريمة المذاق ، قد أفسدتها عليه أهواء الناس ،
خليطا من قتاد وعلقم . فيها حسد وبغض وأثرة . وجوهر الحب النقي الذي أودعه
الله دخيلة القلوب كان كدرة في صدفة ، الصدفة في صخرة ، الصخرة في غور من
الرمل والحصى والأعشاب ، الغور في قاع بحر بعيد المهوى ، معتكر الوجه ،

عاصف النوء ، طاغى الأمواج ... حتى حينما نال منه الوهن ، وأكلت من بأسه وآد صحبه شدة النضال ، وخارت بهم أقداهم مهيضة على الثرى القانى الندى بالدم ، كان طعم التراب الذى حشا أفواههم وهم حتى أحلى مذاقا عنده من طعم حياته . ومع ذلك فلم يؤثر الموت وإن سعى إليه . ولم يتعجل لنفسه القضاء إلا بقدر تعجله اقتناص الرأس الذى جر جشعه كل هذه الداهية الدهماء . وليس بين الذين صاحبوه فى مصيره امرؤ واحد خطر بباله التماس السلامة فى التسليم أو فى الهروب ...

وكانوا مائة ا ... كانوا حفنة بين أمة من الأعداء . قطرة فى خضم . حصاة على أديم صحراء ا ... حين خرجوا والضحى تقارب الظهيرة كان لهم العنفوان وإن لم يكثروا الغريم المدل المختال ، وكانت لهم العزة بالجلد دون العدد ، وبالعزم دون النفر ، والإيمان قبل العدة من الخيل والجياد ومن السلاح والعتاد ... وشهدتهم الضحوة عماقة انكش أمامهم عدوهم كالأقزام . وشهدتهم الوغى مردة على حابة الصراع لا تنكص بهم قدم ، ولا تفتر ذراع ، ولا تهجد حركة . وشهدتهم الأرض كأن لم تشهدهم ، فأقداهم ما تكاد تلمس ثراها حتى تطفر خفيفة سرية تخوض لجة الهواء ا ...

لكن الظهيرة اقتربت وهم - قى ، رقد همد على صفين كالوات . هى سوية أقبات ، ثم سوية أدبرت فإذا نصرهم ذاك غيمة بددتها الهزيمة ... ولم يفت أمرهم إمامهم وإن هم فاتوا هدفه — فما أحسب — ومالوا عنه إلى اقتناص صاحب القبة البيضاء . فكأنى بهلى قد حذر غايتهم منذ اقتحموا جحافل القاب وأشفق أن تغولهم دونها العوائل فقدم نحوهم سهل بن حنيف فى فرقة المدينة لعله أن يخفف عنهم ، ويعد هونا من أزرهم وبأسهم إذ تعاورهم القوم وحيت وقدة الصراع . غير أن فسحة الزمن كانت قصيرة . فهى ساعة وبعضها أقم الكر وقتها ، هم يسكرون ثم لا تلبث الحرب أن يعيل ميزانها عليهم فى مثل خطفة البرق فيسكر عدوهم من كل جانب : معقلته وخيله وميسرته ، وتبدأ الرحى تدور . ما بين الضحى والظاهرة كان النصر وكانت الهزيمة انتظما فى خيط ا ... ولو أوتى سهل سرعة الريح ، ومشت بأقدام جنده الأعاصير والصواعق ، لما وسعته قدرته أن يبلغ موضع القتال قبل أن ينقلب مجنه .

إنها حركة لم يسبقها الإعداد تلك التي غامر بها الخزاعي ، كانت مفاجأة
لعاوية ولعل على السواء . وعندما فشل تدبيره ، وقعت به قلة جنده وكثرة
غريمه دون غايته ، كان أوان إصلاح خطئه الحربي قد فات . ومع ذلك فشمة
عوامل أخرى نزلت حلبة المعركة ، أضافت الكثير إلى خطوط الهزيمة التي انجلى
عنها بعد ساعة واحدة العبارة . فالهزيمة التي انقلت من يمينها سلاح المبادأة هزتها
القوى التي تسكنت عليها وقطعتها شرائزم . ومدد سهل رده حسيرا خيل كالليل
قد أفسحت لها هزيمة الخزاعي واضطرب أمره في حرية الحركة وسرعة السكر
والهجوم . وقلب جند المراق لم يخل حينذاك من عناصر كانت تؤمن بحق على
على حرف ، فلم يكذب يده في الأفق تفوق الأمويين حتى انسحبت الهزيمة من صفوف
الإمام كأنها آثرت ألا تهز سيفها في وجوه إخوانها من عن الشام ، بل مضر
أيضا تلكأت عن النجدة ، وجنحت هي الأخرى إلى مبارحة الميدان في لحظة
كان ينبغي خلالها الصبر واثبات إن لم يجدر التقدم والاعتحام . وعندما حسب
الناس أن المأزق الذي وقع فيه ابن بديل وميخته ليس سوى هزة طارئة هي
جانب من طبيعة الحرب التي تتسم دائما بالقلب ، ويختلف تيارها بين لحظة
ولحظة من حظ لحظ ، من مد لجزر ، كان الموقف كله في حقيقته أبعد عن
رجاء الآمل ، وبشر المتفائل ، وأدنى إلى خطر داهم يوشك أن يجاب عن
نكبة مستطيرة ...

حدث هذا كله في سرعة مذهلة . في كسفة قصيرة من نهار . في دقائق
قلائل التأمت فيها ساعة مرت كاللمحة ، وثقلت كالدهر ، وتساقط خلالها
الأحداث نحو القاية كأنها ريشة يحرفها التيار ! ... العيون قصرت عن متابعة
الصور التي حركها الزمن . الأذهان كلت عن استكناه النتائج لأنها عجزت عن
ملاحقة البوارث أو الأسباب . حوافر الجياد التي تداركت تركض وتمدو وتطوى
المسافات بدت كأنها تقفز وتطفر وتتوذب وهي بنفس مكانها لا تريم ؟ ... فأما
النصر فغيمة ، وأما الهزيمة فغيمة ، وأولئك الجند في الفريقين استظلوا السحاب
المترحل يترى فوقهم قطعة قطعة ، لا يحركونه بل تسوقه الريح ...

وانتبه الإمام مثل غشية ... فإذا ميخته انهارت . وإذا مدده قد ضربته

خيل عدوه وردته فرادى ومثانى ومزقا محلوله تهنطع مهیضة إلى النجاة . وإذا
المیدان حيث نشب الصراع يستحيل جزرا وقطائع من الأقطاع فی بحر طام من
المهرج والموت والفواجع ... هنا شرذمة وهناك شرذمة . هنا فلول من جنوده
لصقت جسومها بالثرى المبلل وهناك فلول تصارع المهلكة على بقية أجل وعلالة
أمل كما يضطرب فی الحبال الطیر وهو يحاول أن يتحرر وينفذ إلى الفضاء . هنا
وهناك دحرة ودبرة ، وهى وتهافت ، مصرع ودم — أينما انطلقت عينه طالعتها
صور شتى من النكبة القاصمة ، فی الميمنة .. فی الميسرة ... فی القلب ...
فی كل بقعة من أرجاء المیدان ...

ومع ذلك فلم يفقد الجنان . لم يفقد القلب الذى يترنم بین ضلوعه بالحففة
ورجعها وهما جسارة وإيمان . لم يفقد بمدى يديه ولا يسراه وهما له جناحان .
هو جيش وحده . وفرة من عزم ، وعدة من بسالة . فما تخلف النصير عنه ؟ —
ما تألب العدو ؟ — ما الموت ؟ ... وعندما عزم على أن يلقى إلى المعركة
بيديه . كان عليه أن يشق طريقه إلى حديقة الموت بین صحبه قبل خصومه . فلقد
انبرت له من أواسط طائفة ، فيها أنباؤه ، تجهد جهدها لتفتديه وتناهى به عن
الغمار . والتفت به . وقدمت إلى محلة الخطر مهجها دونه ، والصدور والنحور
والأبدان تؤلف حوله سياجا مانعا أن يخترقه إلى فم الهلاك المغفور ...

لكنه عصف بهم . مضى يدهم دفعا عن نفسه وهو يشق بينهم طريقه واثقا
إلى الغريم . راح يتجرد من هذه الدروع . ويقصف تلك الحصون المؤلفة من
دم ولحم ، ومن أنفاس وحياة ، ومن تضحية وحب وإيثار ، ليخرج خالصا إلى
العراء يدق على الهول باب ، ويشق إهابه ، ويقتسم نوبه وأنيا به ..

وكان عاطلا غير دارع ، حاسرا بلا ترس ، أعزل اليد من السلاح سوى
رميح كالعصا القصيره . ومع ذلك فقد بدا كمن لا يحذر ، ولا حاصبه لا يخترق
من الردى المترص له على مقربة فى صفوف أعدائه الذين ظفر الالدد من عيونهم ،
وحرصهم الحقد ، ورددت صدورهم أنفاس الضغينة . إغما مضى يدنو منهم ،
ويحاول أن يخاطب جموعهم فى لحظات كان خلالها قبلة لكل عدوان ، وهذا
هنا لكل طعان ... وعجب له صاحبه سعيد بن قيس فهم يرده عما اعتزم
وما هو فيه .

« أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يغتالك أحد وأنت قرب عدوك ؟ ...
فلم ينل منه تخوفه ، بل رد نصحه وأباه وهو يجيب في طمأنينة :
« يا سعيد ... إنه ليس من أحد إلا عليه من الله حافظة يحفظونه من أن
يتردى في قلب ، أو يخر عليه حائط ، أو تصيبه آفة . فإذا جاء القدر خلوا
بينه وبينه ... »

وانطاق . كلما اعترضه من ولده من يبتغى أن يستقبل عنه بصدرة سهام
قناصة الشام أسرع فدفعه ، أو نحاه ناحية ، أو احتمله فألقاه بين يديه أو وراء
ظهره . لتفسح سبيله إلى الصفوف المغيرة ... كان في هذه الآونة يواجه جيشا
برمته . وكان ظاهرا كالعلم في أديم سواء لا تخطئه عين ، وكالحدف تنو صوبه
الأسنة المنهومة . كانت النبل تنطلق إليه كالصواعق ، وتتر حول بصوت الرعود ،
وتتناثر كمطر منهمر وهي تكاد تبل عنقه ومنكبيه بدمائه . عند ذلك غلبت
الركة ابنه الحسن فأقبل أيضا يحاول معه محاولة سعيد :

« ما ضرك لو سميت حق تنتهى إلى هؤلاء الذين صبروا لمدوك من أصحابك ؟ »
فألقي الإمام نظرة عابرة إلى جانب الميدان حيث ميسرته ، ثم ابتسم غير آبه :
« يا بني .. إن لأبيك يوما لن يعدوه ، ولا يبطىء به عنه السعى ، ولا يعجل
به إليه المشى ...
وعاود انطلاقه ...

كيف يهاب ؟ ... العمر قدر ، والأجل كتاب . ونفحة الإيمان التي تفيض
بفؤاده كانت له الملاذ والجنة . هو لا ينكص . هو لا يحرص على بدنه إذ البدن
ثوب وغشاء ، ولا يقشبت بهذه الحياة فهي زبد وجفاء . إنما البقيا للروح .
للسيرة دون الصورة . المثل والمبادئ لا للجيفة النابضة بالدم ، المصوغة من
عظم ، الملفوفة بلحم وإهاب ..

ثم انطلق لم يتردد في انطلاقه المنقض هنيئة ، ولم يتوقف عن التقدم سابحا
على الهول ، غائضا في الحراب والنبل يضرب فيهم ويقنطع — أولئك الذين تقدمت
بهم مصارعهم يروم حقدهم أن يذوق من دماؤه .. وكأنما غرهم به انفراده ،
وقلة النصير خلفه ، وهذه السمات البوادي للهرج والحور في صفوفه على طول

جبهة القتال فأقبلوا إليه مهطعين تزدهيم الكثرة ويخيلهم الظفر وكأنما بدا لأحمر ، مولى أبي سفيان ، أن قد آنت اللحظة ليحسم الأمر ويشيب وليه ابن هند على كفاحه الزنيم للتاج . فما هو أن بصر بالإمام يخطر ، وأيقن أن نيله قريب ، حتى انفلت يركض فرسه ، ويشرع سيفه ، ويسبق إليه النظير والقرين ليعود وحده بفضل اغتياله . ولكنه أخطأ الحساب . حظه خاب . حينه كان قد دعاه . فلم يكذب يدنو ، ثم يرتفع النصل ، ثم يسدد الشفرة المصقولة إلى الصدر العاري ، ثم بهوى بها تحمل الموت كالفضاء ، حتى كانت يد الإمام أسرع إليه من ومضة الحسام في عينه ، فإذا هي تحتطفه من صهوة جواده ، وتعالو بجسده في الفضاء كالدمية ، وتجلبده الأرض جلدة قوية هشتت عظمه ، وعجنت لحمه ، وخلفت له من علائم اللدد والغرور والحياة آهة بلا صدى ، وأنة بلا ترجيع .

كانت ريبة حينذاك وحدها في ميسرته ، ثبت رجالها على قدم . لم يفزعها الهول . لم تذهلها هذه الموجات المتوالية من قوات العدو التي راحت تغتور جوانب الموقعة . لم تل بها خشية الخطر ، التي تملك نفوس بقية الجند في الجيوش العراقية ، إلى حركة انسحاب أو إلى فرار . . . ومع ذلك فلم يلد بصبرها ، أو يتخذ من صفوفها الراسخات جنة . وعندما انكشفت عنه الخيعة ، وخلا القلب إلا منه ، وهربت مضر بالأعمار ، أقبل وحده ، كما شهدناه ، يقتحم العمرة ..

غير أنه لم تشغله شاغلة إبان تألب للنومين لدمايته عاياه عن إدامة النظر في حال رجاله الذين حزبتهم الحنة ، وحزبتهم الحرب ، وفرق شملهم وأعدادهم اختلاط الأمر واضطراب حبل الكفاح : إنما كان يضرب وهويرتب ، وبهجم وهو ينظم . فلم تكد المعركة في إقبالها وإدبارها تلتقي به في جانب البقية الباقية من ميسرته ، حتى راح يستثيب الذين هجروه ، ويحثهم على الصبر ، ويحذرهم مذلة الفرار .. وكان الأشتر قد دفعه إليه مد القتال ، فدعاه :

« يا مالك »

« لبيك يا أمير المؤمنين ... »

« ائت هؤلاء القوم فقل لهم : أين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه

إلى الحياة التي لا تبقى لكم ؟ »

أينما كانت حركة في جنبات الحاية ، وأينما كان نفس ، كان على إرسال بصره ويشرك تديره . وفي حلال الأيام والليالي اثلاث التي استغرقها القتال ، وحمل فيها أو فتر وطيسه ، كان يشهد — وإن نأى — تقدم الجند واستخارته ، الهجمة والدحرة ، السكرة والفرة . كل هنة وصغيرة فلم نخف عنه من مواطن الخطر خافية ، لم تنب لحظة عن إدراكه خطوة راجل أو وثبة فارس مهما نأى بها الميدان ... إنه لينظر إلى المعركة كمن يتصفح صحيفة . ويعمل كمن يخطط على أديعها بقلمه فيمحو أو يضيف ما يشاء ... ولم تن قط عزيمته . ولم تحزبه الشدة في إبانها بقدر ما حفزته فإذا هو مضاء وأنفة وإيمان . وعندما استشعر المحنة التي تردى في قلبها رجاله ، كانت عينه تسبق العلة ليعمل لها ذهنه الدواء — جمعهم ولي إلا حفنة . صبرهم هاض ما عدا مسكة — ريمهم ذهبت سوى أثر كأنه بقية الربوع الدوارس . أما هو فله صبره ، وله أيضا بشره وإن كرته الانهيار ، وله ثقته واعتداده : فلم يكذب يده له من صفوفهم خوار ، حتى انطلق يقتحم العمرة ، بغير وئى أو فتور ، يهجم ويصول ، ويناضل وحده موجاتيا من جموع الأعداء ، لا ليظفر ، بل لينفث الثقة في القلوب ، ويرسم الأسوة لكل متردد ، ويحمل على الصبر كل فرار ...

وكان له نهج ناجح يهد السكرة التي خايلها النصر ، ويمد القلة التي أفرزتها الهزيمة . حين تقطعت أوصال جيشه ، وغدا شرازم كالجزائر في طوفان من جحافل الشام ، سارع هو فنفض جمعته ، ثم يادر بما يرد عن صحبه المادية ، ويزل خصمه ، ويطنى جهره ، ويكفى قدره ... حينذاك شحذ الحيلة ، فقدم الولاء والفداء والتضحية طليعة مناصرة إلى أولئك الذين تخلق حولهم عدوه . وتركهم من حصاره في شر ، أعتاه أسر ، وأهونه هلكة ، وكان تفضيله خصومه الأقوياء عن حقيقة الحال ، وبثه الدعر في قلوبهم ، وإيهامهم أنه الأعزى الخطوط التي وضعها تديره . وكانت قوة الإيمان ، والجرأة ، وحب الإيثار هي الدعائم التي أقام فوقها جسرا مر عبره جنوده المقصولون عائدون للحرية ... فذات ساعة في الوقعة ، حملت خيل معاوية كثيفة على فرسان من العراق فقهرت منهم ، ومزقت ، وبترت ألفا حيل بينهم وبين الخلاص ، عند هذا نادى الإمام :

« ألا رجل يشتري نفسه لله ويبيع دنياه بآخرته ؟ .. » .
فأتاه رجل من جعف ، مقنع في الحديد ، تشع عينه نظرة تخيف الموت :
« يا أمير المؤمنين ... مرني بأمر ، فوالله ما تأمرني بشيء إلا صنعته ... »
فقال له علي يسدد خطاه :

« أبا الحارث ، شد الله ركنك ! .. احمل على أهل الشام حتى تأتي أصحابك
فتقول لهم : أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام . ويقول لكم هلموا وكبروا من
ناحيتكم ، ونهمل نحن ونكبر من هاهنا : واحملوا من جانبكم ، ونحمل من
جانبنا على أهل الشام ... »

فأسرع يفعل ، وشهده اليوم يعدو به جواد كالليل ، أدهم الجلد والفرقة .
خف حملة على الريح ! .. لم يزل يعضى به في صفوف العدو المرصومة ، مرة خلة ،
ومرة عنوة ، وهو قابض على ظهره كالقلعة ، لا يصيبه سهم ، ولا يناله حسام .
وبلغ الجمعى هدفه . فلما لمت من بين قناعه الحديدي عيناه . قرأ أصحابه
المحاصرون في نظراته بشير السلامة ...
وسألوه :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ .. »

قال :

« صالح ، يترئكم السلام .. »

ثم أدى لهم رسالته .

فإن هي إلا لحظة حتى اهتزت الأرض بالتهليل والتكبير ، من هذا الجانب ،
ومن ذلك البعيد . ووقعت جماعة الشام في حلقة منه . وفي حيرة من هذه الحملة
المفاجئة التي بادرها الفريق المحاصر المستضعف . وفي فزعة من تلك التي أنبأهم
التكبير خلفهم أنها ستحمل إليهم المصارع ... غلب على أوهامهم حينذاك أن
عليها قد استقاء جندا ضخما — ثم ذلك الزئير عن أعداده — وأقبل فيه من
ورائهم ، يخافوا الوقوع بين فكي المقرض ...

وكذلك نجت الفرقة المحصورة . وانفسح لها سبيل الخلاص واسعا في صفوف
العدو الذي ختل عنها التهليل ، وفرقه الخوف ، وأوقت به حيلة رجل ، وجراة
(١٦ — الإمام)

آخر على الفناء ... وكذلك تشهد الإمام دائماً خلال الواقعة قد جمع حواسه ، وإدراكه ، وعلمه بالقتال والرجال ، عدة وأهبة تسكب عنده جمعة النوازل ، وتندراً غائلة الويل . فإذا أجزى الحتل ختل ، وإذا أجدت الجراءة غامر ، وإذا أمر الضراب صال ...

٣

بدأت دعوة الأشتر الناس للثبات كالصرخة في الربيع الخالي .. شغلهم عنه الخطب . أذهلهم الروع . وكافوا يفرون من حوله كالجراد . وكالظباء الشوارد . وكالحمر المستنفرة فرت من ضيق .. ولم يردد اللضاء صيحة كصيحته فيها الالهة والاستغاث ، والرقعة مع العنف ، والتوسل مع الوعيد . وكان يحجار بصوته المجاجل : « أنا الأشتر .. إلى أيها الناس ؟ » فيقبل واحد ويدبر عشرة . وكان يرميهم بوحش لفظه : « عضضتم بين أيكم ! » فيلقونه بسمع أصم ... فاستفاء منهم قومه :

« أخلصوا إلى مذحجا .. »

عندئذ أخذت خشية الدهول تنجاب هونا عن النفوس المفزوعة : وبدأت الأرجل تثبت ، والقلوب تثوب . لكأنما هز العرب من غير قبيله أن رأوه لا يبالهم ، ويكفر بنخوتهم ، ويؤثر النخع عليهم ، فراحوا ينعتون عيونهم إليه بعدلى الأجياد عنه ... ولكنه انطلق يستجمع أهله . رويدا رويدا كان تفرم يقبل ، وأعدادهم تأتلف وتكتل . فلما شهدهم قوة تستطيع أن تقف على قدم ، فتدفع خطراً أو تسد ثغرة ، وقف بينهم يخاطبهم ونبرات اللوم تتنثر من بين شفته كالحم :

« عضضتم بهم الجندل .. والله ما أرضيتم اليوم ربكم ، ولا نصحتهم في عدوه ، فكيف بذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الثارات ، وفتيان الصباح ، وفرسان المطراد ، وحتراف الأقران ، ومذحج الطمان ! .. » وتركهم برهة يلوكون فيها تقريره . حتى إذا نضمت سياهم بالندم والتوبة ،

رق صوته ، ولان لهم عياه . ثم مد يمينه ، وهو يحرضهم ، يشير بها إلى مقالة الشام :

« ... اجلوا سواد وجهي يرجع في وجهي دمي ا ... والذي نفس مالك بيده ، ما من هؤلاء رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله ... »
قالوا له وقد حركتهم حميته :
« خذ بنا حيث أحببت ... »

كان عليه أن يعيد بناء مينة على التي تهاوت ، وخرقت جدرها الشقوق والشغرات . فلم تعد سوى خرائب وأنقاض ، وأوشكت معاول الهدم التي تناولها بها رجال ابن هند أن تدكها وتأتي عليها من القواعد . وأئن كانت المهمة التي أخذ نفسه بها عسيرة ، فإن المادة الصالحة للترميم ، ورتق الفتق ، وإقامة الدعام ، كانت لا تزال على مدى يمينه . هنا ملاط وعمد وأحجار ا — هنا طوائف لم تكن لتستكين أو تفر بالعمر وفيها بمد ذماء من روح ، ونفثة من دم ، ونفس حياة ... ولكنها تلفتت لتجد الميدان قاعا خاليا حولها إلا من نفيها الهاشم الذي نهكته الحرب ، وأكل منه الكفاح . أما عدوهم فسيبهم إلى النصر . وأما حليفهم فهجرهم إلى المهرب ، وأما هم فرقأوا أدمع الحسرة ، وامقوادم الجراح ، وساروا الهوينى على محجة الموت لعل هذا الفضاء من حولهم يطلع جحفا من الغريم المدل يبلغون ثأرهم أو يثيبهم لقاؤه الشهادة ا ...

ولقيهم الأشر . أولئك شوية من همدان . شباب بواصل شم صلاب ، مزقهم الوغى الخوانة ، وحالقتهم الخطوب فلم يعضوا للذلة الجباه . بالدهاء ضمخوا قتلاهم . بالثرى كفنوا أحياء . فات حظهم غار النصر فآثروا وهم أعزة ركام القبور . بالرضاء والبشر والطمأنينة استقبلوا الأحياء .

وكانت لهم راية عزيزة في الرايات ، ظلت على مدى القتال ثابتة كالطود ، رافعة كالقمة ، تطاول غيوم السماء ، لم يقصفها حدث ، ولم تعل بها محنة ، حملها رجال غير أمجاد . وركزوها في قلوبهم فلم يدعها واحد منهم إلا وهو يودع آخر نسمة من أنفاس العمر ، ينفضها الصدر ويلفظها النحر ، ولا يتوسد على الأديم رمسه حتى يتلقفها من فؤاده قلب آخر . وحين هذا تطيب نفسه ، ويبدأ باله ، وتومض عينه ببسمة رضاء ، ثم يجر على اثرى القانى المبلل وينام ...

دونها قتل ستة أخوة ، ثم ثلاثة ، ثم اثنان . ضممهم في الردى التراب
كما جمعتهم في الحياة الأصلاب . فلما أن خاضت قومهم ربة الحرب ، وفنيت منهم
القدم والحافر ، وتقطعت بهم عن الطعان الأسباب تهاوتوا بحسرتهم :
« ليت لنا عديدا من العرب يحالفوننا . . فلا ننصرف حتى نقتل أو نظهرا . . »
وعندئذ لقيهم الأشتر . فأهاب :
« إلى . . . »
فلبوه . . .



ولم يطل به التجوال — كما أسرع الناس منذ ساعة للتفرق بادرُوا الآن إلى
التجمع حوله كلما بلغهم نداؤه ودعواه . فلقد هدأ منهم الجأش ، وسكن الروح ،
وتبددت غمة الضعف والتخاذل فما بقي منهم إلا نادم وأسيف . في جموعهم تلك
لم يكن خائن . إنما زلزالهم البغته ، وجمعت بهم أقدامهم عن غير وعى إلى مسالك
النجاء . وإنه ليهتف فتأتيه من هنا طائفة ، وتلحق به من هناك فرقة ، وتأتلف
عنده الفلول والشراذم وهي تنفض عن أردانها غبرة الحور وعن وجوها معرفة
الفراز . وإنه ليحضى وشمس الظهيرة تنطلق للمصر ، فيكون سيره كليلها ، ونقره
كظلالها ، كلما استقدم نحا نصيره واستفعل ، وكلما مالت امتد ظلها وطال ! . . .
فردا فردا جمع رجال الميمنة المدحورة ، حجرا حجرا لم جدارها المنقوض ،
وشيثا شيئا راح يرسى له القواعد ويقيم العمد والدعامات . . . ولم يلبث جهده أن
أجدى جدواه . فالميون التلقة ثبت حملاتها على مواطن الخطر . والقلوب الفزعة
أمنت من خوف ووقع خفقها نغم الجهاد . والجوارح المرتجة قامت للعزم فصلبت
للملامح ، ورسخت السوق ، وشدت الأيدي على الصوارم . وعندئذ أخذ الأشتر
بهم حيث كان زحف ابن بديل قبله ، فلا يكاد يصمد لكثيرة من عدوه إلا كشفها ،
ولا لجمع صلف منهم إلا حازه . . كانت ربة القتال هاديته . كانت تسبق خطواته .
كانت تفرش له الأرض بالنصر . . . أما صحبه فقد حلت لهم خمر القلبية فراحوا
يعبرون من كؤوسها حتى النشوة . وأما خصمه فقد بهتهم بلاؤه ، وثبات جنانه ،
وارتماؤه على الأسنة المشرعات صوبه كأنه يتمجل حينه . إذا ثبتوا له اقتحم .

وإذا انصرفوا عنه طارد . وإذا حركوا القدم للهرب كان أسبق منهم إلى منافذ النجاة يسد عليهم الخروق والمسارب . وأينما نقلوا العيون في جوانب المكان لم تقع إلا على حديدة سيفه ، الحافظة خطف الشعاع ، المتلاثلة كاللواء الجاري ، الصافية كالمرآة راحت تعكس على صفاتها منايهم . . .

حق رجاله الذين جاوروه في الحومة بهرم صدقه القتال ... تحدث أخوان عنه وهما يشهدانه يقصف ويعصف ، فخارا فيه . قال منقذ :

« ما في العرب رجل مثل هذا ، إن كان ما أرى من قتاله على نيته ... » .
فتساءل حمير :

« وهل النية إلا ما ترى ؟ ... » .

وعندئذ هن منقذ رأسه وهو مستريب حيران :

« إني أخاف أن يكون يحاول ملسكا ! » .

ولكنه كان لا يبتغي وجه دنياء . كان يرجو الآخرة ، ونصرة الكارم ، وإحدى الحسينين : غلبة أو شهادة . ولقد ساقه الزحف حتى رأى امرا من رجال الإمام يحمله نفر وهو على أكتفهم خضيب ، فسأل الناس :

« من هذا ؟ » .

فأخبروه :

« زياد بن النضر . استلحم عبد الله بن يزيد ، فتقدم زياد فرقع لأهل الميمنة رايته ، فقاتل حق صرع ... » .

ثم رأى بعد هنية جريحا آخر فسأل :

« وهذا ؟ » .

ف قيل :

« يزيد بن قيس ، لما صرع زياد ، رفع لأهل الميمنة رايته فقاتل حق صرع ... » .
وعندئذ غمر رضا محياه ، وقال :

« هذا والله الصبر الجميل ، والفعل الكريم . ألا يستحي الرجل أن يتصرف

لم يقتل ولم يقتل ولم يشف به على القتل ؟ ... » .

فالصبر فريضة ، والجرح غر ، والموت في معام القتال مثوبة وذكر .

أما الملك فنشب يفتن الدين استذلهم الحياة ...

وزحف بجمعه . . .

كان ماردا على صهوة جواد . خف لمة فكان كشبح . وطال قوامه كأنه
برج ، وأفعم بدنه توثبا وحركة فلاح كشعبان . . . وكان يذرع الميدان كالإعصار
الغاضب ، ويحتاج اجتياح عاصفة . لا تكاد تثبت تحته القوائم ، ويوشك من
نشاطه وسرعته أن يظهر هنا وهناك ، وهناك وهنا في آن . . . ولم يكن همه
حسب أن يلتهم ويقتحم ، وأن يقنص ويصيد ، وأن يقسط وهو يفرق الردى
على أعدائه قسمة عادلة وحصصا سواء . . . إنما كان يرجو أن تنجاب له غمرة
التعق فيشهد الخزاعى ورفاقه الذين تعاقدوا ممأ على الموت وهم الآن جثى بناحية
كلت منهم الجوارح ولم تذل الأرواح . . .

حينذاك كان النهار يترحل . الشمس تميل . الأصيل يلتهب . الأفق يصطبغ
بالشفق فيبدو جانب السماء كالحريق . . . وكانت الأرض مسرحا لأطراف
النساء الذى تقدمت طلائمه . فهنا بقعة قانية هى من ترى غريق فى الدم
أم انسكابة الشفق نخلتها الحجرة ؟ . . . وهنا كثيب من حجارة غبر ، أثمر لفحة
الرمضاء أم قدمسها ظل الليل ؟ . . . والرمال الصفراء كانت منعكس النهار الباهت ،
الذى خفت نوره وحال لون محياه . . .

وتحت ظلة الغروب رآهم اصقا بالأديم كالإبل البرك بعد نصب الإصحار . فلما
أن أحسوا فى جوارهم بالقوى الزاحفة ، وحركوا نحوها العيون السكيلة ، ودبت
الحياة فى أوصالهم دافقة عندما رأوا تلك الشارات من خطوط بيضاء تزين رؤوس
القادمين ومناكبهم ، وتنبأ أنهم من رجال الإمام . . .

وتهانفوا يسألون فى قلق :

« ما فعل أمير المؤمنين ؟ »

فأجابهم من أصحاب الأشر من ردهم إلى الطمأنينة :

« حى صالح فى الليرة ، يقاتل الناس أمامه » .

فرجع الفضاء بشرهم وشكرهم :

« حمدا لله ! .. قد كنا ظننا أن قد هلك وهلكتم ... » .

وقام ابن بديل يتوئب بقدميه ألف شيطان ! نسي وصيه . ونفض إعياءه .
ورده ذكر على جبارا عاتيا كما كان ، يبحث عن الخطر ، يتعدى الهول . . .

وأهاب بمائته :

« استقدموا بنا . . . » .

كرة أخرى عاود المفامر مجازفته . وجهه بصره إلى القبة البيضاء ، وسيفه ، وقلبه الذى كان يضطرب بالفت والزرابة ... وطى أثره سار رفاقه يستبقون الطريق ، ويوسعون الخطى حسبما أمكنتهم الجسوم المنهوكة ، وحمى الجراح ... وكانوا قد تساندوا بالمناكب ، يديون دبة رجل واحد ، ورجل واحدة ، وقلوبهم فى جنوبهم تطفر شوقا إلى الردى أو الظفر . وكان الخزاعى عليهم ، خلفه انطلقوا ، ومشاهم ، قبلهم مضى يشق المجهول ، وعندما أناه تحذير الأشر : « لا تفعل . . . » ابتسم ، ولم يضق ذرع خطاه ... وعندما جاءه نصحه : « اثبت مع الناس فهو خير لهم وأبقى ... » أبى السلامة ، وزود قدمه الزاحفة بجناح ..

وعبر لقدره ، دونه من عدوه سياج من المقاتلة كالغاب . جند ضخم تكاثفت جموعه تكاثف الظلمة فى الليالى المطيرة . صفوف كاللوج . فباى سيفه أصاب ، وكم من رقاب ؟ .. كان كزورق ، وكان حسامه مجدافى ملاح . كلما خاض لجة برزت لجة فتحرك هذا وتحرك ذاك وانساب القارب على التيار الأحمر ؟ .. ثم بدا الشاطئ فاذا هو وعر تحطم الزورق على صخوره . . . على مدخل القبة البيضاء . على مرماه . . . فلم يكذب يخلص إلى معاوية حتى زلزلت جراته أولئك الذين أحاط جمعهم بماهلهم فذهلوا عنه ، وغدوا عيونا جوفاء وأكفا مشولة . كانوا فى مثل حلم . كانوا رجالا كظلال . ولكن حرارة الحياة التى هجرتهم بفتة وتركتهم مسوخا صماء كالأصنام ، تركزت كلها فى حلق ابن هند الهلوع ، فراح يصرخ :

« ويلكم ! .. الصخر والحجارة إذا عجزتم عن السلاح ! .. »

فردهم إلى الوعى صياحه ...

من كل جانب تطاير الصخر والحجر إلى ابن بديل ليسلبه عمره . قذائف قذائف اندفع نحوه . ورجا ورجما غمره بطوقان . ما من رجل منهم مشى إليه مشية جندى بسيف أو حرب . ما من امرئ جرؤ فدانه . إنما تناولوه عن بعد بهذا النوع من العدة الذى يكفيهم لقاءه ويكف عنهم شره حساميه ، كأنهم

في عمرة ، وكأنه إبليس يحصبونه بحجرات ا .. وحين أوهى قوى وناء ، وفته
الصخر والحجر ، ورقد جسده الهامد كومة من مزق ودماء ، هتف معاوية برجاله
وقد فأت نفسه إليه :

« انظروا من هو ... »

قالوا :

« ابن بديل » ا ..

فأقبل نحوه يمد يده ليرفع غطاء كان قد ألقاه عبد الله بن عامر على الصريع .
وعندئذ ابتدر دمع ابن عامر ، ثم صلبت ملامحه ، ثم رد اليد الممدودة ، بمنف
وقسوة وهو يزأر :

« لا والله ، لا يمثل به وفي روح ا .. »

قال معاوية وقد هزته عزيمة رفيقه :

« اكشف عن وجهه فإننا لا نمثل به .. قد وهبت لك .. »

ثم ألقى بنظرة على الحيا الشائه ، فيها شماتة وفيها إكبار ، وهمس يقول :
« لو استطاعت نساء خزاعة أن تقاتلنا فضلا عن رجالها لفعلت ... والله
ما مثل هذا إلا كما قال الشاعر :

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها

وإن ثمرت عن ساقها الحرب شمرا

ويحمي ، إذا ما الموت كان لقاءه

قدي الشبر .. يحمي الأنف أن يتأخرا

كلث هزبر كان يحمي ذماره

رمته النايأ قصدها فتقطرا »

ومضى إلى قبته ...

ورقأ ابن عامر دموعه ، ثم جر على محيا الراقد الهامد الغطاء ...



حق الأصيل . كانت الوقعة مضطربة السمات ، خليطاً من تقهقر وصبر وإقدام ، خطوطاً مختلفة ، رفيعة وعريضة ، ذات معالم من هزينة ونصر ، ومد وجزر ، كتلك الخطوط التي راحت الشمس في غروبها تصبغ بها جوانب الأفق بريشة الشفق ، فيتجاور فيها النهار والليل ، الضوء والظل ، صفاء الآلى وعتمة العنبر ، وتنبتق منها أشعة الطيف كثير اللجين والتبر ، وتنظيم اللازورد والمرجان . . .

في الميمنة ذهب الأشريرم ويقوم . . . وفي الميسرة ثبت على يناضل ويصاول ، بغير ظهير ولا سند سوى هذه الطائفة من ربيعة التي دقت القدم في الأرض ، وألصقت السلاح بالأكف حتى لاح كل واحد منها كأن له إصبعا سادسة هي الرمح أو العنزة أو السيف . . . من اعتدال النهار لغروبه ، من الضحوة إلى الغسق ، والمساء لما تنتشر ظلاله ، وقفوا جميعاً يقارعهم الموت ، وينازعهم الثرى الذي وطئوه حبة حبة وحصاة حصاة . ولكنهم غالبوه بالعناد وإن لم يكاثروه بالأعداد . ما كان لامرئ حينذاك أن يقهرهم . لا قبل بهم لقوة ، وقد تحصنوا دون عدوهم ، بالإيمان يدرأ عنهم عادية الخوف وهي أفئك بالنفوس من أسنة النضال .

وسأل الإمام حين دفعه تيار الوقعة إلى هذه الفئة المصابرة ، التي ثبتت للموت :

« لمن هذه الرايات ؟ . . »

قالوا :

« رايات ربيعة »

فدعاهم وهو يكبرهم :

« بل هي رايات الله . . . عصم الله أهلها . وصبرهم ، وثبت أقدامهم . . »

ثم أشار إلى غلام حدث منهم ، كان يرفع رايتهم الحمراء :

« يا فقى . . . ألا تدنى رايتك هذه ذراعاً ؟ . . »

« نعم والله ، وعشر أذرع . . . »

وقفز يتقدم . ثم قفز ليغوص في جمافل العدو الكثيفة بغير مبالاة ، وقد

أذهلته الحماسة عن الناس ، ومواطن الردى ، ومهاوى الهام . . . ولكنه سمع عليا من ورائه يحذره :

« حبيبك ، مكانك ! . . . »

فتبث حيث قام . وثبت خلفه رفاقه لا يتخلل صفهم مغير ، ولا يهزم عن مواقع القدم مغامر . ناضلوا على الباع والذراع ، وعلى الشبر والفرس ، وعلى الحبة من الترى والرمال . ولم تختلهم قط عن صبرهم تلك الحيل التي انتفخت بها جعبة ابن هند وود لو أبلغته هدفه . . . فأنى له أن يختل ويخادع ، وأن يراوغ ويحتال ، والإمام على بصيرة من خافية ضميره ، لم يغب عنه أسلوبه في التويه . . .

من قبل ومن بعد جرد معاوية خيله ليبعد الخطر عن نفسه ، وليخذل الناس عن على ، وليأتيه من حيث يأمن البغته أو ترق خطوطه في مواقع القتال فلا تستعصى على الثغرة . بالمال . بالمنصب . بالفرور الذى يستأسر قلوب الرجال . بكل وسيلة وحيلة احتال . . .

أنت تراه حين يوقن أنه بات غرضاً واضحاً ترصده الأعين ، وهدفاً بينا تسعى إليه المنايا الظمآنة على شفرات بضعة من اللغامرين فى معسكر الإمام ، قد حصن نفسه عن النوازل الداهيات فنأى عن الميدان بفسطاطه . ثم اتخذ مسابجا من الحماة . ثم أضمن فى الحيلة فقدم فارسا من مواليه شبيها به ، كان يلبسه مثل ثيابه ، ويزوده بمثل عدته ، ويقدمه فى الغمرات لعل الأعين العادية والأبصار المشرعات أن تنخدع فيه . . .

وأتمر حقا هذا التويه . فكان الناس حين يخطر أمامهم حريث يتهايمسون بغير تردد : « ذاك معاوية ! » . وكان العاهل طيب الخاطر بحيلته . وكان دائم النصيح لفتاه ، دائب الحرس عليه ، فى سلامة مولاة أمان له هو نفسه وضماني حياته . وكان كلما رأى دفعه إلى الميدان حذره قبل أن تنطلق فى غمرة الصراع قدماه :

« يا حريث . . . اتق عليا ، وضع رحلك حيث شئت . »

لكن الفرور أوداه ! — أردى الغلام المدل المختال الذى ودسيده لو أداخره واستأخر بأجله بعد هذا اليوم . وأغير هذه الداهية القاصمة التي أتت بحينه ،

ورسمت الملعقات الأخيرة من عمره بكف صناع دون حذقها ودربتها جمعة الخيال
وشطحة الأساطير . . .

وكان الشيطان دليله . . . مضى يهون عليه ، ويزين له ، ويلون قدره بكل
زاه وبراق حتى هانت الأخطار ، وخفيت عنه قيم الأقدار . فلما انتفخ سمعه ،
وورم صدره ، ومال خده من الكبر ، أقبل يعثى على خيالاته وكأنما الدنيا تضيق
عن خطوه . . .

وكان عمرو عيطانه . . .

قال له ابن النابغة يفرية :

« إن رأيت فرصة فاقم . . . »

وكان على حينذاك على رأس جنوده . . .

ثم قال ثانية :

« ... إنه كره أن يكون لك حظها ... »

« من ؟ »

« معاوية . . . إنك والله يا حريث لو كنت قرشياً لأحب صاحبك أن تقتل

عائياً . . . لكنه كره أن . . . »

فصرت أسنان الفقى من الغيظ ... وفتح فحيح ثعبان ،

« كره . . . »

« فإن رأيت فرصة فاقم . . . »

فاقتم . . . ولم يكن بالجبان الرعديد ، بل كان ذا بأس ، جلد القلب .

شديد البنيان ، له ساعد دوار يطيعه سلاحه . . .

وصاح الغرور :

« يا على ، أقدم . . . »

فإذا هي آخر دعواه ، وكل ما لفظه حلقه من علائم الحياة . . . حتى النفس

لم يتردد بعدها فيه ، ولا كان له رجوع . وحتى خفقة القلب التي ختمت عمره

لم يهتز بها إهابه . وحتى اختلاجه العين وهي تظلم لم تجتليج لها أهدابه . . . إنما

هي كلمة وقع بها الإمام صوته ، يسخر ، وهو يقبل عليه : « يا أيها العبد الغرير —

اثبت ! » . . . فإذا الغلام قد ثبت . ثبت كيانه على الأديم للبلى بدمه . على باب

رمسه . . . هو في الحق لم يثبت وإن همدت منه أعضاؤه ، وسكنت أنفاسه ، وصار جيفة يرنو لها الوحش والطير . لم يرقد بدنه على الأرض وهو جميع . لم يقع وحدة موصولة إلى وطائه . إنما تفرق . تمزق . انفلق جسده كحبة الفول : رمة في اليمين ، ورمة في اليسار وقد شطرتة الضربة . . .

فأى المشاعر خالج الآن نفس ابن العاص ؟ . . . الأسى أم الأسف ؟ . . . الألم أم الندم ؟ . . . أم الذى كان أدنى إلى طبعه غير هذا وذاك من عواطف وخليجات ؟ . . . إنه لم يكن غافلا عن خطر على ، ولا هو حين أغرى الغلام ، كان يرجح أنه سيظفر . . . إنما أراه كان يعلم أن الحرف في وسوسته ، واللفظة في تغريده ، وكل ما احتواه أسلوبه الزائف المذاع هى جميعها إبرة تحيك كفن حريث ومعول يشق الثرى له عن قبر غائر يتوارى فيه . . . ومع ذلك فلا عن ضغينة للقى نزع نزع ، ونفت نقته القاتل المسموم . . .

لا لنقمة ولا لثأر . واسكنه كان رجلا يعرف نفسه ويعرف حليفه . وكانت نفسه هى بضاعته . وكان حليفه هو شاريها . فلو تعددت معها السلع في سوق البيع لبخسها معاوية ، أو زهداها ، أو هان شأنها لديه . . .

بهذه النظرة الثاقبة الحاسبة كان عمرو يقيس العلاقة بينه وبين ابن هند . فالصالح الدائى وحده هو مؤلفهما على هدف ، وجامعهما على غاية . وبقدر حاجة الواحد منهما لصاحبه يتوثق العقد ، وبقدر تغاينه عنه ينفطر . . . ولقد أيقن ابن العاص دائما أن الزمن الذى أوشك أن يحقق له أطباعه إذ جعله ناصحا لسيد الشام لن يظل إلى الأبد في ركابه إلا أن يؤمن التابع بفضل المتبوع ، ويعرف قدره ، ويقدر خطره . وما كان معاوية ليؤمن مثل هذا الأيمان حتى يهبط درجة من سمائه ، وتنتقص أطراف خيالاته ، وتقفز الأرض حوله من الأعلام والمشارف التى تخفى حليفه الوصولى عن عينيه . . .

أدنى إلى طبيعة ابن النابغة إذن هذه الشهامة التى أراقها نعره ، ذلك اليوم ، وحريث يدنو إلى حافة قبره وهو غرير . . . فهو علم يندك . وهو مشرف ينهار . وهو ريشة في قوادم العاهل أو خوافيه حين ينزعها الموت مستعوق الباشق أن يحلق ويستطير . . . وما كان عمرو ليرجو أن يوهن من قوة واهبه إلا بالقدر الذى يخفضه به إلى مستواه ، فيقهره على اللجوء دائما له ، والتعويل عليه . . .

حق حينما كان يسعى إليه بالرأى ، كان يبطن الشورى بعكره ، ويعزجها
بما ينال من كبرياء العاهل المستشير واستعلائه . فلم ينقط عن غمزه ، وعن كشف
هناته ، وعن تهوين شأن نفسه عليه ، هو المولع دأما بأن ييدو الأريب اللبيب
الذى يحتل السكر ، ويفتل السكر ، وتعنوا له جباه الدهاة . يخرج على إليه
ذات ساعة من القتال ، يناديه :

« يا معاوية ... »

ويكررها المرة بعد المرة ، والعاهل مجفل عنه لا يزيد على أن يقول لمن حوله :

« اسألوه ما شأنه ... »

« أحب أن يظهر لى ... »

عندئذ يدفعه عمرو إلى ما بين الصفيين وهوفى الأغلب كاره ، ليسمعوا الدعوة ...

« يا معاوية . ويحك ! ... علام يقتل الناس يبنى وبينك ، ويضرب

بعضهم بعضا ؟ ... »

فيرجه المجب .

ثم يصفى أفرجه

« ... ابرز إلى ، فأينا قتل صاحبه فلأمر له ... »

فيرجه الخوف .

ثم يسأل حليفه :

« ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا . أبارزه ؟ ... »

« اغتنمه منتها ! ... »

« ويحك ! ... »

« أنصفك الرجل ... »

فيكاد حلقه يغص بالمأظه الخيري المكتومة ، وهو مشدود :

« يا عمرو بن العاص ؟ ... »

« ... إن نكبت عنه لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقى عربى ... »

اغتنمه منتها ! ..

غير أن وسواسه لم يغلب ابن هند على حرصه ، ولم يلهه عن تبين القبر الذى

يغفر فاه على قيد الخطوة : إنها قدمه ترتفع ، ثم تنحط ، ثم لا تكون الحياة ...
وصاح معاوية في مشيره اللثيم :

« ما أحقك ! ... ليس مثلى يخضع عن نفسه ... والله ما بارز ابن أبي طالب
رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه ... إن تريد إلا أن أقتل ! ...
وحفظ معاوية بقية أجله ..
ونحك على ...

وسخر عمرو :

« إيها أيها الرجل ! ... أتجبن عن خصمك ، وتهم نصيحتك ؟ ...
ثم انتفخ حتى حسب أن قد ضاق به مكانه . واكتفى بحياه مسحة من خيالاته
وهو يعلق لأمره في اعتداد و صلف :

« والله لو علمت أني أموت ألف مائة لبارزت عليا في أول ما ألقاه ! ...
ولسكنها سخزية عابث وتفخمة مغرور ، فلم يهله القدر حتى ملخ عنه إهابه
الزائف المرقش وتركه عاريا أمام النواظر الزارية النقادة ... عاريا يدخيلته ،
وعاريا بسوانه ، وبين هذه وتلك لا فرجة لفخر بطل ولا لعجب مختال ! ...
فلقد خرج يجتلد ، والرحى تدور ، فكادت النخوة ، وحمى الحرب ، ونجمه
العائر القائر تقع به تحت كف الإمام . عندهذا تبدد الكبر من نفسه ، وجفت
الحمر في كأسه ، وغدا بدنه وذهنه وعينه جميعا مطايا له ذات أجنحة تطير بهمره
إلى تجوة بعيدة ...

وأقبل على . إن رأى فالخطر ، وإن دنا فالحام ، وحينذاك لن ترده الصوارم
القواطع عن رقيق دنياه ! ... وتد رأى . ثم دنا . ثم هم أن يدهم . فإذا
ابن العاص أسرع بالحيلة من دمه الدام ، وضربة البائر القاصم ... إلى ملاذ
الحياة ... الداهية الخبيث تفزعة المهجمة ، فيلقى بدرعه ، ويلقى بسيفه ، ويلقى
بنفسه تحت قدمي غريعة مفلول الحول ، مكشوف السراة ، كله ضراعة
ووهن ومذلة ...

ويأبى الإمام أن يلوث يديه بدم أعزل خافض الجناح ، تكرر ما وعفة ،
فيخليه ..

ويقول الناس :

« أفلت الرجل يا أمير المؤمنين . . . » .

فبيئسم لهم :

« وهل تدرون من هو ؟ . . » .

« لا . . . » .

« فإنه عمرو بن العاص ، تلقاني بعورته فصرفت وجهي عنه . . . » .

وعندما رجع الرجل إلى معسكره ببقية أجل سبغت ناجية على ماء حياته ،

سأله هناك صاحبه الشامت وهو لا يكاد يكتم سخريته :

« ما صنعت يا عمرو ؟ . . » .

فلم يردده الخجل عن جوابه :

« لقيني على فصرعي . . » .

وضحك معاوية . ما خفي عنه استخزاء رفيقه ، ولا هذه العلام من الضمة

والهوان ترهق وجهه بغبرة عاره وإن غشاها بنقاب خادع من الجمود . . .

وزجى حديثه له بعد قليل ، رفيقا لينا كوجه اليم في يوم صائف ، الصفاء

على السطح ، والشواثب في القاع . . . قال وظاهر لفظه الفرحة بنجاته ،

وباطن مدلوله السخرية :

« احمد الله ، وعورتك . . . » .

فتار ابن العاص وقد وخزته الغمزة :

« ما أشد تضيقك عليا في أمرى هذا . . . وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه

فصرعه . . . أفترى السماء قاطرة لذلك دماء ؟ . . : »

فكانت الكلمات الوائية التي أرسلها العاهل الساخر ، في تماوت وخبث :

« كلا . . . ولكنها معقبة لك خزيا أبا عبد الله . . » .

على أن هذه المساجلة بالمثالب بين الرجلين ، الحليفين الغريبيين ، لم تكن لتفسد

عليهما الألفة التي خلقتها المصلحة ، ووطنتها عبادة الذات . . . إنها اصطراع

للموجة والموجة لا يقعد بهما عن التهاوى إلى الشاطئ الوستاني والاعتناق فوق

قراشه الرمل الناعم . . . إنها سباق إلى التفوق بالجنان واللسان ، وبالدهاء

والذكاء ، وبالزهر والحيل . . . إنها رياضة ذهنية مارستها وهما معا على بيئة

من أهدافها ومراميها التي لم تكن قط لتحيد بالعين عن المرمى الأكبر ، والمهدف الأوحده الذي رمقاه . . .

ذلك وحده غرض الشوط وغاية المباراة . . . فما كان عرو جادا حين راح يدفع إلى المبارزة صاحبه وهو يعلم أنها دفعة إلى فسكى الأسد ودعوة سافرة للموت . . . ما كان ليفعل أو يفقد على الأثر هدفه ، ومأرب حياته ، ومنتهى المأمول من دنياه . إنا عمل كمهده لبيدى سواة الضعف فى معاوية ، ويضعه حينما يحب أن يكون . وفى الفترة التي انمقد خلالها بينهما الحلف ، كان الرجلان فرسى رهان نحو السكر ، يحاول كل منهما أن يسبق رفيقه ، وأن يغلبه بحيلة . أن يركبه بخدعة تنال من كبريائه ، وثقته بنفسه ، واعتداده بنصيبه الوفور من الذكاء والدهاء الذى ظن أنه يبوئه مكان الصدارة بين الدهاء والأذكاء . . . ومع ذلك فلم يدخرا الوسع فى إيقاع على بشراك من العدر محبوكة ، أملا أن تسد عليه المنافذ أو تزم الفروج لتوهن منه كلا أعيائها أن يلقياه جهرة لقاء أكفاء . . . وهما هنا والوقمة تضطرب ، والحرب تحرب ، وكفتهما فى مجال الصيال أثقل : بصف أثبت ، وجند أوفر وأغلب ، ونصر أدنى وأقرب ، يضمان معا أصابعهما المشربين . لتبتدع للإمام المزالق وتحفر الحفر ، وتندسج الأحابيل . . . إنك تشهد لها ظلا ينشر سواده على كل عمل يطوى خدعة وإن غلفاه بالنبل ، وموهاه بالروءة ، ولقاة لبة القتال بثوب خاتل من السكرم والأريحية بجلد الحية للرقش البراق . . . يرسل عبد الله بن حنش رأس خشم الشام إلى أبى كعب الخثعمى نصير على ، يحاول أن يفسد ولاءه :

« ... لو شئت تواقفنا فلم تقتل . فإن ظهر صاحبك كنا معكم ، وإن ظهر صاحبنا كنتم معنا ولم يقتل بعضنا بعضا . . . »

لكن هذه المداجاة لم تخدع أبى كعب عن حقيقة الدعوة . فالظلل بين . والنبل الياذى الذى يقدر وشائج النسب والقراية ويأبى لها أن تتمزق كان يشف من تحته عن تنكر للمهد وخرق للذمة . فما هو بحباد أريد به وجهه ، لسكنه فى صميمه تخذيل عن الإمام ، وإغراء لأعوانه لينفضوا عنه . ولن يضير معاوية بحال ، وهو الأعز بالنفر والعتاد ، أن تنجح دعوة ابن حنش ، وتعتمد خشمة السلاح ، بل للفرم محيق حينذاك بعلى على أية حال . . .

وفشلت الخدعة ، أو فشلت خرافة الحياد ، ولم يحول من قلوب خشم العراق عن أمير المؤمنين وقوف زعيم قومهم بالشام يبدى أسفه ، على ملأ من الفريقين ، ويتعدت لطائفته بلسان من ينشد السلام والحرص على صلات الأرحام :

« يا معشر خشم ... قد عرضنا على قومنا من أهل العراق المواعدة صلة لأرحامهم ، وحفظا لحقهم ، فأبوا إلا قتالنا ... فكفوا أيديكم عنهم ما كفوا عنكم ... »

ورد أبو كعب وهو يزحف بفريقه :

« يا معشر خشم ، خدموا ... »

قال ابن حنشل ليثنيه :

« يا أبا كعب ، السكل قومك فأ نصف ... »

فما رد توسله . إنما انطلق وشرعة الحرب ، وواجب الولاء لإمامه ، يخوض المنايا غير نا كل عن قصده ، حتى فرغ دون بقية الصراع أجله ، فحاز الشهادة ..

وعندئذ بكى عليه قاتله ، وضخج جسده الطمين بالدموع والحسرة :

« رحمك الله يا أبا كعب ... لقد قتلتك في طاعة قوم أنت أمس في رحما منهم ، وأحب إلى نفسا منهم . ولكن والله ما أدري ما أقول ولا أرى الشيطان إلا قد فتننا ، ولا أرى قريشا إلا قد لعبت بنا ... »

ثم لعبت أيضا الأصابع المشرون لعبة جديدة ، أفدح وأخطر ، وأبعد أثرا في تفويض دولة على وهدم سلطانه ... فما تضععت أركان ميمنته ، وأضعى جيشه فرقة تذهل ، وفرقة تنكل ، وفرقة تؤثر الأجل فتهرب وتبور ، حتى سمى عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن علي يغميه :

« إن أباك قد وتر قريشا أولا وآخرا ، وقد شفتوه ... »

وكان قد وترها حقا الإمام وترها وهي في شركها غارقة ، قد عنت للصبرة الصم وأبت أن تسجد لله . وترها وقد صفت للإسلام ثم ملكتها الفتنة خففت لجاء الحياة الجباء ... في بدر كما في الجبل ، وفي أحد كما بصفين . وبين هذه وتلك كانت الترة بالدم ، والترة بالملم ، والترة بالمحمد الزاكية والمكارم الرفيعة التي حسدت يوما عليها عمدا وهو مستضعف ، فلما ظهر ، وعلت به كله الله ، وآوى

العارد لظله ، وجدت ضغائن القلوب المقروحة معدى عنه إلى صفيه النبيل تناله
بالحد والأذى والسكيدة . . .

وأكل ابن عمر مراودته :

« . . . فهل لك أن تخلفه ونوليك هذا الأمر ؟ . . . »

فصاح الحسن وقد لدغته عقرب الحيانة :

« كلا والله ، لا يكون ذلك ! . . »

ثم تفرس مليا في محدته القرار المورور ، بنظرة تفيض بالترفع ، يقطر منها
ذلك السم الذى خرق أذنيه ، وقال بامتهان وزرابة :

« . . . أما إن الشيطان قد زين لك ، وخدعك حتى أخرجك مخلقا بالخلق ،

ترى نساء أهل الشام موقفك . . . يا ابن عمر ، سيصرعك الله ، ويبطحك
لوجهك ، وكأنما أنظر إليك مقتولا في يومك أو غدك . . . »

وتركه بعد ساعاته ! ..

٥

حان العمل بعد الحيلة ..

الآن كفة معاوية ثقيلة . ميمنة على ما تزال فلولا يحاول أن يلم الأثر شعنها
من هنا ومن هناك . يمن قلبه مولية . هضر الميسرة متخلقة عن مواقع القتال . .
جموعه مفرقة ، وخطوطه ممزقة ، وايس يسك المعركة أن تنجلي عن هزيمة
ساحقة إلا جلد الإمام واصطباره .

ونادى ابن عمر في طائفة من الميمنة الأموية ، وهو يوحى لهم إلا ربيعة :

« يا أهل الشام .. إن هزمت هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان ، وهلك

على وأهل العراق . . . »

فشدوا القائمة ، وهزوا الحسام ، وخرجوا معه ، معلمين بالخضرة .

كانوا أعداء حمير ، عليهم ذو الكلاع . قد حرك فيهم معاوية تلك المواجد

القديمة التى انطوت زمنا في قلوب أمثالهم من عرب الجنوب على عرب الشمال .

وكانوا نفرأ وأربعة آلاف ، تعاقدوا معا على الفناء أو النصر . وكان النهار حينذاك

في اعتداله ، الأفق ضياء ، والأرض رماد ، والنسمة لهب . لا تكاد وجوعهم تصانح إلا لفحة ، وأقدامهم تظأ إلا ججرة ، وعيونهم ترى إلا قطر العرق الذي تجمع على أهدابهم ضبابا كثيفا اختلطت به حبات الرمل .

ولم يكن الجهد قد نال منهم وإن تبدى على ملامحهم القاسية بعض رهبة الموقف ، وبعض مشقة الطريق ، وبعض جد القتال لم يضيقوا الخطوة . ولا تهييوا اللقاء . ولا خطر ساعة بأخلاقهم أنهم يزحفون في باطل . حتى ذو الكلاع لم يضطرب بالقلق فؤاده . . قبل نهوضه لهذا المسير ، من ليل ، كان الشك يحزه ، ويدهي ضميره ، وبوشك أن يشد قدمه إلى طناب قسطاطه ، ولكنه اليوم ، إذ زحف ، غسل من الحيرة نفسه ، ومن الريبة قلبه ، وبدد عن خاطره سحائب القلق فطاب . .

وردد الرجل بذهنه حديث ليلة في الليالي أوشك حينها أن يفتنه عن أهل الشام ، وعن معاوية وأهدافه ، ويلوى به ويقومه التنية وراءه إلى مظاهرة على والانحياز لصفوفه . . وكان ذلك ذات أمس قريب . وكان مبعث التردد حينذاك كلمة جرت في القابر يستمع به ، من بضع سنين ، ما كاد الزمن يعكس لفظها على ذاكرته حتى مشيت الرعدة بأوصاله ، والحيرة بصدره ، والألم العاصف النابض في محياه

إن تكن هزيعة فالهزيعة في الله نصر . وإن يكن نصر فالنصر في الخطيئة هزيعة . . . وذو الكلاع لا يجب أن ينام على ريبة أو ينطلق شوطه وهو عن الحق مخدوع . ليس يجعل يقاد بخطامه . ليس أداة صماء . . . ولئن ربطته بمعاوية روابط من الود والولاء والعهد ، فدينه أولى بولائه . . .

وبعث ذلك اليوم إلى ابن عمه ، أبي نوح ، حليف الإمام ، يستقدمه ليثمه همه ، ويلتمس لديه راحة الروح :

« إنى أريد أن أسألك عن أمر فيكم تمارينا فيه . . .

فلما أقبل عليه ، بعد استئذان ، قال ذو الكلاع له :

« إنا دعوتك أحدثك حديثا حدثناه عمرو بن العاص ، قديما ، في إمارة

عمر بن الخطاب . . .

فسأله ابن عمه :

« وما هو ؟ . . . »

« حدثنا عمرو عن رسول الله قال : يلتقى أهل الشام وأهل العراق
وفي إحدى الكتبتين الحق وإمام الهدى ومعه عمار . . . »

قال أبو نوح في ثقة ، وقد توجهت عيناه :

« لعمر الله إنه لفينا . »

« أجادهو في قتالنا ؟ . . »

« نعم . ورب الكعبة لهو أشد على قتالكم مني . ولوددت أنكم خلق واحد

فدبحته وبدأت بك قبلهم وأنت ابن عمي . . . »

عندئذ هتف ذو الكلاع وهو منزع مهموم . قد زلزلته لمجة اللحم

في حديث صاحبه .

« ويلك . . . علام تتعنى ذلك منا ؟ . . والله ما قطعك فيما بيني وبينك .

وإن رحمتك اقريبة ، وما يسرنى أن أقتلك . . . ؟ »

فلم يمطف فزعه ولين خطابه قلب هذا القريب الغريم الذي لا يداجيه .

بل سمعه ثانية يعنف ويلهب وجهه وقلبه بسوط الصراحة :

« إن الله قطع بالإسلام أرحاما قربية ، ووصل به أرحاما متباعدة ، وإني

لقاتلك أنت وأصحابك . . . نحن على حق ، وأنتم على الباطل مقيمون مع أئمة

الكفر ورءوس الأحزاب . . . »

واهتز فزع الخليف الأموي . وغدت قدمه كأن على ماء . . . ما ليعنيه

خامتا ؟ . . ما ليدنه وهن ؟ . . ما لقلبه خار ؟ . . إنه حديث عمرو . ذات

ألفاظه . من ذات شفثيه وإن بعد العهد وكرت عليه الأعوام . . . أفلا يؤمن

الآن ، ويبقى إلى جانب الهدى وقد وضعت العالم ؟ . . »

وصاح بابن العاص وهو مستوحش :

« ويحك يا عمرو . . »

نخله الخاتل الداهية . وأشرق عليه بوجه رائق فيه تألق الشعاع الهادي ،

وصفاء النبع يتفجر من صخرة ، وطهر الوليد . . . وكانت بسمة ناعمة كلمسة

النسيم تمسح شفثيه ، وصوته الخافت الرقيق ينساب :

« إنه سيرجع . . . سيرجع إلينا ويفارق أبا تراب . »
ولم لا ؟ . . .

بلى ، فهذه سمات يقين ، وعلائم إيمان . والعد القابل القريب سيكشف
الغطاء . . .

وتفكر مليا الرجل الحائر . . . الريبة تقبل عليه مرة ، وتدبر مرة ، تغيب
وتقلع كأنها سحب ليلة ذات ريج . تخف عن قلبه وتثقله . . . فإن يكن كذب
ابن العاص ، فعلى نفسه عقبي كذبه ، ووبال هذه الفرية التي أول بها رأى محمد
فأساء التأويل وخادع وخذل عن قدر الله . وإن يكن صدق فليست هذه أول
مرة يصبأ فيها من هنا رجل ، ويثوب فيها من هناك آخر . . . طوال الليالي التي
عاشتها المحنة الدامية فوق أرض صفيق ، كان الكثيرون على شبهة ، يستبدلون
بالفكرة المفكرة ، وبالمعسكر المعسكر ، وبمعاوية وعلى عليا ومعاوية . وقد
يصبح الصبح فيتابعهم عمار . . .

هنا استشر بعض طمأنينة . . . إن هذه الحرب حرباء . . . غير قلب ذات
الوان . أرتة الأضداد والنقائص بدتهه بالغريب والعجيب . الحق فيها حيران
قارب تائه . بلا شراع . وبلا ملاح . الرياح سكانه . والموج ربانه ، وهذا
الشاطئ الداني كذلك الشاطئ البعيد . كلاهما بسط رجاءه ، ومهد رمله
وحصباه ، ونحى وعره وصخره ، وفتح صدره ينتظر أوبة الشريد . . .

ثم نام الليلة في أحضان رجائه . . . وحلم وأصبح . وأضحت الضحوة عليه
وهو مستبشر . فابن ياسر الآن منهم قريب ، على رمية رمح : على قيد النظرة
من الألي حالفهم النصر وفرت أمامهم عوامل الهزيمة فرار الظلمة أمام الشعاع .
فما الباطل بغالب . وما الأمر إلا ساعة أو بمضها ثم ينبج الحق ، وينقأ أهله إلى
ظله ، ويقبل عليهم عمار من هناك ، يدع الظلمة ، ويهني النور . . .

إنها أمانى . رؤيا حالم . آمال غرير مخدوع . ولكنها ليست وحدها ما أراح
باله . فعدة الظفر في يمينه ، والغلبة لها سفراء ورسل يبعث بهم معاوية للمعسكر
الآخر ، يبدون الطريق لجيشه ، ويكشفون القلوب لسلاحه ، وينفثون السموم
في الصدور . . .

وكانت الخيانة من رسله .

ثمة رجل في يمينه الآن مفتاح الوقعة ، وغاية الغايات من ذلك الصراع الناشب
الذى تهيأت حمياه تأكل الظلف والقدم ، كما يحرق اللهب الحطب وتذرو
الزواجع المشيم . . .

وثمة آخر توطدت له بين أهل العراق الكلمة ، وتمكنت في يمينها السيادة .
وكان لقومه في الغابر ملك ترنمت العرب بأخباره ، ولهجت بذكره وسيرته حقبة
من الزمان . . .

وكان أولهما من الشمال . من ربيعة التى تثبت اليوم للهول من دون الناس ،
تدفع عن طى بالسيف وبالكف ، بالروح وبالقلب ، بالظفر وبالنايب ، وإن تفرق
عن نصره الحماة وتقطعت به عن مناجزة خصمه ، القوى الوفير ، الأسباب . . .
وكان ثانيهما من الجنوب . ما يزال بنفسه بعض الولاء للإمام ، والإقامة على
عهده . ولكنه امرؤ به زهو ، وآثار عزة وكبر تخلفت عن أسلافه الملوك من
كندة الذين راوده ذات يوم شيطانه على امتشاق صولجانهم البالى ، ووضع تاجهم
المحطم الدارس على مفرقيه وإن ارتد وخلع الإسلام . . .

لهذين الكبيرين زحفت الحيانة . . . لحالد بن العمر صاحب اللواء فى ربيعة ،
وللأشعث بن قيس صاحب الأمر فى كندة ، وكلا الرجلين كانت لهما يد من بعد
فى مصير الصراع . . .

وكانت البذرة الأولى الحبشة ، التى ألقاها معاوية فى الأرض الحثة ، يوم دعا
إليه عتبة أخاه فجاجاه :

« اتق الأشعث بن قيس ، فإنه إن رضى رضيت العامة . . . »

فخرج عتبة إلى صاحب الردة يدعوهم ، والناس حينذاك قد أكلتهم الحرب ،
وجنحت أنفوس منهم إلى رخاء السلام .

« أنا عتبة بن أبى سفيان . . . »

فزها الحالم أمسه بتاج الجنوب ، وقال :

« غلام مترف ، ولا بد من لقائه . . . »

واستقبله ، يسأله :

« ما عندك يا عتبة ؟ . . . »

قال باذر الحبة الحبشة وهو يهيم لها من صدر المدل المعرور مغرسها الصالح :

« يا أبا محمد . . . إن معاوية لو كان لاقيا رجلا غير علي للقيك . . . »

« إن لقيني والله لما عظم عني ولا صغرت عنه . »

فتنى عتبة عليه بالمصانعة والنفاق :

« . . . إنك رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن ، وقد سلف من عثمان

إليك ما سلف من الصهر والعمل . ولست كأصحابك . . . »

ولقد كان

فهو عامله قديما على أذربيجان . وهو صهر له ، ربطهما النسب ، منذ زوج

ابنته عمرو بن عثمان بن عفان . فكادت الصلة : عملا ونسبا تميل به — لولا أن

غيره قومه — إلى مظاهرة الشام وابن هند على العراق والإمام

ورد والنخوة تحرك لسانه :

« . الرأس المنيع والسيد المطاع على بن أبي طالب ! . . . وأما ما سلف

من عثمان إلى فوالله ما زادني صهره شرفا ، ولا عمله عزا . . . وأما عييك أصحابي

فإن هذا لا يقربك مني ، ولا يباعدني عنهم .. »

وعندئذ رفع عتبة بسن محرائه إلى الأرض السبخة :

« يا أبا محمد . . . إنك حاربت عن أهل العراق تكريما ، ثم حاربت أهل

الشام حمية . . . وإنا لاندعوك إلى ترك علي ونصر معاوية ، ولكتنا ندعوك

إلى البقية التي فيها صلاحك وصلاحنا . . . »

فتفكر الأشعث برهة يزن الأمر وهو تياه إذ انتهى إليه وحده حقن الدم

وإقرار السلام . ثم ما لبث أن أجاب :

« .. سنرى رأينا إن شاء الله . . . »

وقال معاوية لآخيه حينما عاد :

« يا عتبة . الرجل عظيم عند نفسه . . . وقد جنح للسلم . . . »

وما أخطأ الماهل الصواب . فالتربة قلبها المحراث . والبذرة وضعها الباذر .

والسقياء تمت : دهانا ورياء ومداجاة ، وعماقيل ، بعد ساعات . في إبان الدعوة

إلى الاحتكام لكتاب الله ، ستكون هذه الثروة تمت ، وفزع عودها وطال .

وغدت دوحة سامقة ذات ثمر مسموم^١

وكانت البذرة الحبيثة الثانية قد استوت منذ ليال في الأرض الحثة ، ساقا مورقة ، لها براعم ، وطلع كأنه رؤوس الشياطين ! ذلك ما رآب الناس ، وعلم على وخاضت الأسن الزارية فيه بالسرحينا وبالجهر آونة عندما حمل ذو الكلاع في حمير ومعهم ابن عمر على ربيعة الباقية وحدها على الخط . الصابرة للخطر . . . فإذا ذلك مال خالد بن العمر السدوس للانسحاب ببعض قومه كأنما لينأى بهم مشغفا عن المصارع . فلما رأى من عداه من أصحاب الرايات في ربيعة ثبتوا ، انثنى فعاد . . .

وتغامز الناس . . .

وتهامس فريق بشكه القديم :

« إنا لا نرى خالد بن العمر السدوس إلا قد كاتب معاوية . . . »

ولغظ فريق :

« أراد الانصراف فلما رأنا قد ثبتنا رجع إلينا . . . »

ودفع هو التهمة عن نفسه :

« لما رأيت رجلا قد انهزموا رأيت أن أستقبلهم ثم أردم إليكم ، فأقبلت

إليكم عن أطاعني منهم . . . »

ثم لم يخن عنه بلاؤه من بعد في القتال ، وتحريضه القوم على الصبر . والدعوة التي دعاهم للجنة . . . كل هذا الغشاء لم يستر سره . لم يقتلع الدوحة النابتة في ضميره . لم يجث جذرها السام . . . وإنها لليلة ويركل النصر — يبيعه سلعة رخيصة في سوق القدر والنكث والغواية ، ثم يعم وجهه شطر الشيطان .

* * *

على أية حال ، كاف ذو الكلاع وابن عمر حين زحما بالكنتية الخضرية الرقطاء قد آمنا أنها تسير للغلبة ، عدوها مهيب أو هنته الفرقة ، وأرضها لينة عبدتها الحيانة . . . ولم يكن ثمة أمامها إلا ربيعة ، إن جالدت خفية ، وإن صابرت فساعة . أما بقية جيش على فإلى الآن كالقطع الضال . .

لكن ربيعة أبت أن تبور ، لا وهن ولا تخاذل ، ما تنهاوى منها فرقة حتى تقوم فرقة ، كأنما تماقد الرجال فيها أن يتزاحموا على الموت دراكا تزاحم الإبل

هدية الشهيد السيد

السيد عز الدين بدر الطوم

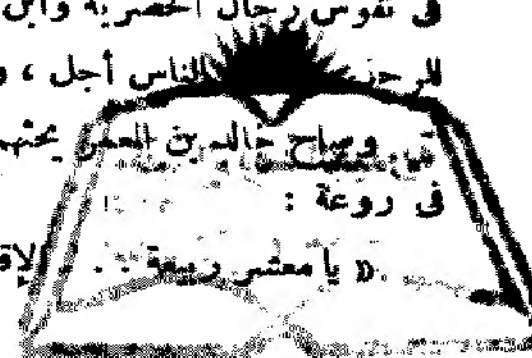
مكتبة الرواقية الحيدرية

المهم على المورد المذب بعد شقة الرحلة تحت وقدة المعير ١ .. شهد الله كيف صبروا . وكيف ذاقوا المر في الصبر ، وشهد أيضا تل الجماجم الذي استقبل منهم الهامة فوق الهامة ، كأها الركام والحجارة ، تشمع بها قمة ذلك الكتيب لمسبح السحب ، بهذه البقعة الحمراء بصفين ١ .. حق عندما نال البأس من عزم خالد ، أو نالت الغواية ، فقال بشرفه ورايته إلى نجوة ، لم يغتن الناس عن الجلال ميله ، ولم تستهزم منه هذه الدعوة الصامتة إلى الحياة . . . إنما أنسكروا عليه . وشنثوا فعله ، وساطت جسده السن حداد دفعت به ثانية إلى صفهم ، وردت حياته في محياه ٢ ..

من اعتدال النهار لغروبه ظلت الحضرية تهز نصالها في وجه ربيعة ، وربيعة أمامها تناضل ، كانت الصولة تقابل الصولة ، والسكرتة تقابل السكرتة ، وإن همت الكثرة في أحايين كثيرة أن تعصف وتقصف لولا هذه الإشاعة من الإيعان التي كانت تكشف دائما اضعاف العدد عن مغاني الجنة من خلال الدعاء ١ .. ما من رجل واحد بين الفئة التي ناشها سلاح الكتيبة الرقطاء كان يستطيع أن يترك العمرة ليسترخ ، أو يركز رمح ليلقف أنفاسه . . . بل الزفرة التي يلفظها كانت تحز في فؤاده لأنها هنيئة من عمره وات سيفصر بعدها أمد نزاله ١ . بل الصلاة كانت رمزا : التكبير تغني عن الشعيرة . والخشوع يترجم عن السجود والركوع ١ .. وفي خلال النهار كله لم تسر قدم إلا إلى أمام ، ولا يغمد سيف ، فالأغمد على سيوفها حرام ١ ..

وغدت الحياة وليمة شهية للموت طعمها نخوة ، وفي الظهر ، وساعة العصر ، وإبان تلون الأفق بصبغة الأصيل ، وذوبان الشفق في ظلال المشية . . وكانت فكرة الفناء تطوف بأنفس ربيعة الصابرة فلا تفزعها بل ترفعها درجة في مراقي الفداء . . وكانت فكرة الغلبة السريمة والنصر العاجل تذوي رويدا رويدا في نفوس رجال الحضرية وابن عمر وذو الكلاع . . فما عدوهم هؤلاء إلا مرده ، للرحمة الناس أجل ، وللرجل منهم عدة آجال ١ ..

في روعة : « يا معشر ربيعة : . . الإقدام منكم عادة ، والصبر منكم سعية ١ .. »



وأسرع زيادة بن خصفة إلى عبد القيس يلتبس عندها وقودا جديدا يبقى
لظي هذا الكفاح مستعرة :

« لا بكر بعد اليوم إن ذا الكلاع وعبيد الله بن عمر أبدا ربيعة ،
فانهضوا لهم وإلا هلكوا »

وما كانت هذه الطائفة لتبيد ، فالحياة لمن زهد الحياة . والموت يرهب
الشجاع المصابر وإن عزمها ليصلب وإن عنادها ليشدد ، وإنها لتقذف
غير هيابة بأعدادها إلى فم الهلاك فيخدش ولا ينهش ، ويكلم ولا يلتهم ، كان
مذاق لحمها كريه ، أو هو أنخم فغشت نفسه وعاف الطعام ؟



هدية الشهيد السعيد
المسيد عز الدين بقر الخطوم
مكتبة الروضة العبدرية

مطبعة الحرية - بيروت
تلفون : ٣٢٠٤١٠